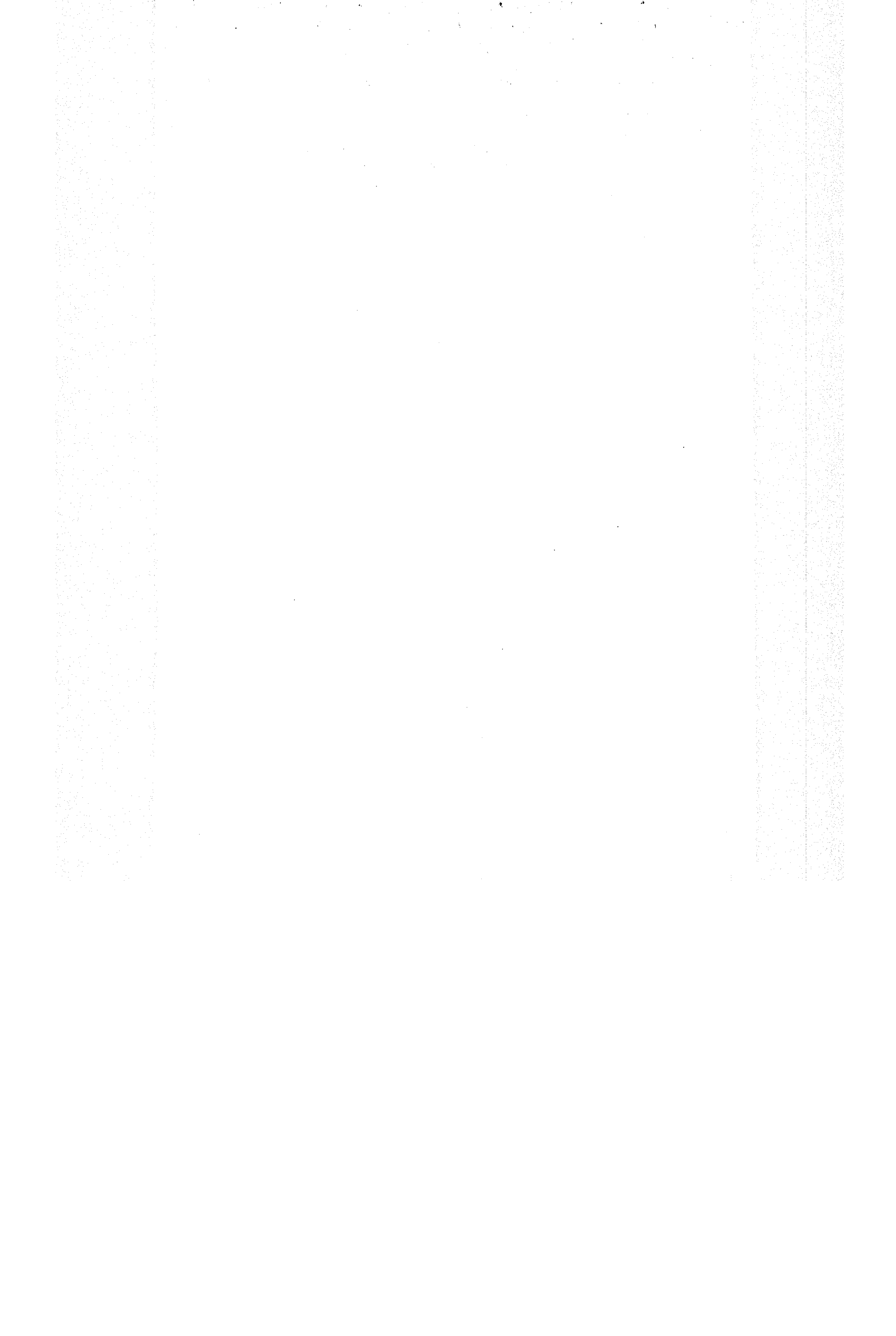
آشــــوربانيبــال

الفنان المحارب

إعداد

د. عبد الكريم العلوجى

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة- ميدان حليم خلف بنك فيصل - شارع ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا
٠٢٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٠٠١٠٤١١٥
٠١٢٩٩٦١٦٣٥ - ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦



آشـور بانيـبـال الـفنان المحـارب

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة- ميدان حليم خلف بنك فيصل - شارع ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا
٠٢٢٧٨٧٧٥٧٤ -٠١٠٠١٠٤١١٥
٠١٢٩٩٦١٦٣٥ - ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٤٣٨٣٣

المقدمة

تاريخ العراق الإنساني موغل في القدم. حيث يبدأ منذ انحسر الطوفان واستوت سفينة نوح على الجودي. وهو الجبل المطل على العراق في شماله. وهذا أمر سار ذكره عند الأقدمين. وأخبر به القرآن الكريم.

وقد حظي العراق باهتمام واسع منذ أقدم الأزمنة فاقتبست كثير من الأمم والشعوب من حضارته. وأفادت من إبداعاته، وذكرت حواضره، بابل وبغداد، وتناقلت أخباره.

أولى أهل العراق اهتمامًا بماضيهم الذي صنعوه وشيدوه بكدهم وعرقهم، وأحيانًا بدمائهم، وعنوا بتناقل أخبار ماضيهم وحاضرهم وتاريخهم، يدركون منه عراقتهم ويطلعون فيه على منهلهم

إن تقدم الحضارة يتوقف على قوة الروح الدافعة في الإنسان. وعلى طموحه وفكره وعلى الجهد الذي يبذله للافادة مما تقدمه الطبيعة. والحق أن الإنسان في العراق قد أدرك ذلك.

في الأسطورة العربية القديمة أن طائر العنقاء كلما تعرض للنار المحرقة خرج من جمرها ورمادها أقوى جناحًا وأقدر على العلو والتسامي. والعراق في فترات التاريخ المتعاقبة يعطي لهذه الأسطورة دلالة وعمقًا. فقد وضع التاريخ على أرض العراق بصماته الحية وسماته الزاهية. فمنذ فجر الإنسانية، ومع تفتح الوعي البشري على الحياة الحضرية، كان العراق موطنًا للبشر وقلبًا نابضًا بالحياة. متصلًا بأسباب الحضارة وفي رقعته المتميزة على سطح الكرة الأرضية اظهر على تعاقب الحقب قدرة على إغناء البشرية. وبناء حضارة واسعة الآفاق متتابعة الفصول. ولكنها لم تقتل روحهم الدافعة. فكانوا يستمدون كيانهم ووجودهم بأقوى مما كانوا كطائر العنقاء.

لقد كشفت الآثار والتنقيبات إنه منذ أول إشراقـات الحضارة البشرية كان العراق موطنًا للإنسان عندما كانت لفظة الإنسان شاملة لكل البشر. قبل أن يتسموا وتحتفظ المتاحف اليوم بأثار تعود إلى ما وراء الخمسين ألف سنة لهذه الحياة البدائية المبكرة في أرض العراق والتي تؤكد على وجود إنسان "النيدرتال" الأول فيـه. وإنما عمل على النمو والتقدم. فـأصبحت الحياة في العـراق تعني الحضارة. وقد ظهر ذلك جليًا منذ أوائل الألف الخـامس قبل الميلاد في عدد من المستوطنات البشرية في أواسط العراق. وعند السومريين وهم بناة أول حضارة في تاريخ البشر.

إن السمة الإنسانية تتجلى باهتمامهم بالإنـسان. وحرصهم على العناية بدراسته وتيسير الحـياة له والعناية بتـوفيـر مـا ييسـر طمأنينتـه وازدهاره. وظهـر هذا الاهتمـام واضحًـا في حرصهم علـى حق الفرد في حرية العمل والكلام والعـقيدة. وتجلى ذلك فيـما أبدعوه من أفكار وآراء في مـختلف جوانـب الحياة الإنسـانية، وفي حـرصهم على تدوين المعـلومات لتبقى معينًا يفيد منه أهل العصر والأجيال التالية.

نعيش اليوم في عصر العلم، في عصر الذرة، وقد عاش أناس قبلنا في عصر الحجر، ثم البرنز، ثم الحـديد، ثم البخار، وفي كل يوم يوافـينا العلم بالجديد والغـريب، وآياته الباهرة تحيط بنا من كل جانب في أعماق الماء وأجواء الفضاء.

وللعلم تاريخ طويل بدأ منذ بدأ الإنسان يعمل ويفكر، ومـا سجل منه يرجع إلى بضعة ملايين من السنين. ولم تقف نشأته عند بيئة بذاتها، ولا شعب بعينه، بل ساهم فيه بنو البشر جميعًا كل بنصـيبه، فتاريخه إذًا تاريخ الحضارة الإنسانية يسـجل حرمانها، وينتج تطوراتها ويعـرض مراحل نموها وازدهـارها، وفتـرات تلاشيـهـا وانقراضـهـا، ويبين مدى التـلاقي والتعاون بين الحضارات المتعاقبة.

وتاريخـه أيضًـا تاريخ العـقل البـشري، يرسـم محـاولاته الأولى التي أملـتهـا الغـريزة والحاجة. وظهرت صورة بدائية قامت على الجزئيات والخلط بين حقائق الأشياء.

من هنا لا بد لنا من إعـادة كـتابة التـاريخ من جـديد وهو لا ينفـصل اليـوم عن عمليـة

الصراع الدائر اليوم في منطقتنا العربية بشتى الوجوه وعلى مختلف الأصعدة. بعد أن جاء هذا التاريخ في صميم المعركة السياسية والعسكرية والجغرافية والحضارية والثقافية واللغوية، إنه صراع لا يتجزأ بين الماضي والحاضر والمستقبل وهو يدار بكل شراسة.

إن الصراع إذًا في التاريخ والجغرافيا لم يعد مقتصرًا اليوم على ما فعلته قوى الاستعمار والإمبريالية بالواقع العربي الراهن من تفتيت وقهر، وقسر على المراوحة وبقاء التخلف. بل يتعداه إلى مدى آلاف السنين بعد أن جرت عملية زج ذلك من التاريخ القديم الطويل كله في معركة الصراع الدائر اليوم وأصبح جزءًا من الصراع الفكري والآيدولوجي والعقائدي السياسي. هذا هو الصراع اليوم بين حضارتين وثقافتين بنيت على التاريخ الذي بنا هذه الحضارة وقدم كل مجهوده العلمي والتاريخي والثقافي للعالم.

إن من يبحث عن الحقيقة التاريخية الموضوعية سوف يجدها في عملية الصراع نفسها، ومنطق الحياة في التاريخ هو أن الظلام، والقهر، والاستغلال، والاستعمار، والاحتلال قوى سوداء تقف ضد الإنسانية.

إن معرفة التاريخ لا تعني مطلقًا معرفة أحداثه وتسلسلها في الزمان والمكان، كما أنها لا تعني الإحاطة بما قد وضعه بعض المؤرخين من تحليلات وتفسيرات لتلك الأحداث، إنها أبعد من ذلك بكثير. إن مهمة المؤرخ قد تكون أصعب وأخطر من أية مهمة علمية أخرى.

إن الحديث عن الأرض التي يشغلها شعب من الشعوب أو أمة من المم ليس حديثًا عن منطقة أو رقعة أو عقار. تنتقل ملكيتها من جماعة إلى أخرى. إنه الحديث عن الرحم والجنين. بكل ما بينهما من وشائج التنفس والغذاء. من هناك يمكن الحديث عن الأرض بمعزل عن الشعب. كما لا يمكن الحديث عن الشعب أو الأمة في معزل عن الأرض. لما لكل منهما أثر بالغ في تحديد ملامح الآخر وسماته التاريخية.

ولو أحببنا التعرف على الرقعة من الأرض التي شغلها الشعب العربي منذ أكثر من ستة آلاف سنة وحتى اليوم لوجدنا أنها الممتدة من البحرين الهندي والعربي _ صعودًا إلى شواطئ الخليج العربي. وجبال زغروس من الشرق. ثم تتقوس باتجاه الغرب إلى جبال

طوروس. وينحدر الخط جنوبًا على طول الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط. ثم يطوق مصر كلها ويجعل من البحر الأحمر بحرًا عربيًا بأكمله. ويمتد على طول الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط حتى الأطلسي.

وكما نلاحظ. فإن هذا الخط الحدودي الذي يعوذ إلى أكثر من ستة آلاف سنة يشمل كل المناطق التي اسمها شبه جزيرة العرب. ودول منطقة الهلال الخصيب الممتدة من طرفه الشرقي على الخليج العربي. إلى المتوسط إلى وادي النيل ثم تابع العرب من كل الحضارات الفينيقية والسومرية والبابلية والأشورية، توسيع الرقعة لتتلائم مع حيويتهم التجارية المتدفقة وجعلوها تمتد من أوغاريت وصبدا وصور إلى زرع ثمانين محطة _ مدينة عربية منتشرة من قبرص إلى شواطئ الأطلسي.

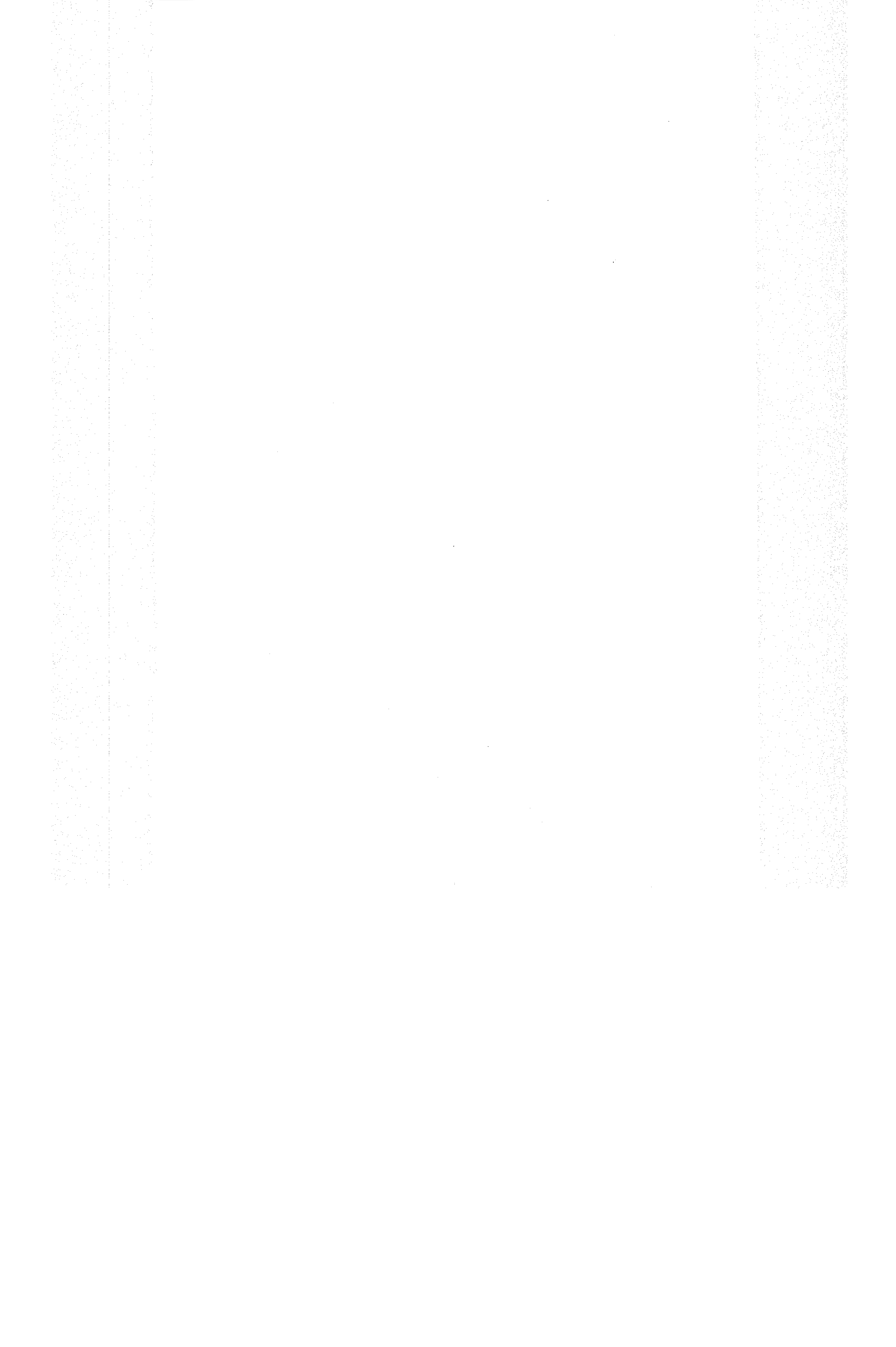
الحضارة كالحياة صراع دائم مع الموت، وكما أن الحياة لا يتسنى لها أن تحتفظ بنفسها إلا إذا خرجت عن صورها البالية القديمة.

وهذا ما نحاول أن نخرج من جديد للحياة نحو آفاق جديدة، تعيد تاريخنا ونحاول أن نستفيد منه بقدر المستطاع لأن التاريخ هو ذاكرة الشعوب. وكما نتذكر اليوم ذلك التاريخ وتلك الحضارات العظيمة التي نفتخر بها جميعًا علينا أن نخطو نحوها وإعادة بناء أمتنا الحضارة هي صورة الحاضر والمستقبل.

د. عبد الكريم العلوجي

الفصل الأول

الأشوريون والعقدة البابلية



الفصل الأول

الأشوريون والعقدة البابلية

الملك آشور بانيبال

آخر ملوك آشـور العظام وأشهرهم يكتب اسمـه بالمقاطع الهجائيـة: آشور - باني - بال Assur-bani-pal ويعني آشـــور أنجب ولدًا، وقـد ذكــره الإغـريق والرومـــان تحت اسم سَرْدانَبالوس Sardanapallos وهو الولد الثالث للملك أسرحدون[ر]. حكم مابين عامي ٦٦٨-٦٢٦ق.م، وبلغت آشور في عهده ذروة مجدها في الفن والعمارة والآدب والعلوم.

في أواخر أيام أسـرحدون، وقبيل وفـاة والدته الآرامية البابليـة نَقْية، وبتأثيـر منها، عين أسرحدون ابنه البكر شمش - شوم - أوكين على عرش بابل[ر]، وعين ولده الثالث آشور بانيبـال وليًا للعـهد في آشور. وقـد لاقى هذا التعيين مـعارضة شـديدة من موظفي القـصر ورجال الدين. وحتى لا تقع فـتنة دعا آشور بانيبال أولياء الأمر فـي آشور لبحث الموضوع، فأقنعـهم، وأخذ على أفـراد الأسرة الحاكـمة ورجال الدين وأعـيان البلاد والحكام التابعين عهدًا بتأييده وعدم الثورة عليه.

تمهيد

ظهر مـؤخرا في الأسواق كـتاب جديد تحت عـنوان "الاكتشـافات العشـر التي أعادت كتـابة التاريخ " للدكتـور باترك هانت ومن هذه الاكتشـافات مكتبة الملك الأشـوري آشور بانيـبال (٦٦٨ _ ٦٢٧ ق. م.) الذائع الصيـت ليس لتوسعـات الإمبراطـورية الأشورية في عهده التي لم يبلغها أحد من قبله ولا من بـعده في كل الهلال الخصيب فحسب، بل لكونه أول ملك أسس مكتبة فريدة من نوعها في تاريخ البشرية جمعاء.

ينتمي آشور بانيبال إلى السلالة السركونية التي أعطت للأمة الأشورية عصرها الذهبي في تحقيق وحدة الهلال الخصيب لأول مرة في التاريخ.

العصر الذهبي الأشوري

استطاعت الآلية الحربية الأشورية أن تؤمن حدودها الشرقية مع الشعوب الإيرانية وكذلك حدودها الشمالية حيث هزموا الحثيين والشعوب الآرية الأخرى وبقيت الجبهة الجنوبية الغربية التي كانت تتزعمها مصر.

أراد الملك أسرحدون، ابن الملك سنحاريب (٦٦٩_ ٦٨٠ ق. م.) أن يحذو سياسة أسلافه التقليدية والرامية إلى محاربة مصر، فسار بجيش جرار حتى بلغ وادي العريش وهو في طريقه إلى الدلتا. ولكنه اضطر إلى وقف زحفه هذا والعودة لمجابهة قيام تحالف بين الآريين والميديين والسكيثيين بحيث هزمهم شر هزيمة أيضا، لأنهم كانوا يهددون سلامة ووحدة الإمبراطورية الأشورية.

بعدها استأنف الجيش الأشوري زحفه إلى مصر بعد إخضاع بلاد الشام لسلطانه وللمرة الأولى وطأت أقدام الجيش الأشوري القارة الأفريقية بدخولها مصر بحيث أقدم الملك أسرحدون على لقب نفسه بملك مصر العليا والسفلى وملك أثيوبيا (الحبشة) شيئا لم يفعله أحد من قبله.

في هذه الأثناء كانت الثورة تهدر في بلاد آشور لأن الشعب لم يتحمل نصب آشور بانيبال الابن الثاني للملك أسرحدون ولي العهد للمملكة على نينوى وشمشوم اوكين إبنه البكر ملكا على بابل، لكن أستطاع الملك أسرحدون بيد من حديد أن يخمد نيرانها.

في السنة التالية اضطر أسرحدون التدخل في شؤون مصر من جديد بعد أن علم أن [طرهاكة Tirhakah] ملك الحبشة تمكن من استرداد مدينة "ممفيس" وإثارة الشغب والقلاقل في البلاد، ولكن لسوء الحظ ألم به مرض عضال لم يمهله سوى بضعة أيام حيث توفي على إثرها.

وبناء للوصية الملكية تبوأ الملك آشور بانيبال العرش وأول بادرة كانت له إذ أمر قائد

قواته "ربشاقي" بمتابعة الزحف إلى مصر حيث استطاع الجيش الأشوري أن يلحق شر هزيمة بجيش "طرهاكه" وبذلك أعاد النظام إلى البلاد من جديد ولكن ما أن وصل الجيش الأشوري بلاد الشام في طريق عودته إلى بلاد آشور، حتى أعلن ملوك الدلتا العصيان مرة أخرى. وللمرة الثانية اجتاحت القوات الأشورية وادي "النيل" مصر حيث واصلت زحفها حتى بلاد النوبة.

والجدير بالذكر أن هذه الحملة أسفرت عنها نتيجة إيجابية أخرى ألا وهي استتباب السلم والأمان في كل أرجاء البلاد السورية وهو ما وصفه المؤرخون قاطبة بالسلام الأشوري / Pax Assyriaca بحيث لم يجرؤ أحد على إثارة الفتن والقلائل وبذلك عمت شهرة الملك آشور بانيبال في سائر أرجاء المعمورة مما دعا المؤرخون بالقول، "أن الأشوريين حقا جديرون بأن يطلق عليهم لقب رومان الشرق".

كان الملك آشور بانيبال يبذل قصارى جهده رغم انشغاله بالحروب لإنجاز مشروع المكتبة الملكية الأشورية، ولكن الشيء الوحيد الذي جعل آشور بانيبال ذا شهرة فاقت كل الذين سبقوه أنه عمل جهده الدءوب لإتمام المكتبة هذه، أضف إلى ذلك أنه كان يلم الماما جيدا بالكتابة الإسفينية. المسمارية قراءة وكتابة وهاك النص التالي ما يدعم ذلك:

أما أ. ليو أوبنهايم / A. Leo Oppenheim يقول بحق الملك آشور بانيبال كيف كان يكرر وصف تدربه وانجازاته كأستاذ ومحارب في وقت واحد،إذ يقول: لقد احتفظت بكل المواد الأولية بدءا من السومريين، لقد درست حكمة نابو (النبي) واكتسبت فن الكتابة كله ومعرفة معظم الحكماء، كما تعلمت رماية القوس وريادة الخيل وقيادة العربات.

وهكذا استطعت قراءة النصوص السومرية الغامضة والأكدية العويصة وبحثت في الكتابة المسمارية على الحجر من قبل الطوفان.

ولإتمام مشروع مكتبته الملكية على أكمل وجه، أصدر أمرا ملكيا بحيث عممه على سائر أرجاء البلاد وهذا نصه: "ابحثوا وأرسلوا لي اللوحات النادرة التي تعرفون أنها غير موجودة في بلاد آشور... يجب أن لا يكون هناك مانع لكم، وبالفحص والتدقيق تجدون ما هو جيد لقصري وعليكم الحصول عليها بأي ثمن وإرسالها لي".

آفاق جديدة

منذ أكثر من مائة وخمسين سنة كل ما كنا نعرفه عن العالم القديم عامة وعن بلاد الرافدين خاصة لم يكن سوى ما تركه لنا كل من المؤرخ البابلي "برخوشا" والكتبة والمؤرخون اليونان إلى جانب الكتاب المقدس / العهد القديم. ولكن الجدير بالذكر أن كل تلك المعلومات والأخبار كانت ناقصة أحيانا و مشوهة أحيانا أخرى. نحن معشر الشعب الأشوري حقا مدينون لأولئك العلماء والمجتهدين الغربيين الذين أماطوا اللثام عن أنقاض نينوى، المدينة العظيمة والعاصمة الأشورية وغيرها من المواقع في بلاد ما بين النهرين باندفاعهم المتواصل لمعرفة أسرار الشرق الأدنى وبلاد ما بين النهرين خاصة ويتصدر القائمة هذه كل من " أميل بوتا / 1870 _ 1802) Emil Botta) الفرنسي والبريطاني " أوستن هنري لايارد / Sir Austin Layard " وابن نينوى البار هرمز رسام (١٨٢٦ _ ١٩١٠) وكثيرون آخرون. كما ينبغي علينا أن نثمن أيضا ما قام به الجهابذة الغربيين الذين استطاعوا فك رموز الكتابة المسمارية وقراءتها.

ويتبين أنها انصبت على إحدى وأربعين علامة بحيث تؤلف في مجموعها بما يمكن تسميته بحروف الهجاء / ألف باء ومن هؤلاء أدوار هينكس Edward Hinkes(1866 _ ١٧٩٢) وفوكس طالبوت H. Fox Talbot (1800 -1877)والسر هنري ل. رولنسون Henry L. Rawlinson (1895 _ ١٨٠٠) وجوليس أوبرت Jules Oppert ((1905 _ 1825

إماطة اللثام عن أنقاض نينوى المدينة العظيمة

إن الحدث الأكبر وذا أهمية بالغة كان العمل الجريء الذي قام به ابن نينوي "هرمز رسام" باكتشافه المكتبة الأشورية الملكية / مكتبة الملك آشور بانيبال أعظم وآخر ملوك الأشوريين.

إن إماطة اللثام عن أنقاض نينوى، المدينة العظيمة بعد أكثر من ألفين وخمس مائة سنة وقصة التحريات والتنقيبات التي بدأت عندما كان أميل بوتا _ Emil Botta (1802 1870) القنصل الفرنسي في مدينة الموصل .

لاحظ - بوتا - أثناء مسيره اليومي عابرا نهر الدجلة إلى الطرف الآخر من النهر مارا بين التلال الـقريبة من نهـر الدجلة أن الرياح (عوامل التـعرية) وسنابك الخـيل قد كـشفت الأبنية القديمة المطمورة، وكل هذا قل ما استرعى انتبـاهه، ولكن بما أنه كان رجلا مثقفا كان حدسه يدفعه إلى كشف الأشياء المشتبه بها والشخص الذي شجعه بالأكثر على ذلك كان " مول Mohl " أمين سر الجمعية الفـرنسية الآسيوية وقتئذ على القيام بنفـسه بعمليات الحفر والتنقيب، وبالفعل باشر العمل بنفسه بداية وعلى نفقته الخاصة إلى درجة أنه صرف كل ما يملك في جيـبه ولكن لسوء الحظ عـمله هذا لم يأت بنتائج إيجابيـة ومشجـعة. لذلك ترك الموقع إلى مكان آخر يبعد قرابة ١١ ميلا عـن نينوى يسمى " خورسباد " وكان ذلك في عام ١٨٤٣ وهنا أصابه الحظ حـيث اكتشف جـدران القصر الملـكي الأشوري ومنذ ذلك الحين ولد ما يسـمى بـ " علم الأشوريات Assyriology " وموقع خـورسباد صار واضـحا بأن وضع فرنسي آخر يـسمى "فلاندن Flandin" إذ جاء بمجـموعة من الـلوحات تحت عنوان "نصب نينوى" على غرار حملة نابليون بونابرت إلى مصر.

وبعد هذا الاكـتشاف الهام، عـاد إلى فرنسا حيث أنهـمك في طبع نصب نينوى في خمس مـجلدات. وعندما اندلعت الثـورة الفرنسـية في عام ١٨٤٨ والتـي أطاحت بعرش الملك (لويس فـيليب) وأعلنت النظام الجـمهـوري قد أدى إلـى نقل بوتا إلى وظائف غيـر مهمة لأنه كان من أنصار النظام الملكي.

في هذه الأثناء، كان المسـئولون البريطانيون قلقين ومـشغوفين ولهم الرغـبة بدخول حقل التنقـيبات.إذ اتفقوا مع الفـرنسيين الذين تخلوا عن الموقع بغياب (بـوتا) كي يباشروا العمل مع احتفاظ قسما منها للفرنسيين وليس هنا من هو أكثر جدارة للقيام بهذه المهمة من "لايارد - Sir A.H.Layardالذي استـطاع أن يدرك نوعا مـا قراءة الكتـابة الإسفيـنية / المسمـارية. وقد قام ببـعض الحفريات في المرحلة الأولـى وبدون موافقة الـسلطات المحلية ولكن بعد مدة وجيزة استطاع الحصول على موافقة شرعية.

بدأ لايارد بالحـفـريات لأول مرة فـي موقع مـدينة كـالح Calah احدى العـواصم الأشـورية وذلك في ٩ من شهـر تشرين الثـاني سنة ١٨٤٨ وكـان النجاح حليـفه إذ كـتب مباشرة لكانينغ Sir Stratford Canning مخبرا إياه بالنتائج المرضية.

مكانة هرمز رسام التاريخية

خلال الحملة الثانية، غـادر لايارد الموصل في ٢٩ حزيران عام ١٨٤٧ إلى استنبول ومن ثم إلى لندن مصطحبا معه السيد رسام، ومن جراء العـمل الشاق لمدة سنتين بين الأطلال الأشورية بوسعه وقتها الافتخار باكتشافه مدينة "كالح / نمرود " العاصمة القديمة وكذلك مدينة نينوى كما اكـتشف عددا من القصور الملكية الأشورية الأخرى والتـوصل إلى معرفة أسماء الملوك الأشوريين عـلى سبيل الذكر " آشور ناصر بال، سرغـون، شلمناصر، تغلات بلاصر، أداد نيراري، سنحريب وأسرحدون.

وعندما غادر لايارد للمرة الثانية ميـزوبوتاميا "بلاد الرافدين تاركا المشروع تحت إشراف ورعاية مساعـده "هرمز رسام" ابن المنطقة، ولما كان هذا مولعـا بتاريخ أجداده لم يستطع أن يضبط نفـسه إلا أن يستأنف الحـفريات والتنقيـبات ليس في القسم المخـصص للبريطانيين فحسب، بل وتعـدى إلى القسم المحتفظ به للـفرنسيين، وهكذا أصابه الحظ باكـتشاف هام جدا إلا وهو قصر الملك آشور بانيبال والمكتبة الملكية الأشورية.

مكتبة الملك آشور بانيبال

احتوت مكتبة الملك آشور بانيـبال على قرابة ٢٦٠٠٠ لوحة مخطوطة، وعلى الرغم من احتوائهـا على لوحات مكررة أو مما أصابها العـطب، لكنها احتوت على لوحـات تاريخية قيمة جدا التي غطت حوالي ١٢٠٠ موضوع وفي هذا الصدد يقول برنار ناب / A. Bernard Knapp حيث اقترح بأن حوليات ملوك الأشوريين منذ بداية ١٣٠٠ ق. م. وجب اعتبارها أولى الـوثائق التاريخية المصورة في تاريخ البشـرية بدون منازع. أما العالم الألماني كارل بيزولد Carl Bezold قد صنفها في خمس مجلدات محفوظة في المتحف البريطاني بلندن وهي على النحو التالي:

- التاريخ الأدبي
- مكتبة الملك الخاصة
- مكتبة المعبد

- المراسلات الملكية الرسمية

- العقود والمواثيق

ومن المحـتمل أن عـددها يربو على ٢٦٠٠٠ لوحـة، لأنه من المؤكـد أن لايارد لم يكن يعلم شيئـا عن هذه اللوحات في البداية معـتبرا إياها لأول وهلة مجرد قطـع فخارية للزينة وبدون أهمية تذكر حيث قد ضاع أو تلف منها الكثير أثناء التنقيب.

كمـا أوردنا في المقدمـة بظهور كـتاب جـديد في الأسواق تحت عنوان " الاكـتشـافات العـشر التي أعـادت كـتابة الـتاريخ " للأسـتـإذ باترك هانت ومن المواضـيع التي أثارها بأن الجنائن المعلقة لـم تكن في بابل بل في نينوى وبالطبع أن هذه الألواح ما زالت قـيد الدرس ومن المؤكد ستكون هنـاك كثيرا من المفاجـئات في المستقبل القـريب ونحن منتظرون بفارغ الصبر.

كانت هناك خطة حكومية لإحـياء مكتبة آشور بانيبال يوما وفي مـوقعها بالذات أي في الموصل نينوى لتمـارس دورها القديم كمنارة للحضـارة وذلك بالتعاون مع الدكـتور جون كيـرتس رئيس قسم الشرق الأدنى بالمتحف الـبريطاني ولكن تم إجهاض المشـروع من قبل الصـهيـونية وحلفـائها الغـربيين والعرب نـتيجـة غزو العـراق في عام ٢٠٠٣ حـيث ليس للمشـروع أي حسـبان اليـوم للأسف، بل والأكثر مـن ذلك إذ رغم التحذيـرات ومن قبل أسـاتذة أميـركيين بالذات وعلى سـبيل الذكـر "ماغـوير غيـبسـون" McGuire Gibson للمعهد الشـرقي في شيكاغو العمل للحفاظ على تراث بلاد الرافـدين الغنية والتي لا مثيل لها في العالم أجمع أن لا تمس بسوء، ولكن قوات الغـزو كل ذلك لم يهمهم بقدر الحفاظ على وزارة النفط حيث جرى الـنهب والسلب والخراب إلى درجة أن قذيفة أحـدثت فجوة في مقدمة بناء المتحف العراقي في بغداد نفسه الذي يمثل قصر الملك الأشوري سارغون.

وتحت إشراف وتأثيـر الصهيـونية التي ديدنها الأوحـد تشويه التـاريخ في بلاد الرافدين وخاصة الأشوري منه. ولكن اليوم بشرى سارة نزفها خاصة إلى بلاد الهلال الخصيب عامة أن اليـوم هناك لنا أكثـر من أسـتـاذ أجنبي واحـد حيث بوسـعهم ليس كـشف الحقـائق عن الحضـارة بدون تشويه فحـسب بل الدفاع ودحض أولئك الذين يشـوهون تاريخنا ومنهم "

سيمو باربولا / Parpola Simo الفنلندي(الرابط الملحق للأستاذ بربولا في حديث عن شعبنا الآشوري) إلى جانب هناك في حقل الأشوريات طلاب آشوريون الذين سيكون بوسعهم المساهمة أيضا في كشف تاريخنا الأشوري الناصع للعالم أجمع بدون تشويه أو تزييف.

كان آشور بانيبال منذ تعيينه وليًا للعهد يقاسم والده السلطة، ولما توفي والده في «أرخ شمنا» في عام ٦٦٩ق.م وهو في طريقه إلى مصر، اعتلى آشور بانيبال العرش وأطاعه أخوه الأكبر، ووجد آشور بانيبال نفسه أمام وضع عسكري معقد، إلا أنه لم يتردد في إصدار الأمر إلى قائد جيش والده شاشا - نبو - شوبا بالاستمرار في السير إلى مصر لتمع تمرد حكامها، فتقدم هذا إلى الدلتا، وهزم ملكها طهرقا ومن معه من الأمراء المصريين، واستولى على ممفيس (منف / منفيس) ثم طارد طهرقا حتى الصعيد، فاستولى على طيبة. وبذلك خضعت مصر جميعها للحكم الأشوري. وليضمن الأشوريون سيطرتهم على مصر أعادوا الأمراء المبعدين إلى مناصبهم، فنصبوا الأمير نيخو (نخاو الأول) في مدينة سايس.

ولكن ما أن عادت الحملة إلى بلادها حتى تمرد المصريون من جديد، فهاجموا الحاميات الأشورية التي قضت على التمرد وقبضت على زعمائه واقتادتهم إلى نينوى[ر]. وبعد وفاة طهرقا تسلم الحكم ابن اخيه تانُتمون (تَنتأَ مان) الذي ثار على الأشوريين، واحتل منف، لكنه سرعان ما انهزم أمامهم، واسترد الأشوريون السيطرة على الدلتا حتى عام ٦٥٥ق.م. وحدث في أثناء انشغال الأشوريين بقمع الثورات في مصر أن احتل ملك المانيين أخشيري قلاعًا آشورية، وهدد حدود آشور الشرقية. فسارع آشور بانيبال إلى إرسال كبير ندمائه «نبوشر أوحُر» على رأس حملة لقمع التمرد، وانتهى ذلك التمرد بقيام ثورة على أخشيري أودت بحياته وخلفه ولي عهده على الحكم، واعترف بسلطة الأشوريين، ودفع الجزية لهم.

وكان آشور بانيبال منذ اعتلائه العرش مطمئنًا إلى أن أورتاكي ملك عيلام[ر] سوف يحافظ على علاقات جيدة معه كالسابق. ولتمتين عرى تلك الصداقة استغل آشور بانيبال فرصة مجاعة حلّت بعيلام، فزوّدها بالمؤن وأذن للعيلاميين بدخول أملاكه. إلا أنه بعد وفاة

أورتاكي عام ٦٦٨ق.م حكم في سوسة الملك تمبت خمبان - أنشوشينا الذي كان يحقد على الأشوريين ويرفض صداقتهم. وتحقيقًا لأهدافه، أيد عصيان قبائل الجمبولو الآرامية والعربية في »نُفّر« وغيرها من مدن الجنوب فتصدى الأشوريون للفتنة بعنف وقضوا عليها. وزحف آشور بانيبال بعد ذلك على رأس قواته إلى سوسة، ودخلها فاتحًا عام ٦٦٣ ق.م.

أما في بابل التي كان شمش - شوم - أوكين حاكمًا عليها، فقد ظن هو الآخر أن الفرصة مواتية للتمرد على أخيه، فشق عصا الطاعة في أيار - حزيران من عام ٦٥٢ق.م. واتصل بأمراء مصر ورؤساء القبائل العربية والإمارات الآرامية وإمارات بلاد البحر (الخليج العربي) في جنوبي العراق. وكان أول من استجاب لدعوة شمش - شوم - أوكين بنو بعل شوماني من بلاد البحر والعيلاميون فجرد آشور بانيبال حملة تأديبية على بابل، وحاصر أخاه فيها، وفتحها عنوة، ودمرها، واحترق شمش - شوم - أوكين وسط لهب قصره. ثم زحف آشور نحو الجنوب للانتقام من القبائل الآرامية والعربية التي ساعدت الثورة فشتت شملها، ثم هاجم عيلام. وفتح عاصمتها سوسة، وخرّبها ونبش قبور ملوكها عام ٦٣٩ق.م.

لم يبق في الساحة من أعداء آشور بانيبال إلا القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام والبادية الشامية، وكانت تسبب المتاعب للحاميات الأشورية، فكلف آشور بانيبال حاكم دمشق الأشوري تأديبهم. فجهز لقمعهم كتائب أغارت على منازلهم في البوادي وأحرقتها، ونهبت قطعان إبلهم حتى لا يستخدموها مطايا، وهكذا دان المشرق القديم كله للحكم الأشوري. ومن يقرأ حوليات هذا الملك يرَ أنه قضى نحو ثلاثين عامًا في الغزو، وإن قال عنه الإغريق إنه محب للهو والمجون. ويكتنف الغموض السنوات الأخيرة من حكمه حين مال إلى الراحة بعد أن أنهكت الحروب مملكته، وخلفه على العرش بعد وفاته ابنه آشور - إتيل - إيلاني ثم ابنه الثاني سين - شار - إشكون، فلم يتمكنا من الحفاظ على إرثهما، وتوالت المحن على مملكة آشور إلى أن قضى عليها تحالف البابليين والميديين والسكيثيين سنة ٦١٢ق.م.

كان آشور بانيبال ملكًا حكيمًا ومحاربًا محنكًا وعالمًا مولعًا بالآداب، وقد قال: «لقد

تعلمت الحكمة عن الحكيم (آدابا)، واقتبست أسرارها، وأسرار فن الكتابة على الرقم. وخصتني السماء بالحكمة، وناقشت في مجالس العلماء، وشاركت في معرفة الفأل من الكبد، وأستطيع تفسير جميع الألغاز. وقد قرأت أصعب الرقم السومرية والأكدية، وتمعنت في النقوش الحجرية قبل الطوفان».

وحتى لو كان هذا القول تبجحًا، فإن ما يشفع له جمعه عشرات الألوف من الرقم في مكتبة قصره بنينوى. وقد عثر في قصره المحترق، على أكثر من خمسة وعشرين ألف رقيم وكسرة رقيم سطرت عليها أخبار الحروب والرسائل والمعاهدات والوثائق الاقتصادية والإدارية التي تخص عصره، والأشعار والآداب والقصص والأساطير والروايات والحكمة وغيرها.

ومع أن آشور بانيبال لم يضاه أسلافه في حبه للبناء، فإنه كان محبًا للفن، بني قصراً في نينوى زينه بأحسن اللوحات المنقوشة التي صورت حروبه وملذاته وهواياته بدقة وإتقان ميزاها مما عُرف في العصور السابقة.

مكتبة آشور بانيبال

لم يكن آشور بانيبال صيادا فحسب بل كان أيضًا محاربًا غزا العديد من البلدان بما فيها مصر.

رغم كل هذا كان يفتخر كثيرا بقدرته على الكتابة والقراءة في عصر كان تعلم الكتابة المسمارية فيه حكرا على النساخ.

وكان يملك مكتبة كبيرة جدا من الألواح، كان يجمعها له خدمه من جميع أنحاء البلاد، خاصة في بابل.

هذا اللوح هو النسخة البابلية لقصة الطوفان، الذي يقارب قصة طوفان نوح، كما تحكى في سفر التكوين في العهد القديم.

حينما احترق قصر آشور بانيبال في عصر سقوط الإمبراطورية عام ٦١٢ قبل الميلاد، انهارت المكتبة فوق الغرفة السفلية، وأدى هذا السقوط إلى تحطم هذا اللوح واحتراقه.

ولكن كمية هائلة من الألواح نجت من الحريق، وهي معروضة الآن في المتحف البريطاني.

الأشوريون والعقدة البابلية

وجد نظام دولة المدينةcity state في وسط وجنوب العراق بين (٢٩٠٠ - ٢٤٠٠) ق.م. وقد سمي بعصر فجر السلالات، حيث كان فيه البشر والماشية ملكًا للإلهة. سمى السومريون يسمون حاكم دولة المدينة Ensi أما الاكاديون فكانوا يسمونه ايشاكو e_aku.

- الاكديون انحدروا من الشمال وتحديداً من منطقة جبل سنجار غرب نينوى. سرجون الاكدي (٢٣٧١ - ٢٣١٦) ق.م مؤسس هذه الدولة. وحدّ البلاد وقضى على نظام دولة المدينة. اتبع سياسة تدمير أسوار المدن من اجل القضاء على مراكز تجمع المناوئين لسلطته. بسط نفوذه على كل بلاد سومر حتى انه يذكر في نص مسماري "غسل سلاحه في مياه البحر السفلي" أي مياه الخليج العربي. اتخذ مدينة أكد عاصمة له والتي ما يزال موقعها غير معروف لحد الآن. بنى في عاصمته الجديدة معبدًا للإلهة عشتار التي يدعي بأنها هي التي منحته الحكم. تذكر النصوص المسمارية بأنه استولى في الغرب على مدينة ايتو (هيت) وماري وغابات الأرز (جبال امانوس) وجبال الفضة (جبال طوروس) ومدينة ابلا في شمال سورية. وهناك نص مسماري عثر عليه في تل العمارنة في مصر عنوانه (ملك المعركة) يذكر بأن سرجون الاكدي وصل إلى مدينة بورش خندا في أواسط أسيا الصغرى لنصرة جماعة من التجار الأشوريين الذين أصابهم الظلم على يد أحد الحكام هناك. انتهى العهد الاكدي في العراق بموت شار - كالي شرّى ٢٢٣٠ ق.م.

- احتل الكوتيون وادي الرافدين مدة قرن من الزمن تقريبًا (٢٢١١ - ٢١٢٠) ق.م وكانوا شعبًا بربريًا قدم من جبال زاكروس ودمر كل شيء حضاري في العراق خلال فترة احتلإله له.

- سلالة اور الثالثة مؤسسها اورنمو دامت هي الأخرى حوالي قرن من الزمن (٢١١٣ -٢٠٠٦ (ق.م سقطت على يد العيلاميين، حيث احرقوا مدينة اور الجميلة ودمروها واخذوا الملك آبي - سين أسيرًا إلى عيلام. وبهذا انتهى آخر حكم سومري في البلاد وقد

تردد صدى الفاجعة التي حلت بأور والبلاد كلها في عمل أدبي سومري يعرف ب- (مرثية اور) التي تصف الخراب الكبير على يد العيلاميين. واليكم مقطعًا منها:

"ايه نانا، أن تلك المدينة قد حولت إلى رميم.... / في ابوابها العالية، التي كانوا فيها يتنزهون، رميت جثث الموتى / وفي شوارعها المشجرة، حيث كانت تنصب الولائم، استلقوا متناثرين / وفي كل طرقاتها، التي كانوا فيها يتنزهون، سجت جثث الموتى / وفي ميادينها، حيث كانت تقام الاحتفالات / استلقى البشر بالاكوام....".

- قبائل مارتو أو آمورو (الأموريين): كانوا سببًا مباشرًا في سقوط سلالة اور الثالثة السومرية، لان هجماتهم المتكررة أضعفت الدولة كثيرًا واضطر ملكها شو - سن (٢٠٣٨- ٢٠٣٠) إلى إقامة حصن دفاعي في مكان بين ماري واور لاتقاء شر غزواتهم. والمعروف عن هذه القبائل أنهم كانوا يتنقلون في بوادي الشام لذلك كانوا أدنى تحضرًا من سكان المدن. وقد وصلنا نصّ سومري يصفهم حسب تعبيره: " كانوا سكان خيام لا يعرفون بناء البيوت وكانوا يأكلون اللحم نيًا ولا يدفنون موتاهم...".

أن هذه النظرة السومرية عن البدو الأموريين لا ينبغي تفسيرها كما حاول بعض الباحثين بأنها تنم عن تعصب عنصري، وإنما هي تصور واقع الحياة لهذه القبائل البدوية التي كانت أقل تحضرًا من البلاد التي جاءوا للاستيطان فيها. وفي الكتاب المقدس وعلى لسان النبي اشعيا ورد حول تأسيس بابل: " ها هي ذي أرض الكلدانيين الشعب الذي لم يكن فأسسها آشور لساكني القفار...."

- سلالة بابل الأولى (١٨٩٤-١٥٩٥) ق.م

يعرف هذا العصر تاريخيا بالعصر البابلي القديم, لعدم ذكر وجود بابل بأي شكل قبل هذه الفترة (ويمكن الافتراض أن المدينة كانت عندئذ موقعًا غير مهم نسبيًا). لقد اختار احد شيوخ القبائل الأمورية الزاحفة إلى وسط العراق واسمه (سومو - ابوم) منطقة أو قرية بابل الواقعة على الفرات والمفتوحة على الصحراء الغربية موطنًا لتلك القبائل واتخذها مقرًا له اثناء الصراع الدائر بين سلالتي آيسن و لارسا ذلك في السنة الأولى من حكم ملك لارسا سومو - آيل أي في سنة ١٨٩٤ ق.م. واسمها القديم هو ، وتعني باب الرب. وبنفس المعنى ورد اسم مدينة كربلاء بصيغة.

استطاع هذا الشيخ الاستقلال في بابل وصار يحصنها , فبنى سوراً حولها وقام ببعض الأعمار وأعمال الزراعة في محيطها. وخلفه أربعة ملوك قبل حمورابي اهتموا جميعًا بتحصين المدينة وإنشاء المعابد وحفر قنوات الارواء وتوسيع نفوذهم إلى بعض المدن المجاورة. وهم سومو لايل وسابيئوم وأبل - سين وآخرهم سين موباليت والد الملك البابلي الشهير حمورابي.

وفي شمال بلاد الرافدين ظهر مركز سياسي قوي في ذلك الوقت, أي مع تسلم الملك شمشي أدد الأول (١٨١٤-١٧٨٢) السلطة في مدينة آشور. وكان لهذا الموقع (مدينة آشور) في الماضي تاريخ طويل. ومنذ الألف الثالث ق.م في العصر الاكدي كما مرّ لعب دورًا مهمًا في الحركة التجارية لاسيما تجارة التصدير. وكانت مملكة آشور في بداية الألف الثاني أيضا تمتلك محطات تجارية وصلت حتى الآناضول البعيدة. وحسب مدونات اللغة الأشورية القديمة المكتشفة في (قانيش القديمة). فقد حمل الأشوريون بالدرجة الأولى التصدير الضروري في إنتاج النحاس المحبب إلى آسيا الصغرى، بالإضافة إلى مواد أخرى. وحصلوا مقابل ذلك على الفضة والصفر الذي كانوا ينقلونه على ظهور الحمير عبر أراض جبلية وعرة إلى آشور. ونشاهد هنا في آشور ومنذ هذا الوقت المبكر. وحسب واحدة من الأخبار بأن الملك الأشوري ايلوشوما وصل إلى منطقة بابل في حوالي (١٩٢٠) ق.م.

دولة حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠) ق.م:

في السنوات الأولى من حكمه لم يكن يملك حرية الحركة كما كان يريد حيث أن مجال حكمه ونفوذه لم يتعدى دائرة محيطها ٨٠ كم حول بابل طيلة فترة الملوك الأقوياء وذوي التجربة مثل شمشي - أدد في آشور, وريم - سين في مدينة لارسا. اتبع حمورابي سياسة التأرجح واستغلال الفرص بين الاقوياء كونه دولة صغيرة طوال فترة حكمه الأولى, ويستدل من حقيقة الوثائق المنسوبة إلى السنة العاشرة من حكمه أن القسَمْ لم يكن عند حمورابي فقط وإنما تم تأديته كذلك عند شمشي - ادد في اشور "ما يدل على أن حمورابي كان يخضع إلى السيادة الأعلى لملك اشور".

كما أن حملة حمورابي في السنة الثامنة من حكمه ضد أموتبال عبر مملكة لارسا والتي كان يحكمها ريم - سين: " لا يعتقد أن حمورابي كان يستطيع القيام بهذه الحملة دون حماية ظهره على الاقل بل وحتى دون مساعدة آشور"، ولكن حمورابي سرعان ما فقد الحماية الأشورية بعد السنة العاشرة من حكمه أي بعد وفاة شمشي - ادد فصار ينتهج سياسة التعايش السلمي مع جيرانه في لارسا وآشنونا واشور نفسها وحتى ماري.

إلا أننا نشاهده بعد انتظار طويل قد دخل في حرب ضروس مع آشور في العقد الأخير من حكمه ولكن ليس من الواضح إلى أي مدى حقق الآنتصار ضد آشور. والي أي حد تم الحاق مركز بلاد آشور بدولة حمورابي، " أما عن تسمية ونينوى على أنها من المدن الواقعة تحت سيطرة حمورابي كما ورد في العمود الرابع من المقدمة، الاسطر (٥٥-٦٣) لقوانين مسلته والمتكونة من (٢٨٢) مادة... عدا المقدمة والخاتمة. فيبقى دليلاً غير مؤكد على خضوعها". وعندما لقب نفسه ب- "الملك العظيم، ملك بابل، ملك بلاد الأموريين كلها، ملك سومر وأكد، ملك الجهات الأربع" لم يذكر كونه ملك آشور!

وقد وصف جورج رو حال نهضة بابل العظيمة هذه والتحلل السريع لمملكة حمورابي كما يلي: (كانت في العراق خمس دويلات ذات ماضٍ عريق في الاستقلال... تمت عملية مركزتها مع بابل بالإكراه... وكانت جهود حورابي بجعل بابل المركز السياسي والاقتصادي والروحي للبلد، مرتبطة بالخير الذي تجلبه العملية إلى البلاد... إلا أن نتائج العملية كان تحطيم المقاطعات بشكل أو بآخر وخلق حالة تذمر متزايدة في مدن سومر واشور المجيدة، حيث كانت ذكرى انجازات شمشي - ادد الكبيرة ما تزال حية في الاذهان... لذلك لا نستغرب أن نشاهد اندلاع الآنفجارات والعصيان بسرعة مع موت حمورابي والتي أدت إلى التحلل السريع للمملكة... ومن الطريف أن نذكر أن المجد والقوة التي استعادتها بابل بعد ذلك كانت من عمل اجانب آخرين هم الكاشيون "

وقد وصف جورج رو حال نهضة بابل العظيمة هذه والتحلل السريع لمملكة حمورابي كما يلي: (كانت في العراق خمس دويلات ذات ماضٍ عريق في الاستقلال... تمت عملية مركزتها مع بابل بالإكراه... وكانت جهود حورابي بجعل بابل المركز السياسي

والاقتصـادي والروحي للبلد، مرتبطة بالخيـر الذي تجلبه العملية إلى البـلاد... إلا أن نتائج العملـية كان تحطيم المقـاطعات بشكل أو بـآخر وخلق حالة تذمـر متـزايدة في مدن سـومر واشـور المجيـدة، حيث كانـت ذكرى انجـازات شـمشي - ادد الكبـيـرة مـا تزال حيـة في الاذهان... لذلك لا نستـغرب أن نشاهد اندلاع الآنفـجارات والعصـيان بسرعـة مع موت حـمورابي والتـي أدت إلى التحلل الـسريع للمـملكة... ومن الطـريف أن نذكر أن المجـد والقوة التي استعادتها بابل بعد ذلك كانت من عمل اجانب آخرين هم الكاشيون " .

الكاشيون: اقوام سكنت جبال زاكروس قبل غـزوهم لبلاد الرافدين واسمهم مشتق من اسم الههم القـومي "كشو". أن فـترة الخمسـة قرون بين (1100 - 1600)ق.م التي كانت بابل تحت سـيطرتهم تعـتبـر ذات أهمـية كـبيـرة من حـيث التطورات الدوليـة والعلاقـات السياسيـة في منطقة الشرق الأدنى. نتيجة لتـعاصر ثلاثة قوى في المنطقة: الحثـيون في آسيا الصغرى. والكاشـيون في العراق وقيـام مملكة الجديدة في مصر. بالإضـافة إلى الأشوريين في الشمال.

لقد عرف هذا العصر بعصر العلاقات الدبلوماسية والسياسية وتبادل السفراء بين الملوك والأمراء لتلك الدول. واستفاد الكاشيون كـثيراً من توازن القوى في هذه الفترة من الزمن. حيث تكشف لنا نصوص تل العمارنة المكتشفة عام ١٨٨٧ في أنقاض قصر الملك اخناتون والتي يزيد عـددها عن (٣٦٠) سـالة وتعود إلـى زمن امنوفس الثـالث واخناتون ابنه وهي مكتـوبة بالخط المسمـاري واللغـة الاكدية. وقـد أرسلت إلى هذين الملكين من قـبل الملوك الكاشيين والميتانيين والأشوريين وعدد من حكام المقاطعات في سوريا وفلسطين...الخ

ونقرأ في رسالة من الملك الكاشي برنابورياش الثاني (١٣٨٠ - ١٣٥٠) إلى امنوفس الرابع (نو - خفـيرو - رع) ملك مصر. كـيف يمتعظ فيهـا الكاشي من الاستقبـال المصري للوفـد الأشوري بصـفة رسـمية ويدعي تبعـيتـهم إليه ".... أمـا ما يخص الأشـوريين من أتباعي، أفلمْ أخـبرك برسـالتي في شأنهم، فلمَ دخلوا بلادك؟. وأنت سـتعمل على إحـباط سعـايتهم وجهـودهم. وفي الختـام لقد أرسلت إليك هدية ثلاثة منات من حـجر اللازورد وعشرة أفراس لخمس عربات".

وقد بنى كوريكالزو الأول مدينة جديدة لتكون عاصمة له بدلاً من بابل وهي مدينة دور – كوريكالزو (عكركوف) إلى الغرب من بغداد ٢٠كم. والتي اقتحمها الملك الأشوري توكلتي – ننورتا الأول (١٢٤٤ – ١٢٠٨) ق.م محرراً بلاد بابل من الكاشيين وضمها إلى الحكم الأشوري المباشرإذ وردنا في كتابة له: ...."وفي غمار تلك المعركة أطبقت يدي على كاشتيلياش الملك الكاشي... وجلبته وهو مكبل وعار أمام الإله آشور. وأخضعت بلاد سومر وأكد حتى ابعد حدودها لسلطتي فامتدت حدود ارضي إلى البحر الآسفل ذي الشمس المشرقة". [١٠]

– الأدوار التي مرت على بلاد آشور:

قد ينسب الأشوريين إلى اسم أول مركز حضاري كبير لهم (آشور). والذي تحول فيما بعد إلى عاصمة مهمة لدولتهم. وقد أطلق اسم آشور على الإله القومي للأشوريين أيضا. فلا يعرف على وجه التأكيد أيهما كان أصل الأخر، اسم المدينة أو اسم الإله.

لقد سكن الإنسان في بلاد آشور منذ أقدم العصور وحتى الآن، واتفق العلماء على تقسيم مراحل التاريخ الأشوري كما يلي:

١ – العصر الأشوري القديم (٢٠٠٠ – ١٥٠٠) ق.م

٢ _ العصر الأشوري الوسيط (١٥٠٠ – ٩١١) ق.م

٣ – العصر الأشوري الوسيط (٩١١ – ٦١٢) ق.م

تشير النصوص الأشورية المكتشفة في موقع (كول تبة) قانش قديمًا إلى وجود جماعات آشورية تعمل بالتجارة في هذه المنطقة منذ أواسط الألف الثالث ق.م. وان هذه المستوطنات التجارية الأشورية كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الإداري والقانوني ضمن إطار سيادة الحكام المحليين. وإنها ظلت تحتفظ بولائها لآشور إلام وتدين بديانتها وتتبع نظمها وتقاليدها وقوانينها وتعيش حياة آشورية بصورة عامة رغم بعدها الشاسع عن الوطن إلام. وكان يطلق لفظة كاروم (Karum) على كل مركز من تلك المراكز التجارية الأشورية والذي يعني (ميناء).

بدأت فترة النهوض القويـة الأولى لآشور مع ظهور شمشي أدد الأول (١٨١٤ - ١٧٨٢) وتحديدًا عندما بدأ هذا الملك بتـوسيع رقعة بلاده بضم بمدينة ماري على الفـرات ثم امتدت علاقاته إلى يمخـد (حلب) وقرقميش (جـرابلس) وقطنا. وفي الجهة الشرقـية للملكة بسط نفـوذه على القبـائل الكوتية والتـركيـة واللولبـية ومع الجنوب أي مع حـمورابي كـانت له علاقات صداقة ومجاملة.

وخلال العـصر الأشـوري الوسيط والذي بدأ مع حكم بوزور - آشـور الثالث (1521) ق.م تقلبت أوضاع بلاد آشـور في هذه الحقبة الطويلة من تاريخـها والتي استمـرت زهاء ستة قرون.

فـقـد تمكن آشـور اوبالط (١٣٦٥ - ١٣٣٠) من تحـرير البـلاد من النفـوذ الميـتـاني في الأجزاء الشمالية منهـا. واعترفت مصر بسيادة قوة الدولة الأشورية وأقامت مـعها علاقات صـداقة. أمـا الكاشيـون فقـد فشلوا في تالـيب المصريين ضـد الأشوريين كـما فـشلوا في السيطرة على بلاد آشور. لذلك اخـتاروا طريق السلم والصداقة وعقـدوا معاهدة مع الملك الأشوري خـتمت بزواج سـياسي بين ابنة الملك الأشـوري وابن الملك الكاشي. ولكن هذه الصداقة سرعان ما تعرضت إلى نقض من لدن البابليين فحدثت مؤامرة في البلاط الكاشي أبعد بموجبهـا صهر الملك الأشوري ونصب شخصًا آخـر ملكًا مكانه مما جعل آشور اوبالط أن يتـدخل ويعـيد تـنصيب حـفـيـده من ابنتـه ملكًا على بابل. غـيـر أن الاضطرابات بين الأشوريين والبابليين سرعان ما اندلعت مرة أخرى مع موت آشور اوبالط.

أصبحت البـلاد الأشورية منذ هذا التاريخ مهـددة بالإخطار من جهات مخـتلفة. فكان على الملوك المتعاقبين أن يعملوا على تثبيت سـياسة حكيمة لدرء الأخطار عن دولتهم. وقد خلقت هذه الظروف الصـعـبة زعـماء أقـوياء وحكمـاء في خبـرتهم الإدارية والعـسكرية والدبلوماسية فأثبتوا للعالم كفائتهم في ذلك وأسسوا دولة منظمة قوية بسطت نفوذها على جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم.

من هنا صارت تواجه المختص في التاريخ الأشـوري مشكلة متكررة وهي: أن الفترات التي كانت فيها دولة آشور قوية وملوكها من الشخصيات الرئيسية كانت تتناوب مع ظاهرة

كـون كل من الدولة والملوك قـد تضـاءل إلى عـدم الأهمـيـة والمقـدرة في المحـيط الدولي والداخلي. فـالسؤال الذي يطرح نفـسه هنا، هو: هل أن الملوك المقـتدرين هم الذين رفـعوا شأن آشور إلى القـوة والرفاهية بكفاءاتهم الـغريزية، أم أن تحسن الأوضاع الدولية بـالنسبة إلى الدولة الأشورية دفع ملوكها نحو الهدف والقوة العسكرية والاقتصادية؟

المؤرخ الشهـير هاري سـاكز يرى: (ان الحقـيقة تـقع بين هذين الرأيين المتطرفين. فليس هناك ملك مهـما كانت قـابلياته يمكن أن يرفع شأن آشـور بين فكيّ أوضاع دولية مـعادية. ولكن عندما تكون الأوضاع الدولية لصالح آشور فأن الملك المقتدر والعزوم فقط يتمكن أن يستفـيد استـفـادة قصـوى من ذلك). يسـتنتج من هذا أن مـعظم الملوك الأشوريين كـانوا مقتدرين يتحينون الفرص. ومن بين هؤلاء النادة العظام كان:

شيلمنصر الأول (١٢٧٤ - ١٢٤٥) ق.م الذي اشـتهر بفوتاحته الكبيـرة وقضائه على الاقوام الجـبلية شمـال شرق البـلاد الأشورية وبحملتـه على اورارطو (ارمينيـا) لأول مرة. والحاقـة دولة خانيكلبـات بالدولة الأشورية ،وتأسيـسه عاصـمة جديدة للـدولة وهي مدينة كالخو.

خلفـه ابـنه توكلتي ننورتـا الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨) ق.م سـار على نفس السـيـاسـة الخارجية الأشـورية حيث قام بفتوحات عـسكرية كبيرة في الغرب والشمـال. واتبع سياسة التهجـير السكاني. أما بالنسـبة إلى بابل فقام بهـجوم كاسح عليهـا واخضع الملك الكاشي ودخلت بابل لأول مرة تحت الحكم الأشوري المباشر. فكان ذلك السبب الأول والمباشر في تمازج الحـضارتين. وانتـقال عـبادة مـردوخ البـابلي إلى بلاد الأشوريين ودخـول اسمـه في تركيب كـثيـر من الأسمـاء الأشورية وكان ذلك مـؤشراً إلى مـيل الأشوريين للتـحرر من الإقليمـية والآنفتاح إلى بلاد بابل واقـتباس بعض مقومـاتها الحضارية. وفي الوقـت نفسه انتـقلت كثير من المظاهر الحـضارية الأشـورية إلى بلاد بابل. والسبب الرئيـسي وراء هذه الحملة الأشـورية واحتلال بابل كانت أطمـاع الحاكم العيلامي اونتش - كـال الذي خاض معركـة ضد البابليين وربحهـا وذلك قبل اضطرار الأشوريين للتحـرك صوب بابل وجلب ملكها كاشتيلياش أسيرا إلى نينوى.

وبعد مقتل الملك الأشوري هذا وانشغال الأشوريين بالاضطرابات الداخلية انتهز العيلامي شترُك - تاختني الفرصة وزحف بجيش كثير على بابل " واجتاح معظم جنوب العراق ونهبه بشكل لم يسبق له مثيل، فنقلت النصب المشهورة وأعمال النحت الفنية الرفيعة - مثل مسلة حمورابي ونرام سين ونصب مانشتوسو إلى سوسة".

وفي عام ١١١٥ ق.م اعتلى العرش الأشوري الملك تجلات بليزر الأول الذي استطاع أن يعيد البلاد الأشورية إلى قوتها السابقة وأكثر. حيث قضى على الأقوام التي عرفت بالمشكو في آسيا الصغرى وفي الشمال الغربي وصل الأشوريون إلى الساحل السوري. أما في الغرب فهاجم القبائل البدوية الرحل أخلامو.

أما سياسته تجاه بابل فليست واضحة تماما غير انه قام ببعض الغارات العسكرية التأديبية على حدود بابل.

- العصر الأشوري الحديث:

يمتد بين (٩١١ - ٦١٢) ق.م ثلاثمائة سنة غيرت وجه الشرق الأدنى بالكامل. حيث وصل الأشوريون خلالها إلى قمة مجدهم وازدهارهم وعنفوان قوتهم العسكرية. أن التعاظم الأشوري هذا واتساع نفوذهم لم يكن محض صدفة بل لابد من وجود أسباب وعوامل عدة وراء ذلك. ومن هذه العوامل ما هي داخلية وأخرى خارجية. ومنها ما يمكن معرفته أو استنتاجه من متابعة تطور الأحداث ومنها ما يبقى غامضًا.

لتحليل السياسة الأشورية في هذه المرحلة ذهب الباحثون منحيين مختلفين تمامًا.

- فهناك من الباحثين المحدثين من يعزي الانتصارات العسكرية الأشورية وتعاظم قوتهم العسكرية ومن ثم التجارية والإدارية والعلمية إلى الأساليب الهمجية البربرية التي اتصفت بها الحملات العسكرية والي تعطش وتلذذ الملوك الأشوريين العظام إلى القتل وسفك الدماء وتعذيب الأعداء ونهب خيرات الآخرين..الخ. وقد يبدو هذا التوجه صحيحًا لأول وهلة طبقًا إلى المصادر التي اعتمدها هؤلاء الباحثون.

ولكن بمجرد إجراء دراسة تحليلية وعلمية للتاريخ الأشوري السياسي والحضاري

للقرون الثلاثة الأخيرة. مع الأخذ بنظر الاعتبار الظروف والمخاطر التي كانت تمر بها الدولة الأشورية سوف يتبين بوضوح خطأ هذا الرأي وعدم مطابقته لواقع السياسة الأشورية ومتطلبات الحالة آنذاك. فالمصدر الرئيسي لمثل هكذا باحثين هو اسفار العهد القديم (التوراة) بالإضافة إلى النصوص المسمارية التي دونها الملوك الأشوريون انفسهم عن أخبار حملاتهم العسكرية المتلاحقة إلى الشمال والغرب والشرق من البلاد الأشورية. تلك الكتابات التي عرفت بالحوليات الملكية أو النصوص التاريخية الملكية. إضافة إلى المشاهد المنحوتة التي صورها الفنانون الأشوريون وحسب رغبات الملك على ألواح الرخام والتي كانت تزين جدران القصور الرئاسية.

أما بالنسبة للتوراة نقول بما انه كتب في القرنين السادس والخامس ق.م أثناء السبي البابلي لليهود أي بعد زوال الدولة الأشورية وبعد قضاء الدولة الكلدية (البابلية الحديثة) على مملكة يهوذا وسبي سكانها إلى بابل فمن الطبيعي أن يكون مثل هؤلاء الكتّاب من أشد الحاقدين على الأشوريين وبابليين. وجاءت كتاباتهم تظهر هذا الكره والحقد الشديد للأشوريين بصورة خاصة وللعالم غير اليهودي بصورة عامة. هكذا فقد أظهر التوراة الأشوريين بمظهر الطغاة والقتلة وخير صفاتهم الشراسة وسفك الدماء دون مبرر. وكأن ملوك إسرائيل ويهوذا ومصر، ومن قبلهم ومن بعدهم، كانوا حمامات السلام.

أما عن النصوص الملكية المكتوبة فيمكن القول أن الملوك الأشوريين كأسلافهم الملوك العراقيين الذين سبقوهم كانوا يدونون أخبارهم ومنجزاتهم العسكرية والعمرانية على ألواح خاصة لوضعها في المعابد والقصور وأمام تمثال الإله القومي للبلد أو المدينة لتكون بمثابة تقرير ملكي رسمي مقدم إلى ذلك الإله للاطلاع على أعمال وكيله وقائد بلاده الملك المأمور والمفوض من قبل هذا الإله للقيام بحماية البلاد والعباد. ومن الطبيعي أن تكون لغة أو أسلوب المبالغة هو السائد في هذه النصوص.

ومن هنا تظهر الإنجازات والانتصارات فقط، غافلة الإخفاقات والخسائر في معظم الأحيان. ومن الطبيعي أيضا إظهار قوة الملك وقسوته وقدرته على البطش بالأعداء وقمع الثورات. لأنها أي هذه الألواح كانت الوسيلة الوحيدة المتيسرة لبث الدعاية والإعلام

للملك ودولته ومقدار سلطته. هكذا فأن ما ذهب إليه المؤرخون المحدثون لا يعطي الصورة الحقيقية والواقعية للسياسة الأشورية.

ولكن يجب أن لا يفهم من هذا أن الأشوريين لم يكونوا شجعانا وأقوياء وأشداء على الأعداء وقساة مع المتمردين والعصاة وكل من كان يحاول النيل من أمن بلادهم. وفي هذا الصدد يورد توينبي ترجمة نص مسماري آشوري يصف روحية الجيش الأشوري والانضباط العسكري العالي فيه: " لن يتعب أي منهم أو يتعثر، ولن يتغلب النعاس على أي منهم أو ينام، كما لن يرتخي حزام خاصرة أي منهم أو ينقطع شريط حذاءه ".

أن السياسة التي انتهجها ملوك وقادة آشور كانت هي السياسة الناجحة والوحيدة آنذاك لضمان أمن وسيادة الدولة الأشورية وحماية حضارتها من الدمار. كما أن الأشوريين لم يلجئوا إلى القوة إلا كحلّ أخير ونهائي لحل المشاكل لان سياستهم الخارجية كانت قد اتصفت بالاتزان والتعقل مقارنة مع سياسة الأقوام التي عاصرتهم وحتى تلك التي جاءت من بعدهم، وان حروبهم رغم قساوتها لم تختلف عن الحروب العيلامية والحثية والمصرية وحتى الحروب الفارسية واليونانية والرومانية التي جاءت بعد الأشوريين بكثير.

كما ذكرنا وكما هو معلوم كانت ثلاثة قوى كبرى تتحكم بمصير بلدان الشرق الأدنى القديم قبيل نهاية الألف الثاني قبل الميلاد: وهي الإمبراطورية الحثية في آسيا الصغرى وشمال سوريا. والسلالة الكاشية في بابل والإمبراطورية المصرية بالإضافة إلى دولة آشور المتجهة نحو النمو والازدهار. وقد حصلت تغيرات عظيمة مع بداية الألف الأول ق.م حيث زالت الإمبراطورية الحثية. وانكمشت مصر نتيجة الخلافات الداخلية وإنهاك قوتها في الصراع مع الحثيين، ولكنها ظلت تحرض الدويلات السورية ومملكة يهوذا واسرائيل وتمدها بالعون للتمرد ضد النفوذ الأشوري الذي كان ينافسها في مصالحها التجارية على ساحل المتوسط. وعندما اصطدم الأشوريون معهم أي مع المصريين نتيجة هذا الموقف، ما لبثت مصر أن فتحت أبوابها أمام الجيوش الأشورية وأصبحت تحت الحكم الأشوري المباشر.

أما إلى الجنوب أي في بلاد بابل فبعد زوال السلالة الكاشية في القرن الثاني عشر ق.م

تعاقب على حكم البلاد عدد من السلالات المحلية والغريبة الضعيفة التي لم تقو على مجابهة أعدائها وأعداء الأشوريين، مما جعل الأشوريين في وضع صعب! عليهم الاختيار بين الزحف وضم بابل إلى الحكم الأشوري المباشر لدرء الخطر القادم من الجنوب (بلاد البحر) أو تقديم الدعم والإسناد إلى تلك السلالات البابلية الضعيفة وغير الملتزمة مع الأشوريين وسياستهم الحازمة. من هنا كانت مشكلة الأشوريين مع بابل أي أنها هي العقدة البابلية التي استمرت طوال فترة العصر الأشوري الحديث وحتى بعد سقوط آشور.

وفي هذه المرحلة المهمة من عمر الدولة الأشورية، كان على كل ملك آشوري يتقلد زمام الأمور أن يثبت سلطته وكيان دولته المترامية الأطراف ويقوم بحملات عسكرية دون توقف والي الجهات المختلفة لمجابهة الإخطار وبسط نفوذ الدولة على الأقاليم المجاورة. هكذا تحقق الانتصار تلو الآخر وتأسست أعظم إمبراطورية. في تاريخ العراق القديم. وكان السبيل الأول إلى ذلك قوة وعزم وثبات الفرد الأشوري وصلابته بالاعتماد على النظم الإدارية الكفوءة والدقيقة التي اتبعتها الحكومات المركزية في إدارة البلدان المفتوحة حديثًا والأقاليم التابعة. وعلى قدرة وكفاءة وقوة الجيش الأشوري وكفاءة عدده وحسن تنظيمه وتدريبه وقابليته للدفاع والهجوم وفي مختلف البيئات والظروف التي تميزت بها الجبهات الأشورية المختلفة.

وبناء على نتائج هذا التوسع الأشوري الكبير تم ضمان سلامة الطرق التجارية وتطويرها مما سبب تدفق البضائع والأموال إلى المدن الأشورية الرئيسية. وهذا بدوره سبب في ازدهار العمران والفن والعلوم والحياة الاجتماعية بصورة عامة.

كما أن سياسة التهجير التي اتبعها معظم الملوك الأشوريين في هذه المرحلة كان لها الأثر الكبير في امتزاج الحضارات والثقافات ضمن الشرق الأدنى على الأقل. ومن ثم انتقال مظاهر الحضارة الأشورية إلى بلاد اليونان وجزر البحر المتوسط وبحر ايجة أثر اتصال الأشوريين عسكريًا بساحل البحر المتوسط وسواحل آسيا الصغرى واحتكاكهم بأقوام الحوض المتوسطي عمومًا.

– أدد – نيراري الثاني (٩١١ – ٨٩١) ق.م

أول ملك من العصر الأشوري الحديث الذي قام بحملة عسكرية على بلاد بابل سالكًا

الطريق الشرقي، وعقد معاهدة معها لتثبيت الحدود بين الدولتين ولهذه المعاهدة أهمية خاصة لأنها احتوت على موجز لتاريخ المنازعات بين الطرفين.

- توكلتي نينورتا الثاني (٨٩٠ - ٨٨٤) ق.م

توجه بحملته الثالثة إلى بلاد بابل ووصل إلى دور - كاريكالزو وسبار مما يدل على ضعف السلالة البابلية المحلية. وفي طريق عودته سار مع الفرات ومنه إلى الخابور حتى وصل نصيبين وتوغل في أسيا الصغرى استظهاراً للقوة.

- آشور ناصربال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩) ق.م

الذي يصفه جورج رو: "وقد جمع كل مميزات ومساوئ الملوك العظام الذين سبقوه حيث كان طموحًا شجاعًا متغطرسًا ومجدًا وظالمًا. ولا نصادف في تمثاله الذي عثر عليه في نمرود والمعروض الآن في المتحف البريطاني أي ظل لابتسامة، ولا حتى أية سمة إنسانية بل نجد أنفسنا أمام تمثال صارم لعاهل متجبر ذي أنف يشبه منقار النسر ونظرة تتبدى عن نظرة مباشرة فاحصة لرئيس يتوقع من رعاياه طاعة مطلقة وفي يديه الرمح والصولجان".

وجه آشور ناصربال حملتين إلى مدينة بابل فقضت على كل تمرد فيها. وهو الذي قام بتجديد مدينة كالخو بالكامل وافتتحها (٨٧٩) ق.م في احتفال رسمي ضم حوالي سبعون ألف شخص وأقيمت احتفالات بالمناسبة لمدة عشرة أيام متتالية.

وفي النص الخاص بتفاصيل هذه المأدبة (الاحتفال) التي أقامها آشور ناصربال الثاني بمناسبة إكمال قصره الشمالي الغربي في كالخو. الذي ورد على مسلة حجرية كبيرة عثر عليها في كالخو وهي الآن محفوظة في متحف الموصل. وفي الكتابة المرقمة (١١٦) والتي بدايتها: (عندما قدس آشور ناصربال ملك بلاد آشور القصر البهيج القصر المليء بالحكمة، دعا آشور الإله العظيم وآلهة البلاد كلها...). وردت أسماء وكميات وتفاصيل المواد الغذائية والمشروبات والفاكهة المقدمة للمدعوين لهذه المناسبة السعيدة والذين بلغ عددهم (٦٩٥٧٤) وكما يلي:

١ - ٤٧٠٧٤ رجل وامرأة المدعوين في أنحاء البلاد الأشورية.

٢ - ٥٠٠٠ من النبلاء والمبعوثين من الدول الصديقة والمجاورة.

٣ - ١٦٠٠٠ سكان كالخو.

٤ - ١٥٠٠ عمال القصر (زريقو).

ويختتم النص هكذا [.... فقدمت لهم الطعام والشراب لعشرة أيام وجعلتهم يستحمون ويدلكون بالزيت. هكذا أكرمت (ضيوفي) واعدتهم إلى بلدأنهم بسلام وبهجة]

ولمعرفة عظمة هذا القصر ومدينة كالخو وعاهلها يكفي أن يفكر القارئ بكيفية التخلص من الفضلات الصلبة وفضلات المطبخ بالإضافة إلى كيفية توفير الماء اللازم لمثل هذا العدد من البشر في زمن لم يكن نظام الاسالة والصرف الصحي في المدن معروفًا!؟.

- شيلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤) ق. م

لقد فاق والده في كثرة حملاته العسكرية حيث كرس ثلاثة وثلاثين سنة من عهده الذي دام خمسة وثلاثين عاما لشن الحروب على الأعداء. وكان نصيب بابل منها عندما قام باخماد الثورة التي نشبت فيها ضد الملك البابلي الموالي للدولة الأشورية والتي قادها شقيق الملك البابلي هذه المرة بدعم من القبائل البدو (الاراميين) وبلاد البحر. وبعد طلبْ الملك العون من شيلمنصر الأشوري الذي دحر المتمردين ودخل بابل وقدم الضحايا في معبد مردوخ ومعابد كوثا وبارسيبا وعامل سكان تلك البلاد المقدسة بكرم ورعاية، ويقول بهذا الصدد: " أعددت لشعب بابل وبارسيبا المحمي أحرار الإله العظيمة وليمة فخمة فقدمت لهم الطعام والشراب وكسوتهم بالحلل الزاهبة وقدمت لهم الهدايا ". ثم تقدم إلى الجنوب وهزم أعداء بابل الكلديين ولاحق فلولهم في كل مكان.

- شمشي أدد الخامس (٨٢٤ - ٨١١) ق.م

رغم مساعدة بابل له إبان الثورة التي اندلعت في أواخر أيام والده شيلمنصر والتي استمرت أربعة سنوات، إلا انه اضطر بعد تسلمه الحكم إلى توجيه حملة عسكرية ضد بابل نتيجة تحالفها السريع مع عيلام وبعض قبائل بلاد البحر ضد آشور. ولكن شمشي أدد استطاع القضاء على ذلك التحالف. وقدم النترابين لإله بابل عام (٨١١) ق.م كما فعل اسلافه.

- أدد - نيراري الثالث (٨١١ - ٧٨١) ق.م

كان قاصرًا فصارت أمه (سمو - رمات) شميرام وصية على العرش الأشوري في بداية توليه السلطة. إلا انه استطاع إدارة دفة الدولة بنجاح ولفترة غير قليلة.

- تجلات بليزر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧) ق.م

مع بدأ عهد الإمبراطورية الأشورية الثانية ومع تسلمه السلطة كانت الدولة منكمشة على ذاتها وقد استقلت معظم أقاليمها التابعة لها وتدهور الاقتصاد أيضا. إلا أنها تمكنت في أيامه من إعادة قوتها وسيطرتها السابقة بل وامتد نفوذها إلى مناطق جديدة لم تكن واقعة تحت سيطرتها في السابق أبدا. وكانت أولى حملاته نحو نهر الكارون والتي دفعت ضغط قبائل البحر عن بابل التي حرص العرش الأشوري على استقرارها السياسي دومًا. حيث ورد اسم الملك البابلي في كتابة عن هذه الحملة، مؤكدة بأنه في حماية الملك الأشوري.

وفي السنوات الأخيرة من حكمه اندلعت ثورة في بابل مرة أخرى والتي قادتها القبائل الكلدية القاطنة في أقصى الجنوب أي منطقة الاهوار، وأزاحت الملك البابلي الموالي للأشوريين. ونصبت احد الشيوخ الكلديين بديلاً عنه. فما كان على هذا الملك القدير إلا أن جهز حملة وقادها بنفسه وسلك الطريق الشرقي إلى بابل ودخلها ونصب نفسه ملكًا عليها بعد أن خرّب منطقة القبيلة العاصية، وكان ذلك في عام (٧٢٩) ق.م وقد عرف هذا الملك في المصادر البابلية ومن ثم العبرية باسم (بولو).

- شيلمنصر الخامس ابن تجلات بليزر (٧٢٦ - ٧٢٢) ق.م

اتبع نفس السياسة مع بابل حيث نصب نفسه ملكًا عليها دون أن يمارس القسوة مع سكانها في الوقت الذي زحف على رأس قوة عسكرية كبيرة إلى بلاد سوريا وفلسطين وحاصر السامرة عاصمة إسرائيل وفتحها عنوة ونقل معظم سكانها إلى مناطق بعيدة واحكم السيطرة عليها.

- سرجون الثاني (٧٢١ - ٧٠٥) ق.م

بعد تتويج سرجون مباشرة وقعت حادثتان كان لهما أثر ستراتيجي في السياسة الأشورية والشرق الأدنى لمدة مائة عام القادمة، وهما:

تدخل مصـر في فلسطين وعيـلام في بابل، لعدم استـعـداد مصر وعـيلام لمقـارعة دولة كانت في أوج قوتها. فكانت تجربته مع بابل مطابقـة لمن سبقه من الملوك الأشوريين. عندما كانت تعلن الـتمرد والعـصيان مع وفـاة الملك وتقلد ملك آخر بعـده السلطة. فكانت أولى حمـلاته عليهـا عندما ثارت القـبائل الكلدية كـعادتهـا وزحفت على مـدينة بابل وخلعت ملكها المـوالي لاشور ونصبت بدلا عنه زعـيم الكلديين مردوخ - ابلا - ادينـا وتحالفت مع بلاد عيلام لضرب الأشوريين. كانت حملة سرجون الأولى غير حاسمة، لفرار مردوخ إلى بلاد البحـر وإعلانه العـصيان بـعد حين. مما أجبـر سرجـون إلى العودة إلى بابل ثانيـة بقوة وحزم أكبر ودخل المـدينة البابلية دخول الفاتحين ولقي الأشوريين التـرحاب من لدن شعب بابل المحليين - ليس القبائل المتـمردة في بلاد البحر - ونصب سرجون نفـسه نائبًا للإله في بابل وظلت بابل موالية للدولة الأشورية حتى نهاية عهده.

- سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١) ق.م

هو الأخـر شغل مـعظم فتـرة حكمـه بحل مشكلة بابل الـدائمة بالإضـافة إلى مـشكلة الحوريين. أمـا بخصـوص بابل فكما شـاهدنا أنه مع كل حالة تغـير ملك في آشـور كانت القبائل الكلدية في الجنوب تشـور ضد الملك البابلي وتقصيه عن الحكم وتـنصب زعيمًا من زعماء القبيلة ملكًا وذلك بدعم ومباركـة عيلام، المحرك الأصلي لهؤلاء البدو والمثير الأول للمشاكل في جنوب ومن ثم في وسط البلاد عن طريق تغيير النظام في بابل.

وهذا الذي حصل فعـلاً بعد سنتين من تولي سنحاريب الحكم في نينوى، فجـهز حملة عليهم وقضى على التمرد. غـير أن التمرد البابلي - الكلدي - العيلامي عاد ثانيـة فقمعهم سنحاريب أيضا. وللمرة الثالثة استمرت عيلام)شوش) في تحريض القبائل وتقديم الدعم العسكري لها. مما جعل سنحاريب أن يهاجم بلاد عيلام - مصدر العقدة البابلية - ويقضي عليـها قـضاءاً مـبرمًا. وقـد استـعمل السـفن التي صنعـها في نينوى والتي قـادها البـحارة الفينيقيين في الاهوار والخليج العربي خلال هذه الحملة.

بعد ذلك توجهت جيـوش سنحاريب تجاه بابل فدمرتها بالكامـل وسلطت مياه الفرات عليـها. بعـد فشل سـياسة اللـين والترضيـة مع السكان المحليين الضـعفـاء والمغلوبين على أمرهم أمام دسـائس الكلديين وعيلام. وأعلن سنحاريب نفسـه ملكًا على بلاد بابل وقضى على المشكلة إلى حين.

ومن ثم زحف بقواته من بابل عبر الصحراء إلى منطقة العريش أو رفح الحالية ويعد هذا أول عبور للصحراء من العراق إلى البحر المتوسط في التاريخ. وربما كان في نيته غزو مصر لأنها كانت تلعب نفس دور عيلام ضد الأشوريين ولكن مع دويلات ساحل المتوسط بالإضافة إلى دولة يهوذا ومدينة اورشليم.

- اسرخدون (٦٨١ - ٦٦٩) ق.م

كانت سياسته تختلف عن سياسة أبيه كثيرًا وخصوصًا مع مدينة بابل والتي كان حاكمًا عليها في فترة ما أيام حكم أبيه، فكان حله للمشكلة البابلية بأسلوب السلم. فهو بعد أن قضى على التمرد فيها إبان اغتيال والده اتبع سياسة اللين وترضية السكان المحليين وأعاد بناء المدينة وقصورها ومعابدها بالاعتماد على علاقاته الشخصية مع بعض البابليين المتنفذين. ويبدو أن هذه السياسة لاقت ترحيبًا من لدن البابليين إلى درجة انه اتخذ بابل قاعدة لهجومه على إيران كما أن محاولات عيلام لإثارة الاضطرابات لم تلق صدى لدى البابليين في تلك الفترة.

وكانت الإلهة في سدرة غضبها أيام سنحاريب قد قررت عدم بناء المدينة الخربة لمدة سبعين سنة. إلا أنهم استطاعوا إيجاد وسيلة للتغلب على هذه العقبة. حيث قلب الإله الرحيم مردوخ كتاب القدر رأسًا على عقب وأمر بتجديد المدينة في السنة الحادية عشرة [١٧] من تاريخ هدمها. لان الرقم (٧٠) في الخط المسماري يتحول إلى (١١) في حالة قلبه على عقب كما هو الحال مع الرقمين (٦ ,٩) في العربية أو اللاتينية حاليًا.

- آشور بانيبال (٦٦٩ - ٦٢٩) ق.م

في أيامه تولى توأمه شمش- شم - اوكن العرش البابلي وحسب الترتيبات التي وضعها والدهما أسرخدون. وسارت الأمور بهدوء في أول الأمر ولكن ما لبثت المنافسة أن ظهرت بين الأخوين، لان العيلاميين وبواسطة الكلديين الدخلاء إلى جنوب البلاد حاولوا جاهدين اشعال نار الفتنة بينهما وقد نجحوا في ذلك وتوتر الوضع بين بابل وآشور. فجهز آشور بانيبال حملة كبيرة على عيلام واحتل عاصمتهم سوسة والمدن المهمة الأخرى ونصب أحد أفراد أسرتها الحاكمة ملكًا عليهم. وسبب ذلك المزيد من الحقد لدى العيلاميين ضد الأشوريين، فزادت محاولاتهم في إشعال نار الحرب بين بابل وآشور.

واتفق ملك عيلام علانية مع شمش - شم - اوكن والقبائل الكلدية وقبائل صحراوية أخرى مثل العرب وبعض حكام سوريا وعقدوا حلفًا عسكريًا ضد آشور.

ولكن آشور بانيبال جهز حملة عسكرية كبيرة وأسرع بالهجوم على بابل ونشبت الحرب المدمرة بين الأخوين واستمرت ثلاث سنوات. انتهت باستسلام بابل وانتحار شمش - شوم - اوكن حارقًا نفسه وعائلته في قصره ببابل.

وكان اشور بانيبال قبل ذلك قد وجه تحذيرًا شديدًا إلى شعب بابل على أمل أن يصغوا إليه لأنه لم يكن يرغب بتدمير بابل مضطرًا كما فعل جده سنحاريب ولكن دون جدوى وهذا نصّ التحذير الملكي لبابل:

"أما تلك الكلمات الجوفاء التي أسمعكم إياها ذلك الأخ العاصي فقد بلغت مسامعي كاملة، وهي ليست إلا ريحًا ذاهبة فلا تصدقوه... لا تصغوا إلى أكاذيبه نهائيا ولا تلطخوا اسمكم المجيد الناصع أمامي وأمام كل العالم بالعار ولا تجعلوا من أنفسكم آثمين بحق الإلهة المقدسة" [١٨].

أما عيلام مابرحت وعادت تتدخل في شؤون بابل فدخلها الجيش الأشوري مرة أخرى ودمرها وحمل آلهتها إلى آشور. ونصب عليها اميرًا مواليًا لاشور)وكان من بين الغنائم املاك وبضائع وذهب وفضة تعود إلى بلاد سومر وأكد وكل ارض بابل التي كان العيلاميون قد سلبوها) [١٩].

سقوط الدولة الأشورية:

تشير الأخبار إلى وفاة اشور بانيبال حوالي (٦٢٧) ق.م في ظروف غامضة واعتلاء العرش الأشوري ابنه اشور - اتل - ايلاني وقد رافقت ذلك ظروف معقدة واضطرابات داخل اشور. وفي الجنوب ظهر في تلك الأثناء زعيم كلدي آخر في بلاد البحر وهو الشيخ نبوبلاصر، تمكن من السيطرة على بابل وتعيين نفسه ملكًا عليها سنة (٦٢٦) ق.م وبدأ يعد العدة للهجوم على آشور مستغلاً حالة الاضطراب والغموض في البلاط الأشوري فتحالف مع الميديين وملكهم كي - اخسار وهجموا على مدينة آشور عام ٦١٥ ق.م وتم فتحها من قبل نبوبلاصر الكلدي والميديين عام ٦١٤ ق.م وفتحت نينوى عام ٦١٢ ق.م بعد حصار دام ثلاثة أشهر فقط. ودخلت الجيوش الغازية نينوى وأضرمت النيران في قصورها ومعابدها وتعرضت المدينة إلى

السلب والنهب. وقام نبوبلاصر بنقل رماد القصور الأشورية إلى بابل لأنه كان يتوقع أن يجد فيه منصهرات التماثيل والألواح المعدنية المقامة في القاعات والممرات الرئيسية لقصور نينوى.

الخلاصة

منذ القرن الرابع عشر ق.م أيام التسلط الكاشي على بابل، وكما رأينا أصبح البابليون عاجزين عن مجاراة الإله العسكرية الأشورية. ولكن الأشوريين رغم حملاتهم المتكررة على بلاد بابل وحتى احتلالهم لها عسكريًا "إلا أنهم كانوا يعاملون بابل ببعض الاحترام والكياسة باعتبارها موطن المدنية المشتركة للبلدين".

ومنذ (١٢٥٠ - ٩٥٠) ق.م فترة انسياح الشعوب حسب توينبي تعقد الوضع أكثر في جنوب ارض الرافدين ومنطقة بابل تحديدًا بسبب استقرار القبائل الكلدية في الجنوب الغربي ومنطقة الاهوار من البلاد. "وهؤلاء المقتحمون على أطراف بابل لا هم أخرجوا من قبل أهل البلاد كما حصل مع الكوتيين ولا هم اندمجوا مع السكان كما حصل مع الكاشيين. بل ظلوا أجانب يحدوهم الشعور بالعصبية القبلية والروح الحربية الخاصة بهم".

إذ أن البابليين وسائر سكان الوسط لم يكونوا راضين عن وجود هؤلاء الغرباء بين ظهرانيهم "سكان بابل المستقرين الفلاحين وسكان المدن لم يكونوا يرحبون بوجود هؤلاء البدو الرعاة من بلاد العرب"، ولما كان الأشوريون شعب مستقر ومتحضر ومشترك مع شعب بابل بالمصدر الحضاري السومري والاكدي. وكانت آشور بحكم الواقع الجغرافي والديموغرافي البشري، هي الحامي الطبيعي لبابل ضد سكان جبال زاكروس. فكان المفروض أن يكون التقارب والتعاون على أعلى المستويات. إلا أن هذا الحال كان دومًا مقرونًا بشرطين على بابل وأشور القبول بهما وهما:

١ - وجوب كون تصرف الأشوريين نحو البابليين بارعًا لبقًا وان لا يسمح للقبائل المقيمة في الجنوب أن تخرج عن الطوق. وفي حالة سيطرة هذه القبائل على بابل يصبح الأشوريين في مأزق ليس أمامهم غير الاحتمالين التاليين: أما أن يقبلوا بخسارة سيطرتهم على بابل وهذا يترتب عليه الكثير من الضرر على الأمن القومي الأشوري، لان حضارة كحضارة العراق المرتكزة على الزراعة والإشغال المعدنية

(تجارة) تحتاج إلى التعاون الوثيق بين المجاميع الرسمية والسياسية في الداخل والموقف المحايد على الأقل من قبل المناطق المجاورة. أو أن يسترجعوا سيطرتهم على بابل بالقوة. وهذا يترتب عليه الكثير من النكث بالالتزام الأخلاقي والديموغرافي! تجاه بابل وأهلها.

٢ - في حالة إتباع أسلوب القوة مع القبائل المتغلغلة في بابل كان ذلك يلحق الإساءة والخسارة المادية بالبابليين ويتم جرح كبريائهم. وهذا بدوره يسبب في احتمالية اتفاق البابليين الطوعي مع القبائل المجتمعة ضد الأشوريين.

وقد مرت العقدة البابلية بهذه الحالة المستعصية أيام تجلات بليزر الثالث في حملته العسكرية الأولى ٧٤٥ ق.م حين قام بتأديب القبائل المشاغبة بموافقة المؤسسة البابلية وكما مرّ ذكره، ولكن في عام ٧٣٤ ق.م خرج الأمر عن سيطرة المؤسسة البابلية. إذ استولى زعيم قبيلة بيت - اموكاني على العرش في بابل. مما اضطر تجلات بيلزر القضاء عليه ولكن لم يملأ الفراغ السياسي إلا عندما قبض على يد مردوخ وأعلن نفسه ملكًا على بابل والجهات الأربعة. وقد تكررت مثل هذه الأحداث عشرات المرات، رغم كون البابليون أصدقاء للأشوريين وخصومًا للقبائل الكلدية المشاغبة في بلاد البحر.

هكذا نرى أن تنظيم العلاقة بين بابل وآشور - العقدة البابلية - لم يكن من الأمور اليسيرة لدى الطرفين فلا بابل واستقرار واستقلال، دون آشور، ولا آشور قوية راسخة طليقة القرار والحركة ضد الأعداء دون الاستقرار في بابل. ومن هنا نرى وحسب هذا البحث المقتضب أن:

١ - تسعة عشر ملكًا آشوريًا كانت له نزاعات حدود أو حروب أو اجتياح وتدمير لمدينة بابل أو الدفاع عن مدنهم ضد قوات بابل. ابتداء من ايلوشوما (1920)ق.م وانتهاء بسن - شار - ايشكوم وسقوط نينوى ٦١٢ ق.م وآشور اوبالط الثاني مع سقوط حاران آخر عاصمة آشورية. حسب ما أورده لنا التاريخ وحسب أهميته أو طبقًا لما تم اكتشافه من الكتابات المسمارية بهذا الخصوص وقرائتها. ولكن حقيقة الإحداث هي أكبر من ذلك بكثير، لان المكتشف والمقروء من الكتابات التي تخص

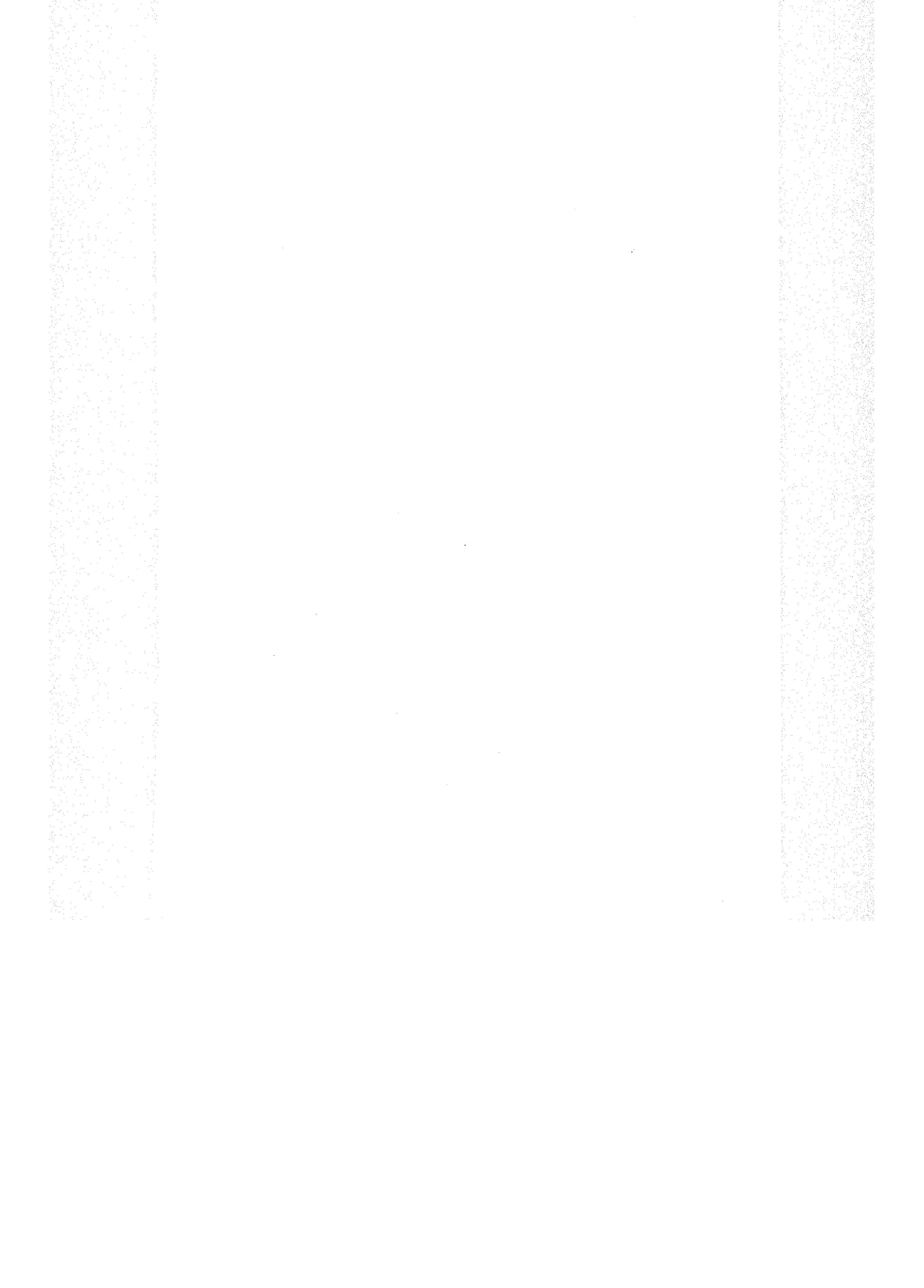
دول العـــراق القــديمة ليس إلا القـليل. طبــقًــا لدراسـات وتـوقـعـات علمــاء الاسريولوجي.

ب - أن القبـائل الكلدية البدوية "حسب توينبي" والعنصر العـيلامي المقلق لاستـقرار العراق طوال تاريخه لم يستقر لهـا قرار إلا بإنهاء الحكم الوطني في العراق "سقوط آشور".

ج - مـدينة بابل وحـضارتهـا وشـعبـهـا الذين صـاروا جسـرًا لنقل الأعـداء إلى قلب العواصم الأشـورية. لم يستطيـعوا العـيش والبقاء دون آشـور. إذ نلاحظ أن هؤلاء الكلديين بعـد بسط سيطرتهم علـى وسط وجنوب العراق لم تدم دولتـهم في بابل أكـثـر من (٧٣) سنة، والتي حكـم العـشرون سـنة الأخـيـرة منهـا الملك نبـونائيـد الأشوري من مدينة حاران والذي يرجع أصله إلى "السلالة الملكية الأشورية". وقد قام البابليـون واليهود ذوي الهوى الفارسي بتـشويه سمعة ملكهم نبـونائيد ارضاءًا لأسيادهم الفرس الذين دخلوا بابل دون مقـاومة في ١٢/ ١٠/ ٥٣٩ بقيادة كورش بن قمبيز.

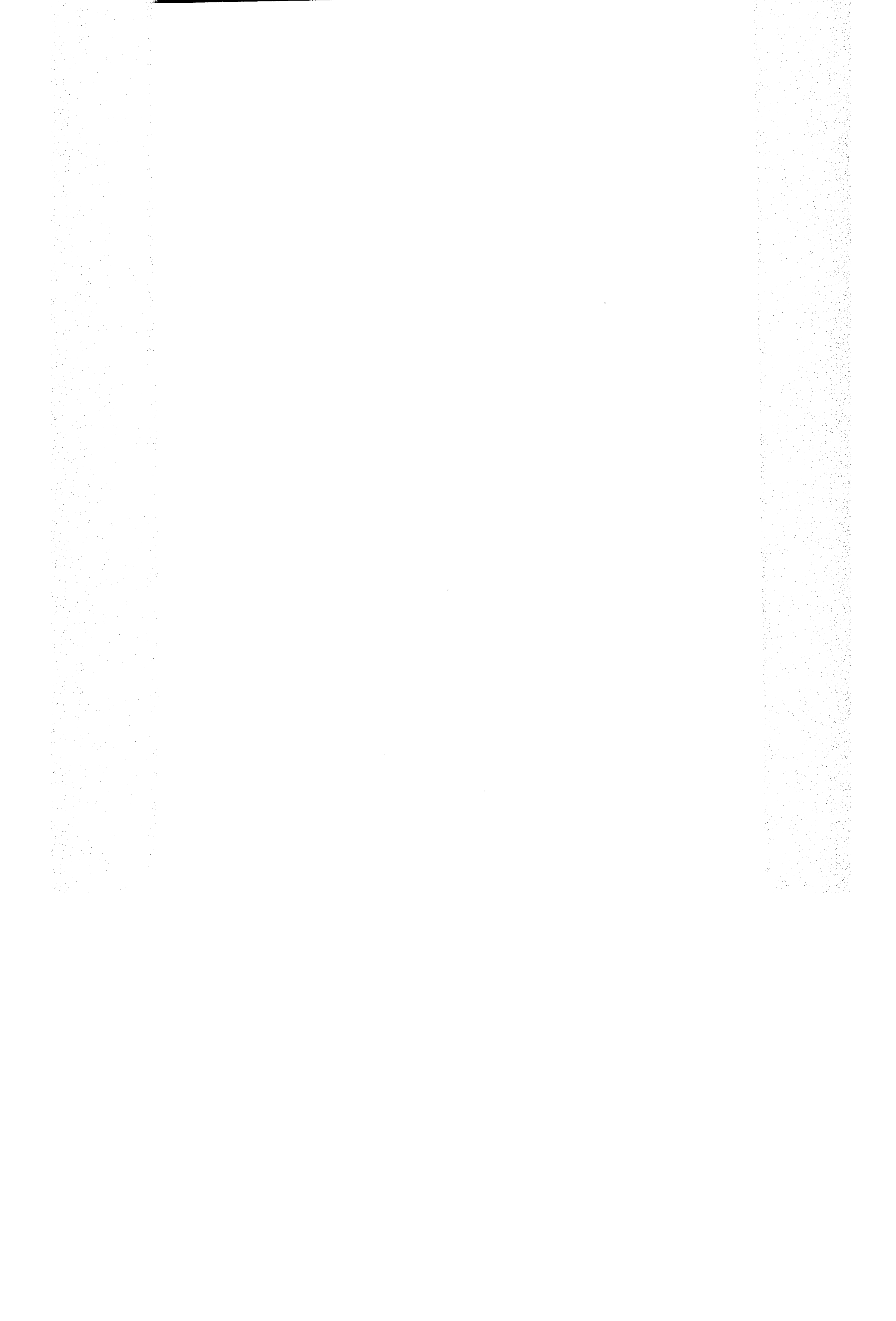
د - ومما يتوجب ذكـره هنا أن نوبارو (هنْبرا) حاكم القطر الأشـوري آنذاك والذي كان عليه حـماية الزاوية اليسرى (الشـمالَة) لجيش بيليشـاصر بن نبونائيد قـد انحاز إلى أعـداء بابل مما عجّل فـي سقـوطها. وربمـا كان ذلك الموقف ناجـمًـا عن رغبـة في الانتـقـام لمدينة أجـداده نينوى، التي كـان قـد زحف عليـهـا الميـديين بدعم واسناد الكلديين في بابل.

هـ- وأخيرًا مـهما كان في الأمـر من غموض ومجـال للاجتهاد، فـأن بابل في التاريخ القديم لم تعمّر أكثر من نصف قرن دون آشور فهي عقدتها وهي العقدة في التاريخ الأشوري والمسيرة الأشورية المعاصرة.



الفصل الثاني

الإمبراطورية الآشورية



الفصل الثاني

الإمبراطورية الآشورية

أشور أول دولة قامت

أشور (Assyria, Ashur)، أول دولة قامت في مدينة أشور في شمال بلاد مابين النهرين، وتوسعت في الألف الثانية ق.م. وامتدت شمالا لمدن نينوي، نمرود وخورسباد. ولقد حكم الملك شمشي مدينة أشور عام ١٨١٣ ق.م. واستولي حمورابي ملك بابل على أشور عام ١٧٦٠ ق.م. إلا أن الملك الآشوري شلمنصر استولي على بابل وهزم الميتانيين عام ١٢٧٣ ق.م. ثم استولت أشور ثانية على بابل عام ١٢٤٠ ق.م. وفي عام ١٠٠٠ ق.م. استولي الآراميون على آشور، لكن الآشوريين استولوا على فينيقيا عام ٧٧٤ ق.م. وصور عام ٧٣٤ ق.م. والسامرة عام ٧٢١ ق.م. وأسر سارجون الثاني اليهود في أورشليم عام ٧٠١ ق.م. وفي عام ٦٨٦ ق.م. دمر الآشوريون مدينة بابل وثار البابليون على حكم الآشوريين وهزموهم بمساعدة ميديا عام ٦١٢ ق.م. شن الآشوريون حملاتهم على باقي مناطق سوريا وتركيا وإيران.

الإمبراطورية الآشورية

وكانت مملكة أشور دولة عسكرية تقوم على العبيد، وكان لها إنجازات معمارية وصنع التماثيل ولاسيما تماثيل الثيران المجنحة التي كانت تقام أمام القصر الملكي، وزينت الجدران بنقوش المعارك ورحلات الصيد. وما بين سنتي ٨٨٣ ق.م. و٦١٢ق.م. أقامت إمبراطورية من النيل للقوقاز، ومن ملوكها العظام: آشوربانيبال، تغلات فلاصر الثالث، سرجون الثاني، سنحاريب، آشورناصربال، واسرحادون (والد أشور بانيبال) الذي كان مهووسا بحب إذلال الملوك حيث كان يجبر الملوك التابعين له على المجيء إلى عاصمته

والعمل في ظروف قاسية لبناء قصوره في نينوى، وآخر ملوك أشـور المدعو أشور أوباليط الذي اقام مقر قيادة مؤقت في حران (الجزيرة الفراتية) بعد سقوط نينوى بيد البابليين بقيادة نابو بولاصـر الكلداني محـاولا تأخيـر المذبحة الشـاملة للشعب الآشـوري. وكانت كـتابة الآشـوريين الكتابـة المسمـارية التي كـانت تكتب علي ألواح الطين، وأشـهر مـخطوطاتهـا ملحمة جلجماش التي ورد بها الطوفـان لأول مرة. وكانت علومهم مرتبطة بالزراعة ونظام العد الحسابي السومـري الذي عرف بنظام السـتينات وكان يعرفـون أن الدائرة ٦٠ درجة، كما عرفوا الكـسور والمربع والمكعب والجذر التربيعي، وتقدموا في الفلك وحـسبوا محيط خمسـة كواكب، وكان لهم تقويمهم القمـري وقسموا السنة لشهور والشـهور لأيام، وكان اليوم عندهم ١٢ سـاعة والساعـة ٣٠ دقيقة. وكـانت مكتبة الملك أشـور بانيبال من أشـهر المكتبات في العالم القديم حيث جمع كل الألواح بها من شتي مكتبات بلاده.

الآشوريون من القبائل السامية، التي قطنت المنطقـة الشمالية من حوض نهر دجلة، بعد التقـاء هجرتين من مناطق الجوار، الأولى التي تمثلت في نزوح العـناصر الساميـة من منطقة بابل خلال العـهد الأكدي. أمـا الثانية فإنـها تمثلت في هجرة الآرامـيين من سوريا وهم من الأقوام السـاميـة إلى المنطقة. وبقـدر التأكـيد على "ساميّة" أصـول الآشوريين، فـإن حالة الاخـتلاط مع الأقـوام الأخـرى كان لابد لهـا أن تظهـر في ارتبـاطها ببـعض الأقـوام غيـر السامية، من حيثيين وأكراد.

كان الارتبـاط السياسي بالنسـبة للآشوريين، قـد وضح في الخضوع لسـيطرة أسرة أور الثالـثة، والتي مـا إن بدأ سلطانها بالزوال، حـتى تطلع الملك "بوزور أشـور الأول" لإعلان الاسـتقلال والعمل على تأسـيس الحكم الآشوري خلال العـام ٢٠٠٠ ق.م، ليبدأ التـحرك نحـو مناطق الحـوض الجنوبي من وادي الرافـدين. والواقع أن الآمـوريين بدأوا في إعـلان ولائهم للآشـوريين من أجل التـمكن من الاسـتقـرار من منطقـة مـركز الحكم الآشـوري. وبالتالي التمكن من النفـاذ إلى قمة هرم السلطة والسيطرة على مؤسـسة الحكم، وكان لهذه الحركة أثرها في توسع النفوذ الآشوري إلى سواحل البحر المتوسط في سوريا. إلا أن ظهور الملك حمورابي كان قد أوقف مرحلة التوسع الآشوري، بعد أن أخضعها تحت نفوذه.

سقوط الدولة البابلية

بعد سقوط الدولة البابلية الأولى على يد الحيثيين، تمكن الآشوريين من استثمار الفرصة، لإعلان استقلالهم على يد الملك "شمش آدار الثاني" في العام ١٣٨٠ ق.م، الذي تميز عهده بالعمل الجاد والدءوب على إعادة بناء وتوسيع الدولة الآشورية، إلا أن خلفاؤه لم يكونوا بمستوى طموحاته، هذا بالإضافة إلى حالة الخطر والتهديد الذي ظهر على يد الميتانيين من القبائل الحورية والممالك السورية خلال منتصف الألف الثاني ق.م، حيث قيض لهم السيطرة على الدولة الآشورية حوالي مائة عام.

ساهمت العلاقات الدولية المحتدمة بين القوى الناهضة، في تغيير ملامح الصورة السياسية العامة، إذ لم تستقر الأوضاع، بقدر ما كانت الطموحات هي الدافع الرئيس في صدام القوى، وتوجيه التحالفات، فالميتانيون كانوا قد دخلوا في صراع سياسي وعسكري ضد الحيثيين، هذا بالإضافة إلى الانقسام الذي ظهر داخل البيت الميتاني الحاكم، ليتبلور الاتجاه لدى ملك أشور المدعو "أشور أوبلط الأول" في إعلان تحالفه مع أحد أطراف النزاع الداخلي.

إن النتائج التي تمكن أن يحصل عليها الملك الآشوري، لاسيما في التخلص من النفوذ الميتاني والتمكن من اقتسام بلادهم، أن جعله يتوجه نحو توطيد أواصر علاقاته السياسية، مع القوى السياسية الفاعلة، حيث أقدم على الزواج من ابنة الملك الكاشي الذي كان يفرض نفوذه على بابل. وقد حظيت مملكة أشور بملوك خلفوا "أشور أوبلط" وكانوا على مستوى المسؤولية وانتهجوا ذات الأسلوب الذي سار عليه، ليثمر عن ذلك خلال القرن التاسع ق.م، بلوغ مستوى الإمبراطورية الآشورية بكل قوتها ونفوذها السياسي. من الملوك الآشوريين البارزين "شلمنصر الأول" الذي دام حكمه ١٢٦٦ - ١٢٤٣ ق.م، وتطلع إلى توجيه العديد من الحملات العسكرية وعمل على استبدال العاصمة "آشور" بمدينة "نمرود". أما العمل الأبرز فكان على يد الملك "توكلتي ننورتا" ١٢٤٣ - ١٢٢١ ق.م، الذي تمكن من السيطرة على بلاد بابل، وتوسيع سلطانه في الجهات الشرقية والغربية. لكن بعد وفاة هذا الملك دخلت أشور في مرحلة الضعف السياسي، نتيجة

لوصول ملوك ضعاف الشخصية، غير قادرين على إدارة مقاليد الحكم، واستمرت هذه الفترة حوالي مائة عام، حتى بلوغ الملك "تجلات بلاسر الأول" ١١١٦ - ١٠٩٠ ق.م إلى سدة الحكم، لتكون هذه الفترة مليئة بالإنجازات العسكرية الكبيرة، حيث تمكن من تحقيق الانتصارات المتوالية في الأصقاع البعيدة، في البحر الأسود وسواحل آسيا الصغرى والمدن الفينيقية على الساحل السوري، هذا بالإضافة إلى استعادة السيطرة على مملكة بابل، وإعادة نقله العاصمة إلى المدينة القديمة "آشور" والعمل على إعادة بنائها من جديد، وذلك بعد أن توفرت الأموال اللازمة التي كانت تأتي إلى العاصمة من مختلف الأقاليم التي تمت السيطرة عليها.

على الرغم من الجهود التي بذلها "تجلات بلاسر" في تدعيم الملك الآشوري وبناء الدولة، إلا أن الخطر الآرامي مثل تهديداً حقيقيًا للآشوريين، لاسيما خلال القرن الحادي عشر ق.م. لكن القرن التاسع عشر ق.م، شهد نهوضًا آشوريًا جديداً على يد الملك "أداد نيراري الثاني" ٩١٣ - ٨٩٠ ق.م، الذي عمل على مواجهة الخطر الآرامي من خلال إخضاعهم للسلطان الآشوري، وتطلع نحو محاربة بابل لتسفر عن توقيع معاهدة بين الطرفين، اعترفت فيها مملكة بابل بترسيم الحدود مع الجانب الآشوري.

أما المرحلة اللاحقة فقد تميزت في تحركات القبائل الجبلية في المناطق الشمالية من سوريا، وتطلعات الآراميين في المنطقة الغربية حتى جاء الملك "أشور ناصر بال الثاني" ٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م، الذي وضع لمساته الخاصة في مجال التنظيمات العسكرية، حيث توسع في مجال استخدام العربات العسكرية والخيالة، مع العناية بالجانب الإداري، حيث كان للتوسع الكبير في الفتوحات، أثره في أهمية الاعتماد على ولادة ينوبون عن الملك في إدارة الأقاليم، لاسيما البعيدة منها. وكان الملك "شلمنصر الثالث ٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م، قد عمل على توسيع رقعة الحكم الآشوري، ليفرض الجزية على الممالك الواقعة في رأس الخليج العربي. هذا بالإضافة إلى الحملات التي وجهها نحو جنوب سوريا. ولعل الحادث الأكثر جسامة في تاريخ الملك شلمنصر، كان قد تمثل في الإنتصار الذي حققه في معركة "قرقارة" عام ٨٥٣ ق.م، عندما واجه التحالف الذي تم بين الآراميين، خصوصًا بعد تعرض مدينة "دمشق" لهجوم شلمنصر، وعلى الرغم من تمكن الملك من مواجهة جيوش اثنتا عشر مملكة

آرامية، إلا أنه لم يتمكن من دخول "دمشق". ومما فاقم في الأوضاع، ظهور حالة من التمرد الداخلي في الأسرة الحـاكمـة، حيث أعلن أحد أبناء الملك راية الـعصيـان، مما كان له الأثر البـالغ في فقـدان مملكة أشـور لبعض الأقـاليم الآشورية-الـبابلية، من خلال إقـدام الملك "شـمش آداد الخامس ٨٢٤ - ٨١٠ ق.م، للزواج من الأمـيرة البـابليـة "سمـيرامـيس" التي صارت الوصـية على عرش ولـدها الصغيـر بعد وفاة والده الملك. والـواقع أن مملكة أشور كانت قـد وقعت تحت حكم بعض الملوك الضـعاف الذين لم يتمكنوا من تقـديم، أي إنجاز سياسي، حتى ظهور الملك "تجلات بلاسر الثالث" ٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م.

القوة والعقوبات بالأعداء

مـا يميز عـصر هذا الملك، الاتجـاه الشـديد والقاسي، نحـو فـرض العقـوبات الصارمة بأعـدائه، فقـد تمكن من دخول مـدينة دمشـق عام ٧٣٢ ق.م، وعـمد إلى نقل سكانهـا إلى خارج المدينة، من أجل القضـاء على نفوذ الدولة الآرامية بدمـشق. وكان هذا الأسلوب قد ابتدعه ليـسير خلفاؤه من بعده عليـه، من جانب آخر كان تركز تجلات بلاسـر على محاربة الميديين في بـلاد فارس، فيـما تمكن من احـتلال مدينة بابل عـام ٧٢٩ ق.م، وإعلان نفـسه ملكًا عليها. وكان من نتائج التوجه نحو الفتوح والحركات العسكرية المستمرة، أن توسعت رقعة الإمـبراطورية الآشورية، لتشـمل مناطق بعيدة أتاحت لخلفه الملك شلـمنصر الخامس ٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م، أن يحظى بمملكة واسـعـة الأرجاء، مـحكمة البنـيان، تدخل خـزانتهـا الأموال الواسعة الكبـيرة، إلا أنه تعرض للانتفاضة الداخلية، ليـنتقل الحكم إلى أخيه الملك سرجون الثـاني ٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م، الذي واجه الأطماع المصرية في المنطقة بعـد أن فقدت نفوذها في فلسطين، ودولة بابل التي حاولت التخلص من السيطرة الآشورية المباشرة. فيما تميزت خطوات "سرجون الثاني" بالتؤدة والحكمـة، حتى أنه صفح عن ألد أعدائه، وعينهم في مناصب مهـمة، مثل حكام إمـارات، كل هذا من أجل حفظ الموازنات، ليتـمكن بالتالي من الحصول على لقب ملك بابل.

من جانب آخـر قيض لهذا الملك أن يتم له القـضاء على مملكة السامـرة عام ٧٢٢ ق.م، ويعمد إلى طرد أهلهـا واستبدالهم بسكان جدد، وبعـدد أكبر مما كان، وعين عليها حـاكمًا

آشوريًـا مع فرض الجزيـة. وفي الوقت ذاته برزت التدخـلات المصرية في المنطـقة الغربـية، حيث عـمدت إلى تقديم الدعم مـن أجل ظهور التمـرد والثورات ضد النفـوذ الآشوري. لكن سرجون الثاني لم تخمد همته، بل حرص بالإضافة إلى نشاطاته العكسرية، إلى تأمين الطرق التجارية في سوريا عند الشمال الغربي وفي جزيرة العرب واليمن وحضرموت. أما في الأقاليم الشمـالية من سورية فإن جهـوده أثمرت عن مد سلطانه إلى طوروس وأرارات وعمد إلى احـتلال قبرص، بل وحرص على فرض نفـوذه في مناط التخوم مع الجنوب مع بلاد مـصر ولاسيـما وفـلسطين. أما في المجـال العمـراني، فقـد حرص على تطوير مـدينة "آشور" العـاصمة القديمة، لينتـقل بعدها إلى مدينة "نمرود"، فـانتقاله مرة أخـرى إلى مدينة "نينوى"، لكنه حـرص في العـام ٧١٣ ق.م، على إنشاء مـدينة جـديدة "خرسـباد" بعـد أن أحاطهـا بسور حصين، تم بناء مائة وخـمسون برجًا عليـه، مع ثمان بوابات مرسوم علـيها الثيران المجنحة لحراسة المدينة، وقـد تم افتتاح المدينة عام ٧٠٦ ق.م، بعد أن خططت بشكل دقيق وحاذق يثـير الإعجاب، ليكون دلالة عـميقة على التطور الفني والعـمراني الذي بلغه الآشوريون، لاسـيما وأن حـالة الاتصال مع الثقـافات الأخرى كـان له الأثر البارز في هذا المجال. لكـن المدينة سرعـان ما أهملت، خـصوصًا وأن خلفـه الملك "سنحاريب" ٧٠٥ - ٦٨١ ق.م، وقد نقل العاصمة إلى "نينوى".

ما يميز عهد "سنحـاريب" حالة التقارب والتحالف مع الفينيقـيين واليونان، الذين قدموا له الدعم في إنشاء السفـن التي استخدمها فـي محاربة الممالك البابليـة الموجودة في أقصى الجنوب عند رأس الخليج العربـي، لاسيما بابل وبعض الممـالك السورية كانت قـد وقفت بالضد من بلاد أشـور) في شرق سوريا والهـلال الخصيب. أما الملك "أسـرحدون ٦٨٠ - ٦٦٩" ق.م الذي قيض له أن يـقمع الفتنة التـي ظهرت في أعقـاب والده سنحاريب، فـقد توجه بكل ثقله نحو محاربة مصر في شرق الدلتا عام ٦٧٥ ق.م،م.

بوفاة الملك "أسـرحدون" المفاجئة، تعـرضت الأسرة الحاكمـة إلى مشكلة وراثة الحكم، حيث تمكـن الابن الثالث "أشور بانيـبال" ٦٦٩ - ٦٢٦ ق.م، من السـيطرة على الحكم في بلاد آشور، أما الابن الأكبـر "شمش شوم أوكين" فقد عين وريثًا شرعـيًا للمملكة في بابل،

وكان الـتعـاون بين الأخوين قـد استـمر لمدة عـشرين عـامًا، لكن الأطراف المناوئة للـنفوذ الآشوري، حـاولت التقرب إلى الملك "شـمش شوم"، محرضـينه على أهمية التـمرد على أخـيه المـلك "أشور بانيـبـال". وقـد عملت عـدة أطراف في هذا المجـال منهـا الكلدانيـون والعيلامـيون والممالك السورية وأمراء القبـائل العربية، ليسفـر عن ذلك حصار لمدينة بابل عام ٦٥٢ ق.م، دام حـوالي السنتين انتـهى بوفاة الملك "شـمش شوم" وتدمـير مـدينة بابل، ليتوجه "أشور بانيـبال" بعدها إلى تأديب الحلفاء حيث هاجم العيلامـيين، وعمد إلى تدمير مدينة "سوسة".

ولاية العهد

وكعادة الآشوريين، فإن مشكلة ولاية العهد كـانت الأكثر حضورًا في الواقع السياسي، حتى أن وفاة أي ملك منهم، تمثل مرحلة قلاقل وصـدامات بين الأمراء، إذ عادت الحروب بين الإخـوان حول ولاية العـهد والفـوز بالمنصب الملكي، وقـد استـثـمرها ملوك الأقـاليم للانفصال عن الحكم الآشوري، حيث انفصلت فلسطين وسوريا وأرمينيا، وظهرت الأسرة الكلدانية في بابل، وبدأ الميديون بتـهديد العاصمة الآشورية. وقد بلغ الأمر قـمته عندما تم التـحالف بين الميـديين والبابـليين لاقتـسام مملكة أشـور وتدمـير العـاصمـة "نينوى" ونهب كنوزها.

كان لـلطبيـعة الحربيـة التي نشـأ عليهـا الآشوريون، قد انـعكست في مجـال الاعتـقاد والعبادات الدينية، حيث يغلب على آلهتهم الصفة الحـربية، وهذا ما يتجسد في كبير الآلهة لديهم وهو "آشور" إله الحرب، حـيث يجسد في رسم محارب قـاسي الملامح يحمل العدّة الحربية الكاملة والجاهزة. وفي المرتبة الثانية تأتي منزلة الآلهة "عشتار" زوجة "آشور"، حيث يتم رسمـها وفق السمة الحـربية، حيث تحـمل السيف والقوس وتضع على كـتفها السـهام المعدة للقتال. والواقع أن عبـادة الآشوريين لم تتوقف على هذين الإلهين، بل إن الاحتكاك مع الأقوام والثقـافات المختلفة ومنهم الارامين، جعـلتهم يتوجهون نحو عـبادة العديد من الآلهة مثل؛ "شمش، سن، آدد، نابو، بعل، مردوخ، إينورتا".

ظهور إمبراطورية آشور

كانت بلاد أشور قد برزت بعض الوقت في عهد شمشي _ أدد، ثم تدهورت كثيراً في عهد الميتانيين. وبتدهور _ الميتانيين، عادت أشور ثانية لتصبح قوة فعالة في السياسة الدولية، ويمكن اعتبار حكم أشور أوبالط الأول (١٣٦٥ _ ١٣٣٠ ق.م) بأنه عهد طويل من التطور ارتفع فيه شأن أشور أخيراً إلى موقع السيادة الدولية في الشرق الأدنى. وكنتيجة لزواج ابنته من كارا-انداش، ابن بورنا _ بورياش الثاني ١٣٤٧-١٣٧٥ق.م ملك بابل. تمكن أشور _ اوبالط من أقامة تحالف بين بلاد أشور وبابل. وقد استمر هذا التحالف إلى ما بعد وفاة بورنا _ بورياش وتمكنت بابل من خلاله أن تحصل على دعم أشور لتقضي على السوتو (وهم من القبائل الراحل التي أقلقت منطقة وسط الفرات كلا الدولتين بغاراتها على الحدود).

وعلى الرغم من أن السلالة البابلية كانت آنذاك على علاقة بالسلالة الاشورية، إلا أنه لم يكن هناك أجماع بابلي على دعم السياسة الآشورية، وما لبثت أن حدثت ثورة في بلاد بابل قتل خلالها الوارث الشرعي للعرش ونصب، بدله غاصب يدعى نازي _ بوكاش. ومع ذلك فقد كان أشور _ أوبالط في موقع مكنه من التدخل بصورة جدية وفعالة وتصفية الحزب المناوئ للآشوريين في البلاط البابلي وتنصيب كوريكالزو الثاني (١٣٤٥- ١٣٢٤ ق.م) ملكًا على بلاد بابل.

غير أن العلاقات الطيبة بين بلاد بابل وأشور لم تستمر بعد حياة أشور _ اوبالط، وعلى أن اعتلى العرش الأشوري انليل _ نراري (١٣٢٠-١٣٢٩ ق.م) حتى اندلعت الحرب، ولعل ذلك بسبب ادعاء كوريكالزو الثاني، وهو حفيد أشور _ أوبالط، بالعرش الاشوري لنفسه. ولم تكن الحرب حاسمة غير أنها اضعفت بلاد بابل إلى درجة لم تتمكن معها من أن المجاورة، في حين كانت أشور في موقع أقوى حيث تمكن اريك _ دين _ ايلو (١٣٠٨-١٣١٩ ق.م) من الانتصار على الأقوام القاطنة شرقي وشمالي بلاد أشور. وتعود على هذه الفترة أول أشارة إلى موجة جديدة من الغزاة القادمين من الغرب الذين عرفوا بالاخلامو، وهم من الارامیین المرتبطين بالسوتو الذين سبق ذكرهم. وقد تمكن اريك _ دين

_ ايلوا من دحر الاخلامو واخذ غنائم كثيرة منهم. وتمكن ابنه ادد _ نراري الأول (١٣٠٧-١٢٧٥ ق.م) من توسيع نفوذ بلاد أور وحقق انتصارات على الملك الكاشي نازي _ ماروتاش نازي _ ماروتاش وعلى الأقاليم الواقعة شملاً. وقامت هانيكالبات التي كانت تابعة لاشور تحت تأثير الحثـيين، بتمرد كان من نتائجه تجهيز حمله تأديبـية عليها. وقد وجد شيلمنـصر الأول (١٣٠٧-١٢٧٥ ق.م) من توسيع نفـوذ بلاد أور وحقق انتـصارات على الملك الكاشي نازي ماروناش وعلى الأقاليم الواقعة شمالاً. وقامت هانيكا لبان التي كانت تابعة لأشور تحت تأثير الحيثيين. يتمرد كان من نتائجه تجهيز حملة تأديبية عليها. وقد وجد شـيلمنصر الأول (١٢٤٥- ١٢٧٤ق) مـن الضروري لحل مـشكلة الحـدود الغربيـة وذلك بضم هنايكالبـات إلى بلاد أشـور كمـقاطـعة وينفي الآلاف من سكانـها. كـما أنه ضـمن الحدود الشماليـة، ولو لفترة محدودة، بدحر قوة اروتـاري (اورارتو) التي كانت قد ظهرت حديثا وقـد ذكرت لأول مرة في هذه الفترة. وأصبـحت هذه القوة، التي ربما كانت في هذا الموقف عبارة عن اتحـاد بين شيوخ القبـائل والإمارات أكثر من كونهـا دولة واحدة، المنافس الرئيس لبلاد أشور في القرن الثامن قبل الميلاد.

وفي عهد شيلمنصر الأول تم تأسيس مدينة كلخو (كالح في العهد القديم) عاصمة بلاد أشور فيما بعد.

وأعقب هذه الفترة تدهور سـريع. فقد بدأ توكلتي ننورتا الأول ١٢٠٨ - ١٢٤٤ق.م) عهده على نفس منوال شيلمنصر وذلك بفتوحات بلاد وذلك بفـتوحات مصحوبة بسياسة نفي السكان في الغـرب والشمال على نطاق واسع بما فـي ذلك بلاد نائيري Nairi جنوب غربي بحـيرة وأن. ولعل من الأحداث المثيرة هو إخـضاعه لكاشـتلياش الرابع (١٢٤٢- ١٢٣٥ ق.م) الذي كان من نتـيجتـه أن خضعت بابـل لأول مرة للحكم الأشوري المبـاشر وهناك مـقطوعة أدبيـة دعائيـة تعرف بملحـمة توكلتي ننورتا تسـرد لنا أحداث هذا العـمل الجريء من وجهة النظر الأشورية.

وكانت سياسة توكلتي ننورتا في الجنوب هي أن يثبت عسكريًا الأداريين الآشوريين في بلاد بابل ومن ثم يعـالج الحدود المجـاورة من ماري وخانا إلى الحـدود العيـلاميـة. وحمل

توكلتي ننورتا تمثال الإله مردوخ من بابل إلـى اشور، وهناك من يرى أن فتح توكلتي ننورتا تمثال الإله مـردوخ من بابل إلى أشور، وهناك من يرى أن فتح توكلتي ننورتا لبـابل كان في النهاية انتـصار للحـضارة البالية على الحضارة الأوشـورية من خلال تمزيق وحـدة الهدف الأشـورية وخلق خـلاف في أشـور بين أولئك الذين يـريدون أن يعـتنقـوا الديانة البـابليـة وأولئك الذي أرادوا أن يسلكوا طريـقًا أيسـر ويتبـعوا ديـانة أبائهم وأجدادهم. لذا نجـد أن ترتيلة اكيتو التي عثر عليهـا في مدينة أشور لا تخص الإله القومي أشور بل تخص مردوخ إله بابل. ومع ذلك، فـقـد بينت الدراسـات الحديثـة أن تزايد اسـتـخدام أسم الإله مـردوخ كعنصر في الأسماء الأشورية في هذه الفترة كان جزءا من الاتجاه العام لتحرر من الإقليمية الذي كان من نـتائجه أن حظي عـدد من الإلهة الأخـرى، إضافـة إلى الإله مردوخ، بقـبول شعبي متزايد.

وفي أواخر حكم تـوكلتي تنورتا، طرأ تغيـر سريع وغيـر واضح في سيـاسة هذا الملك الذي توقفت نشـاطاته العسكرية نهائيًا، ومن الممكن ترجـيح أسباب مخـتلفة لهذا التغـيير ولكن من المحتـمل أن التوسع العـسكري الذي دام ما يقـرب من مائة سنة قد انـتج ضغطًا اقتصـاديا قاسيًا، ومن الممكن أيضًا أن التحركات العـرقية في هذه الفترة ومـن بينها دخول الفلسطينيين إلى فلسطين كـانت السبب المبـاشر في انهـيار الدولة الحثـية، قـد ساهمت في تعطيل توكلني ننورتـا وذلك بقطع المصادر الأشـورية للمعـادن. ومهـما كـانت الأسبـاب الفـعالة لذلك، فـقد كـان من نتائجـه أن زاد الضغط الداخلي وانتـهي بحدوث ثـورة مات خـلالـهـا توكلتي نـنورتا على أيدي أبنـه أشـور _ نادن _ إيلي _ 1207) ١٢٠٤ق.م) ثم دخلت بلاد أشور في فترة ضعف إلى درجة أن خليفتي أشور _ نادن _ إيلي كانا في الواقع عبارة عن تابعين لبـابل. غير أن تبعية أشور لـبابل لم تسمتر طويلاً فقـد قامت ثورة مضادة للبـابليين انتـهت بتنصيب ابـن اخر لتـوكلتي _ ننورتا على العـرض هو انليل _ كودور _ أوصر (١١٩٧ - ١١٩٣ ق.م) الذي قاد هجوما على بلاد بابل. وكنتيجة لخطأ في الترجمة، فقد كان الاعتقاد سابقًا أن كـلاً من الملك الأشوري والحاكم الكاشي قد سقطا في المعركة. وقد تبين أن ذلك هو خطأ في تفسير النص المعني. غير أن ما حدث فعلاً ليس واضحًا تمامًا. وتنص الفقـرة المهمة من النص، كـما ترجمـها: ,H. Tadmor (JNES, XVII (1958)

P.131) على ما يأتي:- انليل _ كودور _ أوصر، ملك أشور وادد _ شوم _ اوصر، ملك بابل دخـلا المعـركة. وبينمـا كـان انليل _ كودور _ اوصر (و) ادد _ شوم- اوصـر.. في المعركـة، عاد ننورتا- أبال ايكور أبن ايلي- ايخـدا، من نسل اربيا _ ادد إلى بلاده (أشور) وجميـع جيشه الكبـير وجاء إلى اشور بغـية فتحـها وشب حريق في معـسكر ادد- شوم _ اوصر، فعاد أدراجه ورجع إلى بلاده.

وقد ذكر جزء من هذه الأحداث في جداول الملوك الأشورية التي تذكر:-

ننورتا- ابل- ايكور... نسل اربيا- أدد، ذهب إلى كـاردونياش (أي بابل)، ثم جاء من كاردونياش واستـولى على عرش (أشور) وحكم ثلاثة سنوات)أو ثلاثة عشر استنادا إلى قراءة أخرى للنص).

ويفسر الدكـتور تدمر Tadmor هذين النصين كمـا يلي: كان ننورتا- ابل- أيكور من النبـلاء الأشوريين، ومن نسل اربيـا- ادد الأول البعـيدين، يعـيش في بلاد يلقي دعم الملك الكاش وقـد تقدم مع الجـيش البـابلي وخلال الحـملة تمكن من أن يجند جـيشًـا خاصًـا به ويسـتـولى على العـرش الأشوري. وكـان لحـدوث حـريق في المعـسكر البـابلي أن توقف الباليون عن الهجوم على اشور وعادوا أدراجهم.

حكم ننورتا _ ابل _ ايكور _ بلاد أشور من ١١٩٢ إلى ١١٨٠ ق.م. وكـان بلاد أشور نفسها في هذه الفتـرة قد اقتصرت جغرافيا إلى أدنى حـدودها رغم أنها كانت في مأمن من التبعـية الاسمية لبـلاد بابل، حيث لم تكن تضم سوى موطن الأشـوريين الأصلى، كما أن أشور _ دان الأول ابن وخليفة ننورتا _ ابل- ايكور لم يلقب نفسـه بلقب الملك بل اكتفى بلقب أمـير اشـاكو وهو الصـيغـة الأكدية للمصطلح السـومري القـديم Ensi انسي. أما الأراضي الواقعة شرقي بلاد أشور فقد كانت دائمًـا، حتى الوقت الحاضر، معرضة للسلب والنهب على أيدي القبائل الجـبلية وذلك في حالة غياب إدارة مركـزية قوية. وكانت بعض أجزاء الإقليم الجـبلي موضوع البـحث والواقع شرق وجنوب الزاب الأسـفل تحت سيطرة بابل سابقًـا وبذلك كانت بابل في موقع يمكنـها من حماية الطرق الـتجارية غيـر أن هجوم توكلني _ ننورتا قد أضعف مملكة الجنوب وسبـب في خلق أزمات داخلية أدت في النهاية

إلى تغيير السلالة الكاشية وإحلال سلالة بابلية محلية في ايسن بدلاً عنها وذلك بعد فترة من الاضطرابات ولم تكن بابل في هذا الوضع قادرة على حماية الأراضي الواقعة في إقليم الزاب الأسفل. ويتعرض الطرق التجارية التي اعتمدت عليها التجارة الآشورية للتغيير بسبب القبائل الجبلية المتجولة من قطاع الطرق، فلابد أن وضعت التجارة الآشورية في موضع متأزم. ولعل ذلك كان السبب في قيام أشور- دان الأول وكذلك والده من قبله بعمليات عسكرية في الأراضي الواقعة إلى ما وراء الزاب الأسفل.

أما السلالة الجديدة في بابل، والمعروفة عادة بسلالة ايسن الثانية، فقد قوت من مركزها خلال حكم الملك الأسوري اشور _ دان الأول الطويل. _ (1179) ١١٣٤ ق.م) وعند وفاة الأخير يبدو أنها كانت في وضع سمح لها بالتدخل في ولاية العرش الأشوري. وبذا فقد ضمنت حكمًا قصيرًا للنورتا _ توكلني- أشور الواقع تحت حمايتها وهو الذي أعاد إلى بابل تمثال الإله مردوخ الذي كان في حوزة الأشوريين منذ عهد توكلتي _ ننورتا.

إن ملوك سلالة ايسن الثانية الأولين الذين سبقوا نبوخذ نصر الأول وهو أهمهم جميعًا، وقد حكم من ١١٢٤ إلى ١١٠٣ ق.م. ففي عهده كانت الإدارة المركزية في بابل مسيطرة تمامًا على الحوادث في البلاد وكان في موقع مكنه من الاهتمام بالشؤون الخارجية. وكما هي الحال دومًا في حالة عدم وجود حكومة مركزة قوية، فقد كانت بلاد بابل معرضة لامد طويل لهجمات عيلام، وكان تمثال الإله مردوخ قد سلب من بابل في إحدى تلك الهجمات. وتمكن نبوخذ نصر من دحر قوات عيلام واستعادة تمثال الإله مردوخ واخد تمثال أحد الإلهة العيلامية. وفي الشمال الشرقي تمكن من اللولوبي في منطقة قرة وانج الذين كانوا على بلاد بابل منذ عهد سرجون الأكدي على الأقل، كما أنه هاجم بعض الكاشيين في المنطقة الجبلية ولعلهم كانوا من الكاشيين الأولين الذين لم ينحدروا للاستقرار في بلاد بابل. كما استمرت سيطرة بلاد بابل على أشور خلال جزء من حكمه إلى أن تمكن الحاكم القوي أشور- ريش _ اشي (١١٣٣- ١١١٦ ق.م) من ضمان استقلال المملكة الشمالية.

وفي هذه الفترة كانت كل من بلاد أشور وبابل تشعر بضغط الأراميين المتغلغلين من الغرب. غير أن التأثير المباشر كان أكثر على بلاد أشور منه على بلاد بابل طالما أن تجاوز

الأراميين على منطقة الخابور كان يهدد أمن الطرق التجارية الأشورية المؤدية إلى الساحل السوري والأناضول. وقد قام أشور _ ريش _ اشي القوى بحملة ناجحة على الاحلامو، وهم فرع من الاراميين في هذه المنطقة، ووصف نفسه في احد النصوص بأنه الذي سحق قوات الاحلامو المنتشر، كما كانت الطرق التجارية على طول الحدود الشرقية مهددة من القبائل الجبلية أيضًا، فقام أشور _ ريش- أشي بحملات ضد قبائل القوتي Quti واللولوبي، ولعل المصالح الأشورية قد اصطدمت بالمصالح البابلية في هذه المنطقة حول تثبيت حدود النفوذ. وقد نتج عن ذلك أن قام الملك البابلي بمحاولة لغزو بلاد أشور من الجنوب، غير أن المحاولة انتهت بانتصار أشوري ساحق.

أعقب أشور _ ريش- اشي أبنه تجلاتبليز الأول (١١١٥ _ ١٠٧٧ ق.م) الذي لم يكن أقل من أبيه مقدرة. وقد عرفت منجزاته بشيء من التفصيل من منشور طيني كبير. وقد ثبت هذا الملك الخطوط العريضة لسياسية الرعب التي سار عليها الملوك الأشوريين اللاحقين. ومع ذلك فإن النظرة إلى الأشوريين بأنهم كانوا قومًا جزارين يعتدن على القرويين الآمنين القائمين بأعمالهم الخاصة بسلام هي نظرة من زاوية واحدة ففي الواقع كان في هذه الفترة تحركات عرقية على نطاق واسع أن لم توقف عند حدها كان من الممكن أن تدمر، أو تغير جذريا، مسيرة حضارة بلاد ما بين النهرين. وكان الحديد قد بدأ استعماله آنذاك على نطاق واسع وكان المصدر الرئيس لهذا المعدن المهم لجميع العالم المتمدن آنذاك هو منطقة معينة في المملكة الحثية.

وفي المنطقة الواقعة إلى الشرق من ذلك كانت قد غزت المنطقة أقوام تدعي المشكو المعروفة في العهد القديم بالميشيخ. وبعد اعتلاء تجلاتبليزر العرش بفترة قصيرة تدفقت مجموعة كبيرة من هذا الأقوام تقدر بحوالي عشرين ألف، نحو الجنوب لغزو الأقليم الأشوري كموخ Kummuh وكان رد فعل تجلاتبليزر حازمًا حيث توجه نحو الشمال الغربي إلى طور عابدين وهاجم الغزاة هناك محرزا انتصاراً حاسمًا. ثم توجه شرقًا عبر كموخ لاتخاذ ما يلزم تجاه بعض العناصر من السكان المحليين من الذين ساعدوا الغزاة القادمين من الشمال. وفي حملات السنوات التالية تمكن تجلاتبليزر من توسيع وتقوية سيطرته على المنطقة الشمالية الغربية والشمالية الشرقية من بلاد أشور وتوغل في النهاية في

آسيا الصغرى إلى منطقة لم يسبق أن وصلها أي من التوجه نحو الغرب إلى الساحل السوري للحصول على الأخشاب وفوائد أخرى من تجارة الفنيقيين. وسرعان ما قدمت كل من كلبا Gulba وصيدا Sidon وارواد الجزية، ويذكر تجلاتيليزر كيف أنه أخذ في رحلة بحرية أمكن خلالها اصطياد ناخيرو (وهو نوع من الحيتان) وتقديمه له. وبالأسلوب نفسه، أرسل له الملك المصري تمساحًا حيا.

وعلى الرغم من أن تجلاتبليزر تمكن من وقف التهديدات في الشمال إلا أن مشاكله مع القبائل الأرامية التي كانت تضغط على البلاد من الغرب ظلت مستمرة كما هي الحال في عهد خلفائه لعدة أجيال. وقد سبقت الإشارة أكثر من مرة إلى ضغط الأقوام القادمة من الصحراء وقد كان من المشاكل المتكررة التي أثرت في جميع بلاد الهلال الخصيب. وكانت هجرة إبراهيم وغزو فلسطين بقيادة إيشوع Jushu جزءًا من هذه الظاهرة. ومع ذلك فقد كان الضغط على الحدود الغربية لبلاد أشور قوي بصفة خاصة وذلك في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ولا بد من شرح الأسباب الخاصة التي دعت لذلك. فقبل عام ١٢٠٠ ق.م مباشرة انهارت قوة الحثيين أمام غزو بري وبحري لجماعة من الأقوام القادمة من أوربا الشرقية وكان الفلسطينيون جزءًا منها. وقد تمكن رمسيس الثالث ملك مصر من أن يهزمهم بحرًا ويبعدهم عن مصر غير أنهم تمكنوا من السيطرة على سوريا وفلسطين وقد شرح سفر القضاة نتائج ذلك ولعله قد أدى إلى تحركات قبلية إلى خارج فلسطين تفسر الضغط باتجاه الشرق. وهناك بعض الدلائل أيضًا أن مملكة سبأ قد ظهرت في هذا الوقت ولعل ذلك أيضًا قد سبب توجه بعض قبائل الجنوب نحو الشرق.

أما العلاقة بين بلاد أشور وبلاد بابل في عهد تجلاتبليزر _ الأول فغير واضحة تمامًا. فقد كانت هناك غارات من كلا الطرفين ولعل الأشوريين قد حصلوا على بعض المساحات عند الحدود غير أنه ليس هناك ما يشير إلى أن تجلاتبليزر _ قد حاول غزو بابل. وفي الواقع لم يكن هناك ما يشير إلى أن تجلاتبليزر _ قد حاول غزو بابل. وفي الواقع لم يكن هناك فوائد لبلاد أشور في ذلك فقد كانت جميع الطرق التجارية الرئيسة في آسيا الغربية في إيدي الأشوريين وكانت التجارة مستمرة دون أي عرقلة لتجلب إلى بلاد أشور فوائد جمة باعتبارها الدولة الوسيط من الساحل البحري الفنيقي وموانئ شمالي سوريا إلى بلاد بابل.

الرفاهية الاقتصادية

وقد ساعدت الرفاهية الاقتصـادية التي نتجت عن هذه التجارة النشطة تجلاتبليزر الأول أن يقوم بأعمال عمرانية كثيرة منهـا بناء المعابد وتعميرها مما ضمن له تراثا ضخمًا كان ينظر إليه باجلال من قبل خلفائه.

وزاد ضعط الارامـيين الذي كان واضـحًا بعـد حكم تجلاتبـليزر الأول فورث خـلفاؤه تدهورًا قوميًـا وتقهقرا. وكان خليـفة تجلاتيليزر المبـاشر هو ابنه أشارد _ ابل- ايكور الثاني الذي لم يحكم سوى سنة واحدة، اعقبه أشور _ بيل _ كالا (١٠٧٤ _ ١٠٥٧ ق.م) الذي قام بحملات عسكرية على كل من اورارتو والأرامـيين: ومما تجدر ملاحظته أنه على الرغم من الصراع القـومي، فقـد أدخلت الإلهة الأراميـة إلى مجمـوعة الإلهـة الآشورية وأن هذا الملك ناشـد آلهة بلاده الأمـورو ضد أي من يحـاول تدميـر نصب معين خـاص به. وكـما يحدث عادة بين الذي يواجهون خطرًا عامًا واحدًا، فقد كانت العلاقات بين أشور _ بيل _ كـالا وبين مردوخ- شـابك _ زير _ مـاتي (١٠٨٠ _ ١٠٦٨ق.م) ملك بابل المعـاصـر له طيبة. ونتيجـة هجوم اتحاد من رؤساء الأراميين، ذهب الأخير إلى عاصـمة بلاد أشور طالبًا المساعدة العسكرية (التي لم يتمكن أشور _ بيل- كالا من تقديمها)، وعند رجوعه وجد أن بابل قد احتلت من قبل الغزاة ولم يكن آشور بيل _ كالا في موقف يمكنه من تغيير الوضع فـاعتـرف بالملك الأرامي الغـاصب أدد- ابال _ ادينام (١٠٦٧ _ ١٠٤٦ ق.م) وأقام مـعه حلفًا عن طريق المـصاهرة. ولعل ازدياد ضغط الأرامـيين وتدخلهم في الطرق التجـارية قد أدى إلى ضائقـة اقتصـادية واضطراب اجتماعي، فـانتهى عهـد أشور _ بيل _ كالا بتـمرد داخلي وعند وفاته انتقلت ولاية العرش إلى غير وارثها الشرعي.

وكـان الوضع غـامضًـا جـدًا لمدة تزيد عن القـرن في بلاد أشـور وبلاد بابل بالرغم من معرفـة تسلسل حكم الملوك. وكانت هذه الفترة فـترة متأزمة جـدًا وكان الاضطراب شديدًا إلى درجة أن الحوليات التي تعود إلى حوالي عام ٩٩٠ق.م تذكر بأنه: "لفترة تسعة سنوات متتالية لم يخرج الآله مـردوخ ولم يأت الإله تابو"، وهذا يعني أن مراسيم عيد رأس السنة، التي كان يخرج فيهـا مردوخ إله بابل من المدينة إلى معبد بدعي بيت _ اكيتو حيث يزوره

نابو إله بورسيا عند عودته إلى المدينة، لم تتم. وحيث أن هذه المناسبة هي أهم مناسبة في السنة البابلية، فإن النص المذكور يشير إلى أن الإدارة كانت مضطربة تمامًا في هذه الفترة. وكذلك قاست بلاد أشور وخلال حكم أشور- رابي الثاني ١٠١٠_ ٩٧٠ ق.م) تمكن الأراميون من الاستيلاء على المستوطنات الأشورية على أواسط الفرات ولو أن الملك نفسه قام بحمله إلى الأمانوس إلى الشمال من ذلك.

وفقدت تحركات الأقوام الأرامية، التي سببت اضطرابات في بلاد أشور وبابل، قوتها بعد حوالي عام ١٠٠٠ ق.م وبدأت القبائل بالتكتل في عدد من الدويلات الصغيرة. وتبلورت القبائل أرامية غير أنها ضمت عناصر أرامية، وذلك في الوقت نفسه وكجزء من التطور أخرى أكثر أرامية غير أنها ضمت عناصر أرامية، وذلك في الوقت نفسه وكجزء من التطور نفسه في مملكتي إسرائيل ويهوذا. كما نجد في العهد القديم ذكر لدويلات أخرى أكثر أرامية مثل دمشق وبيت _ أديني ("بيت عدن" والقراءة الدقيقة "بيت _ أدن" كما وردت في العهد القديم سفر عاموس: ١ : ٥).

ولابد أن وجود هذه المجموعات الصغيرة والكثيرة ذات العلاقات العدائية في وادي الفرات قد خلق صعوبة كبيرة للأشوريين منذ البداية، حيث لم يكن هناك قوة تتمكن من المحافظة على الطرق التجارية التي اعتمدت عليها حياة الأشوريين كما أن وجود أعداد كبيرة من الحدود المستقلة التي كان على النوافل عبورها قد سبب في زيادة الضرائب المفروضة التي كان على القوافل عبورها قد سبب في زيادة البضائع التي كانت تحملها. وفي بلاد بابل تمكن أفراد القبائل أن يعبروا من خلال الأراضي الواقعة بين المدن الكبيرة ويستقروا على الضفة الشرقية من نهر دجلة، بينما كانت منطقة الأهوار في الجنوب (بلاد البحر) قد احتلت من قبل الكلدو، وهم أقواء ذوي علاقة بالا راميين. وكان بإمكان هؤلاء التدخل بالتجارة البحرية عن طريق الخليج العربي. وباستقرار القبائل الأرامية التدريجي وتكتلهم في دويلات مستقرة واعترافهم بالعلاقة بين رفاهيتهم وبين المواصلات الدولية غير المعوقة، بدات التجارة تمر ثانية عبر سوريا. ومن الممكن تصور الوضع المتغير بمقارنة الوضع المضطرب المتمثل في سفر القضاة في عهد الملك سليمان بعد قرنين من ذلك التاريخ.

لذا فقـد واجهت السلالة الأشـورية الجديدة التي أسـسها أشور- رابـي الثاني في بداية القرن العاشـر تحسنًا بطيئا في الأوضـاع. ويذكر أشور _ دان الثاني (٩٣٣- ٩١٢ق.م) من ملوك هذه السلالة، وهو ابن تجلاتبليزر الثـاني (٩٦٦- ٩٣٥ ق.م) الذي لا يعرف عنه شيئًا كثيـرًا في احد النصوص كيف أنه أعـاد بناء "بوابة الحرفين" في أشور التي كان تجـلاتبليزر الأول المشهـور قد أنشأها تهـدمت من بعده. وحيث أن هذه الـبوابة هي البوابة الرئيـسة في أشور للمواصـلات مع الغرب، لذا فإن ذلك يدل على تحسين العلاقـات التجارية في ذلك الاتجاه.

ومهـما يكن الحال ففي عـهد أدد _ نراري الثاني (٩١١- ٨٩١ ق.م) ابن أشور _ دان دخلت بلاد أشور ثانية في فترة ازدهار اقتصادي وتوسع عـسكري. وتمشيا مع الاستراتيجية الأشورية التقليـدية فقد وجه أدد _ نراري أول حملاته إلى الأرضي الـواقعة جنوبي الزاب الأسفل. وكمـا حدث من قبل عندمـا قام أشور _ ريش- إيلي بحمـلات في نفس الاتجاه، فقد تسبب ذلك في قيام صدام بين بلاد أشور وبابل التي كان ملكها يحاول أن يبسط نفوذه إلى ما وراء حدودها الشرقية، باعتبارها مدينة عسكرية مهمة.

وبعد أن ضمن الحدود الشرقية والجنوبية، كان أدد نراري قادرًا على التوجه إلى الأقاليم الواقعة غربي دجلة حيث كانت معظم المنطقـة لا تزال في أيدي القبائل الأرامية وأحلافها. وقد كان قادرًا على إجبار هؤلاء الرحل على الاعتراف بسلطانه رسميًا وذلك بدفع الجزية. كما استـولى في الوقت نفسه تحت سيطرة الأشوريين وأعاد تحـصينها واستخدامـها لحماية الطرق التجارية.

والي الشـمـال من ذلك قليـلاً، حـول نصـيـبين، في المـنطقـة التي كـانت تعـرف لدى الأشوريين بها نيكلبات، كانت قد تبلورت أحدى الممالك الصـغيرة العديدة نتيجة لفقدان زخم الأقوام الأرامية. وقد أثبتت هذه الأقـوام المعروفة بالتيمانيين Temanites (ولعلها لا تتلعق بتيـمان Timan الواردة في العهد القـديم والتي كانت جزءا من ادوم Edom) بأنها عدو عنيـد. وفي عدد من الحـملات القـوية التي استخـدمت فيـها جمـيع وسائل الحـصار الأشورية اكـتسح ادد _ نراري هذه المملكة المسـتقلة مدينة بعـد مدينة واقـتاد أخيـرًا ملكها

أسيـرًا إلى أشور بعد أن لقـى عدد من الأمراء المحليين حـتفهم في المـنطقة. ثم وسع ادد _ نراري النفوذ الأشوري إلى شواطئ الخابور، مستوليا على كوزانا)كوزان في العهد القديم: سفر الملوك الثـاني اصحاح ١٧:٦ وغيره، التي أصبـحت فيما بعد عاصـمة لإقليم أشوري وتتمثل حـاليًا: بتل حلف) وجعل أميـرها تابعًا له. وقد أجبر أمـراء المدن المحليين الأخرين على طول نهر الخـابور على الاعتـراف بالسيادة الأشـورية وذلك من خلال دفعـهم الجزية. وبهذه الوسائـل تمكن ادد- نراري من أن يضمن السيطرة على طول نهر الخـابور، ويحصل على أمن حدوده الغربيـة. كما ضمن حدوده الجنوبية بمعـاهدة مع الملك البابلي ابرمت بعد الصدام المسلـح الذي وقع بين القوتين في بداية حكم ادد- نراري، وتعـرف وثيقـة المعاهدة هذه بالتاريخ التـعاصري Synchronous History. وقد اشتق هذا الاسم من حـقيقة أن الوثيقة تذكـر كأساس لإقرار السـلام موجزا لتاريخ المنازعات على الحـدود بين القوتين في الماضي. لذا كانت هذه الوثيقة مهمة بالنسبة لتاريخ الفترة السابقة لحكم ادد _ نراري الثاني.

وهناك مجـموعة أخرى من الوثائق ذات الأهمـية في تثبيت تسلسل التـاريخ الأشوري تبدأ من هذا العهد، وهذه المجمـوعة هي قوائم الليمو Limmu. ففي بداية عهد كل ملك، كـان الملك يرعي احتـفال عـيد رأس السنة في الـعاصـمة. أمـا في السنوات التاليـة، فكان الاحتـفال برعاية كبـار الموظفين الملكيين بالتعاقب. وفي فـترة الوظيفـة، كان الموظف المعني يدعى ليمو Limmu. وكانت السنة الأشورية تؤرخ اسـتنادا إلى ذلك. فكان التاريخ على الوثائق القانونية يظهر على النحو التالي:"في سنة ليمو فلان بن فلان". وقد عثر على قوائم الليمو هذا فـأمكن تثبيت تسلسلها منذ بداية القـرن التاسع وحتى أواخر القـرن السابع قبل الميلاد. ويرافق كـثير من هذه القـوائم أشارات مختـصرة عن الحمـلات العسكرية أو بعض الأحداث الأخـرى. ومن حسن الحظ أن المدخل لسنة معـينة هو ذكر كسـوف للشمس في شهر معين. وحيث أمكن حسـاب تاريخ وقوع هذه الظاهرة بدقة من قبل علماء الفلك في الوقت الحاضر، فقد أمكن تثبيت أحدى السنوات بدقة. ومن خلال هذه السنة المثبتة بالذات أمكن تثبيت سلسلة من التقاويم شملت فترة أكثر من قرنين ونصف القرن. لذا يمكن تأريخ الأحداث الـتي وقعت خـلال معظم النصف الأول من الألف الأول قـبل الميلاد ابتـداء من عهد ادد _ نراري بصورة دقيقة وبحدود السنة الواحدة.

وفي عهد ادد _ نراري، كانت الضـرائب تنهال على البلاد من التابعين ومنهـا العربات والحبوب والخيل والآنيـة الذهبية والخمور والمأكولات بصورة عـامة والماشية والأغنام. ولم تبدد هذه الزيادة في الثـروة بل استخدمت كلهـا، أو جزءا منها على الأقل، لتطوير اقـتصاد اشور. ويذكر ادد نراري على وجه الخصوص قائلاً:

"شيدت بنايات إدارية في بلادي. واقمت وسائل الري فيها وزدت عدد مخازن الحبوب عما كان عليه كانت عليه في الأيام السابقة. وزدت عدد الخيل المعدة للنير...".

وربما كان ادد- نراري هو الـذي ادعى، كما وردفي أحـد النصوص الذي لا يشـير إلى اسم الكاتب، بأنه جلب الجمال ذات السنامين إلى آشور ورباها على شكل قطعان.

ويبدو أن التـحالف مع بابل قد سـهل التجـارة مع الجنوب حيث يذكر نص أخـر إعادة بناء مسناة أشور، ومن الواضح أن ذلك لفائدة التنقل النهري: وقد كشف في مدينة النمرود عن مسناة مشـابهة من فترة مـتأخرة شيدت بقطع ضـخمة من الصخـر. ومما لا شك فيه أنه كان هناك في فترات معينة مواصلات نهرية مزدهرة في العاصمة الأشورية.

وخلال السنوات السـتين التالية، اتبع الملوك الآشوريون سيـاسية ثابتة في تدعـيم أعمال ادد _ نراري. فإن أمن بلاد أشور تطلب السـيطرة، بالحاميات العسكرية والفـتوحات، على الأقوام الجلية إلى الشمال وإلى الشرق وكذلك السـيطرة على الطرق التجارية إلى كبدوكيا والبحر المتوسط. وأن تحقيق هذه الأمنيات قد تضمن آجلا أو عاجلا أحداث تغيير في وضع مناطق الحدود، الواقعـة على الأطراف من مناطق تدين بالتبعيـة وتدفع الضرائب إلى أقاليم مندمجـة اندماجا كلـيا في الإمبـراطورية. وقد شغل توكلتي- نـنورتا الثاني (٨٩٠- ٨٨٤ ق.م) ابن ادد _ نراري وخليـفـتـه، سنواته الأربعـة الأولى في حمـلات ضـد بلاد نائيـري الواقعـة إلى الجنوب الغربي من بـحيرة وأن ونجح أخـيرًا في إخـضاع ملك نائيـري وجعله تابعًا لبلاد أشور وربطه بالقسم وحمله مسؤولية تزويد الخيل لقوة المشاة الخفيفة التي كانت قد استخدمت لأول مرة في الجيش الأشوري. وفي أواخر السنة نفسها كان بإمكان توكلتي ننورتا أن يهـتم بالإقليم الجبلي شرقـي بلاد أشور، فضـمن أمن المنطقة الواقـعة بين الزاب الأعلى والزاب الأسـفل. وقد مـهد ذلك الطريق بحـملة نحو الجنوب إلى المنـطقة الواقـعة

شرقي دجلة وقد قام بهـا في الربيع التالي. وكانت السلالة البابلية آنذاك ضعـيفة إلى درجة وقد قـام بها في الربيع التـالي. وكانت السلالة البـالية آنذاك ضعـيفة إلـى درجة أن توكلتي نتورتا تمكن من الوصـول إلى دور كوريكالزو (عقـرقوف حاليًـا قرب بغداد) وسـبار دون ظهور أية مـعارضة بـابلية كمـا يبدو. تقدم الجـيش الأشوري من سـبار بدون أية معـارضة أيضًا، عـبر نهر الفـرات ضاربًا حدود الأراضي الأشـورية إلى الأعلى حتى نهـر الخابور ثم اتجه بعـد ذلك شمـالا بمحاذاة ذلك النهر حـتى نصيـبين واخذ في طريقة الجـزية من الحكام المحلين وانحرف وقليلاً وقام بهـجوم أخير على مشكو Mushku في آسيا الصغرى. أما في الشؤون الداخليـة فقد استـمر توكلتي _ نتورتا على اتباع سيـاسية ادد _ نراري فعمل على تطوير الزراعة وإنتاج الحبوب بواسطة الري وإقامة مستوطنات إجبارية للسكان.

وينتقـد المعلقون المحـدثون بصورة عامـة آشور ناصـربال الثاني 859 -883)ق.م) ابن نوكلتي _ ننورتا لصـراحته وتـلذذه الظاهري في الحديث عن القـسوة التي انزلهـا بالبلدان المفتوحة وقد أهملت غالبًا انجازاته الإدارية في غمرة السخط الخلقي عليه. وكانت نشاطات أشور ناصر بال الأولى خاصة بالمناطق الجبلية إلى الشرق حيث وسع النفوذ الآشوري على الأقاليم الجبلية وضـمن الاعتراف بسيادة بلاد آشور من قبـل الأقوام التي كانت حتى آنذاك خارج فلك النفوذ الاشوري وكان لابد من القـيام بحملتين لإخضاع زاموا (Zamuaوهو وادي السليـمانيـة المنيع الذي يمكن اغلاق ممراته بسـهولة). وإلى الشـمال الغـربي من بلاد أشور نفسها في جـبال كاشياري Kashiari تقع منطقة كانت تابعة فيـما مضى لبلاد آشور ولكنهـا توقفت منذ زمن عن الاعـتـراف بالحكومة المركـزية فقـام آشور ناصـر بال Khan (حاليًا كرخ) وحـيث كان الآشورين المستعمرون يسـتقرون، فإنهم كانوا ينتقـمون وبقسوة من كل تمرد يحدث في المنطقة.

وفي الغرب ظهرت دولة أراميـة قوية أخرى هي بيت _ اديني وعاصمتها تل _ بارسب Tilbarsip (تل أحـمر حـاليًـا) جنوبي في المناطق الخـاضـعة للأشـورين على طول نهـر الخابور وأعـالي الفرات، وكـانت مدينـة سورو Suru في بيت _ خالوبي Bit Khalupe مركز ذلك حيث نصب عليها ملك صوري من بيت _ اديني. وقد ضمن إجراء آشور ناصر

بال الحازم والقوى إخضاع العصاة وأسر الداعية، وتعطينا قائمة الغنائم التي أخذت من قصر ومعابد المدينة المهزومة فكرة عن ثراء الدولة الآرامية الواقعة على ضفاف الأنهار. فبالإضافة إلى الفقرات الاعتيادية من الغنائم كالماشية والأغنام والفضة والذهب، هناك ذكر لانية من البرونز والحديد والرصاص والأحجار الكريمة والمراهم والأقمشة الصوفية والكتان وخشب الأرز وغيره من الأخشاب ذات الروائح الطيبة. وقد لاقى قادة التمرد حتفهم أما بالخازوق أو بسلخ جلودهم وهم أحياء أو ببنائهم في الجدران وقد ضمنت هذه الإجراءات القاسية السلام في المنطقة لمدة خمس سنوات. ثم ظهرت الاضطربات من الاتجاه المعاكس حيث قام نابو _ ابال _ ادن ملك بابل بإرسال قوة قوامها ثلاثة الآلف جندي لمساعدة قبيلة السوهو المتمردة على أواسط الفرات وقد اتجهت إلى الأعلى بمحاذاة النهر لتستولى على حصن سوهو وتتخذه قاعدة لها فقام الجيش الأشوري الذي كان آنذاك في مقاطعة كموخ Kummukh بزحف سريع نحو الخابور والحق هزيمة شنيعة بالعصاة في معركة استمرت يومين، وقد وصلت تأثيرات هذه الهزيمة السياسية، كما تدعى حوليات آشور ناصربال بعيداً:

"وثبت القوة والعزم على بلاد سوهو، وامتد الخوف من سلطاني إلى بلاد كاردونياش (شمال بلاد بابل) وسيطر الخوف من اسلحتي الذي يبعث على القشعريرة بلاد كلدو (جنوب بلاد بابل)".

ومع ذلك فقد حدث تمرد آخر في المنطقة في السنة التالية على الرغم من القضاء عليه بسهولة، وربما كانت بيت _ اديني وراء هذا التمرد الأخير، حيث قام اشور ناصر بال في السنة التالية لذلك بهجوم على إحدى مدنها وأجبرها على الاعتراف بالسيادة الآشورية. وقد مهد ذلك الهجوم الطريق إلى الساحل السوري وفي السنة التالية زحف الجيش الآشوري من غير مقاومة تذكر إلى البحر المتوسط عن طريق كركميش واورنتس Orontes وأخذ الجزية من الدويلات
الصغيرة في الطريق ومن المدن الساحلية جنوبًا إلى مدينة صور.

وفي السنوات الخمس عشرة الباقية من حكم آشور ناصر بال تمتعت الإمبراطورية

بسلام واستقرار كبيرين. ولم يذكر سوى حملة واحدة عام ٨٦٦ ق.م عندما كان من الضروري اتخاذ إجراءات حاسمة ضد المتمردين في كاشياري، وهو إقليم سريع التأثر بضغط دولة اورارتو ذات القوة الكامنة (في العهد القديم ارارات ثم عرفت بعد ذلك بارمينيا).

أما الشؤون الداخلية، فإن أهم إنجازات أشور ناصربال هي تأسيس عاصمته الجديدة في كلخو (في العهد القديم كالح، نمرود الحالية) التي افتتحت باحتفال كبير عام ٨٧٩ق.م وقد وصفت مسلة اكتشفت في النمرود عام ١٩٥١ هذا الحدث وبعض أوجه سياسته الداخلية الأخرى بالتفصيل. وقد أسكن في المدينة بصورة عامة الأقوام المندحرة التي أخذت أثناء حملاته المختلفة وأقيمت مشاريع إرواء لزيادة خصوبة المنطقة وزرعت الحدائق بأنواع كثيرة من النباتات والأشجار التي جمعها الملك، وشيدت المعابد وزخرفت وأنشأت حديقة للحيوانات جمع فيها الملك وربى قطعان من الثيران والأسود والنعام والقرود كما قدم له الحكام الهدايا من الفيلة المتوحشة وكان مصير جميع هذه الحيوانات، باستثناء القردة، القتل من قبل الملك في احتفالات الصيد. وتضمن الاحتفال بتشدين كلخو وليمة ضخمة حضرها ما يقرب من سبعين ألف شخص من العمال ذكورا واناثا، والموظفين الحكوميين وممثلي الحكام والأقوام التابعة جاءوا سوية ليحتفلوا لمدة عشرة أيام.

وقد استمر شيلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ق م) ابن آشور ناصربال وخليفته في أعمال أبيه وعززها وكرس السنوات الأولى من حكمه لتقوية مركز بلاد آشور في الغرب فقام في سنته الأولى بحملة إلى ساحل البحر المتوسط لم تلق كما يبدو أية مقاومة. وفي هذه المرحلة هوجمت بيت ـ أديني التي كان قد أخضعها آشور ناصربال وجعلها تدين بالتبعية، ووضعت تحت سيطرة مباشرة. ولا يعرف بالضبط هل نظرة شيلمنصر هذه كانت نتيجة لأعمال عدائية واضحة من قبل بيت ـ أديني أم أنها مجرد نتيجة اعتقاده بخطرها الكامن. ومن المؤكد أنه كان بإمكان بيت ـ أديني السيطرة على مصادر عسكرية هامة حيث استلزمت السيطرة عليها قيام شيلمنصر بثلاث حملات قبل أن يتم أسر الملك والعائلة المالكة. وفي أثناء تلك الحملات، قام شيلمنصر بإعادة تثبيت السيطرة الآشورية على الأقاليم الواقعة إلى الشمال مباشرة حيث كان توسع النفوذ الأورارتي.

وقد أعيد استيطان بيت ـ أديني وتنظيمها كمقاطعة آشورية وبذلك تمكنت آشور من السيطرة الكاملة على الطرق التجارية المهمة على طول أعالي الفرات إلى كيليكيا Cilicia وآسيا الصغرى. وكان ذلك تهديد خطر لدول سوريا التجارية القوية التي سارعت لتشكيل حلف مضاد للآشوريين بزعامة أدد ـ أدري (في العهد القديم: بن هداد) حاكم دمشق شمل فرقا من إسرائيل وآمون، وقد التحق الهجوم الكبير على الجيش الآشوري قرب قرقر الكوارث بالسوريين ووصلت خسائرهم (استنادا إلى أقل ادعاء آشوري) أربعة عشر ألف من مجموع سبعين ألف مسلح.

وانتاب السياسة الآشورية بعد ذلك تحول مؤقت، حيث أصبح من الضروري اتخاذ الخطوات اللازمة في بلاد بابل حيث اشتعلت نيران الثورة ضد الملك الذي يؤيده الآشوريون. ومن الواضح أن جميع أجزاء جنوب بلاد بابل كانت آنئذ تحت سيطرة الشيوخ الكلدانيين المحليين، فوجد شيلمنصر ضرورة لأن يظهر القوة ضد هذه القبائل لإجبارهم على الاعتراف بالسيادة الآشورية من خلال دفع الجزية.

ثم التفت بعد ذلك إلى الغرب ففي عام ٨٤٩ ق م جعلت كركميش، وهي آخر الدول المستقلة اسميا الواقعة على أعالي الفرات والتي كانت تدفع الجزية، تحت الحكم الآشوري المباشر. ومع ذلك فقد ظل الحلف السوري في الغرب يكون تهديدا كبيرا للوضع الآشوري في المنطقة. وعلى الرغم من عدد من الانتصارات الآشورية البسيطة في السنوات الأربعة التالية التي كانت الحملة الأخيرة منها تضم جيشا آشوريا ضخما يتألف من مائة وعشرين ألف جندي، فلم يكن بالإمكان تحقيق انتصار حاسم على الحف في تلك الفترة.

وبعد أربع سنوات عندما وجه شيلمنصر القوة الآشورية الرئيسة ضد الغرب، كان الوضع قد تغير. ففي ذلك الوقت كان قد توفي اثنان من الشخصيات البارزة في الحلف السوري هما أهاب ملك إسرائيل وادد ـ أدري ملك دمشق، وكان الأخير قد اغتيل استنادا إلى ما ورد في العهد القديم (سفر الملوك الثاني إصحاح ٨: ١٥) من قبل خادمه حزائيل Hazael الذي اغتصب العرش بعد ذلك. وبموت أدد ـ أدري انحل الحلف. ويزودنا سفر الملوك الثاني بصورة عن السلالات والمكائد الدولية والصراعات التي تبعت ذلك. فقد

خسر حزائيل الذي لم يكن له حليف آنذاك، ستة عشر ألف من رجاله وكثيرا من حدوده بالرغم من أن دمشق نفسها لم تؤخذ. في حين دفع ياهو Jehu في إسرائيل وملوك صور وصيدا الجزية إلى شيلمنصر. أما مصر فقد أظهرت الصداقة بإرسال هدايا تتضمن جمال عربية ذات سنام واحد وفرس النهر وغيرها من الحيوانات الغريبة. وفي السنوات الثمانية التالية كان شيلمنصر منشغلا بتثبيت موقفه في الغرب فوسع سلطانه باتجاه الشمال الغربي ليشمل تابال Tabal (وفي العهد القديم: توبال) وقو Qu (كيليكيا Cilicia) وجعلهم من التابعين. وفي وسط سوريا الحق المزيد من الهزائم وخسران الأراضي لحزائيل.

وهكذا أصبحت آشور مسيطرة تماما على سوريا وعلى جميع الطرق التجارية إلى آسيا الصغرى. وبذا أصبح إنتاج الحديد الذي كان لايزال إلى درجة كبيرة حكرا على آسيا الصغرى تحت سيطرة الآشوريين تماما كما كان إنتاج الخشب في لبنان ومناجم الفضة في الأمانوس. كما كان أصحاب الحرف والفنيين السوريين تحت إمرة شيلمنصر وقد أرسل الكثير منهم إلى المدن الآشورية، وهذا يذكرنا بالطريقة التي استخدم بها الملك سليمان في القرن السابق أصحاب الحرف من صور وجبيل (بيبلوس القديمة شمالي بيروت) كالنجارين والنقارين والحدادين لبناء قصره ومعبده (سفر الملوك الأول ٥: ١٨، ٧: ١٣، ١٤) وقد عثر خلال تنقيبات النمرود (كالح) على كميات كبيرة من العاج المنحوت لاسيما في المعبد الذي كان قد بناه شيلمنصر في الجهة السفلى من المدينة وقد تأكد الآن بأنها كانت من صنع الحرفيين السوريين، كما أمكن التعرف على تحصينات كان قد بناها في مدن آشور تكشف عن استخدام طرق اتبعت لأول مرة في بلاد ما بين النهرين في هذه الفترة ثم استخدمت دائما بعد ذلك، ولعلها كانت بتأثير الأساليب السورية حيث من المؤكد أن علم التحصين في المدن السورية كان متطورا جدا بحيث تمكنت بعض المدن من مقاومة الحصار لمرات عديدة. ولعل باب بلوات البرونزي الشهير، وهو عبارة عن أحزمة معدنية مثبتة على أبواب خشبية ومزخرفة بواسطة الطرق بمشاهد من حملات شيلمنصر الرئيسة، يدين كذلك بعض الشيء إلى عمال المعادن من طراز حيرام في صور في القرن السابق وكان: "مملوءا بالحكمة والفهم والحيلة ليعمل جميع الأعمال بالنحاس" (أي البرونز)، (سفر الملوك الأول: ٧: ١٤).

وباستثناء بعض الاضطرابات البسيطة في الغرب التي كان رد فعل بلاد آشور فيها للانتقام لمقتل أحد التابعين الموالين في عصيان قويا، فقد كانت بقية نشاطات شيلمنصر العسكرية موجهة للشمال والشرق. وكانت أورارتو، ولعلها كانت نفسها في ذلك الوقت تحت ضغوط الأقوام البربرية من الشمال، تؤلف تهديدا متزايدا لآشور، ليس شديدا في المنقطة التي تقدمت فيها كلا المملكتين كما في أقصى الشمال الغربي وأقصى الشرق حيث كانت كلا الإمبراطورتين في تنافس للسيطرة على الطريق التجارية الرئيسة في الحالة الأولى من الطريق من سوريا إلى آسيا الصغرى وفي الحالة الثانية الطريق القادمة من الهند والصين عبر إيران. لذا تضمنت حملات شيلمنصر الباقية صدامات غير حاسمة مع قوات أورارتو وبعض الحملات التأديبية ضد الأقوام التابعة والمتمردة في الجبال الكردية وإيران.

وفي السنوات الأخيرة من حكم شيلمنصر الطويل حدث تمرد واسع في البلاد. فحسب تصور بلاد ما بين النهرين كما هي أيضا في أجزاء كثيرة أخرى من العالم (كما أثبت ذلك السير جيمس فريزر) كانت الملكية تعتبر وظيفة، غالبا شبه مقدسة، تمنحها الآلة لفترة محدودة من الممكن سحبها بناء على رغبة الآلهة. وفي أجزاء كثيرة من العالم كان الملك يقتل متى توقف عن إظهار قوته الجنسية. وفي بلاد بابل كان الملك يقوم سنويا بتسليم رزمي للوكيته إلى الإله. ولم يكن هناك مثل هذا التقليد السنوي في بلاد آشور ولكن هناك من يرى بأن مدة الملكية كانت محددة بثلاثين سنة. ويستدل على ذلك من الحالات التي كان الملك يعمل فيها كموظف اللمّو فقد كان الملك دائما يعمل كليمو في العيد السنوي للسنة الأولى من حكمه في حين كان يمثل في السنوات الأخرى بسلسلة من كبار الموظفين. ولم يقم شيلمنصر الثالث بذلك في السنة الأولى من حكمه فقط بل في سنته الحادية والثلاثين أيضا مما يشير إلى أنه كان قد بدأ فترة جديدة من ملكه. وبعد ذلك بفترة قصيرة، قام آشور ـ دانن ـ إيلي ابن شيلمنصر بقيادة تمرد ضمن فيه تأييدا واسعا بما في ذلك تأييد المدن القديمة المهمة كمدينة نينوى وآشور وأربائيلو)أربيل الحالية) غير أنه لا يمكن إثبات ذلك وربما كان هناك علاقة مباشرة بين تجديد شيملمنصر الملكية وبين العصيان.

وكان الابن الذي انتخب شيلمنصر خليفة له هو شمشي ـ أدد الخامس 823)ـ ٨١١ ق م) الذي كان مشغولا في سنوات حكمه الأولى وكذلك قبل وفاة والده بإخماد العصيان

الواسع الذي قاده آشور ـ دانن ـ إيلي. وأخيرا تمكن من تثبيت موقفه بمساعدة ملك بابل، الذي اضطر أن يعترف بسيادته بموجب معاهدة رسمية. وما أن تمكن شمشي ـ أدد بمساعدة بابل ضد المدن المتمردة، من السيطرة على بلاده حتى وجه حملاته الثلاثة الأولى ضد المناطق الشمالية والشمالية الشرقية. وظلت أورارتو تشكل تهديدا متزايدا وكانت معظم نشاطات شمشي ـ أدد العسكرية في هذه السنوات موجهة لضمان تأييد زعماء بلاد نائيري لبلاد آشور التي كانت تؤلف حاجزا جنوبي غربي بحيرة وان. وإلى الشرق من ذلك كانت هناك تحركات عرقية جديدة تزيد في تعقيد الموقف. فكان الميديون، وهم فرع من الأقوام الإيرانية ذكرت لأول مرة في عهد شيلمنصر الثالث، قد هاجروا حديثا إلى المنطقة جنوبي شرقي بحيرة أورميا. وكان إظهار القوة ضد المدن الميدية قد ضمن احترام النفوذ الآشوري إضافة إلى غنائم كثيرة واستعداد الدول الصغيرة الأخرى في المنطقة الشرقية لدفع الجزية.

وكان شمشي ـ أدد الآن في موقف مغاير تماما عما كان عليه عندما احتاج لمساعدة بابل لإخماد تمرد مدنه. فقد كان من القوة إلى درجة أنه وجه اهتمامه إلى الجنوب من نائيزي زاحفا بمحاذاة دجلة إلى المناطق التي انحدر منها الكاشيون سابقا إلى بلاد بابل وكانت عادة ضمن إطار النفوذ البابلي. وبعد فتح هذه المنقطة وتهجير سكانها، عبر شمشي ـ أدد نهر ديالي إلى القسم الشرقي من بلاد بابل نفسها حيث أنه تقدم، كما يشير إلى ذلك نفسه، لتدمير منطقة الحدود بأكملها وسلب وحرق المدن وخرب البساتين وكان ملك بابل مردوخ ـ بلاطو ـ أقبي Marduk-balatu-iqbi خليفة من ساعد شمشي ـ أدد للحصول على عرشه، حذرا فنظم حلفا من عيلام ونامري Namri، (وهي دولة شمال عيلام وليست نائيري) وقبائل الكلدانيين المستقلة في جنوب بلاد بابل وبعض القبائل الآرامية الباقية شرقي دجلة. ومع ذلك، فقد دحر الحلف البابلي في معركة ضارية ويبدو أن السنوات التالية قد شهدت نشاطا آشوريا عسكريا في وسط وجنوب بلاد بابل وقد شمشي ـ أدد القرابين في مدينة بابل نفسها عام ٨١١ ق م.

أن دوافع هجوم شمشي ـ أدد المفاجئ على بابل وكذلك الأهداف التي كان يرمي لتحقيقها مازالت غير واضحة، فليس هناك سبب لأن نفترض أن بلاد بابل كانت تؤلف تهديدا عسكريا لآشور بأي حال من الأحوال سواء لوحدها أو بالاتفاق مع حليفتها الممكنة

أورارتو. وربما كانت الإجراءات الآشورية تتعلق بالطرق التجارية فقد كانت قبائل الكلدو (الكلدانيون) مسيطرة غالبا على جنوب بلاد بابل في تلك الفترة واستنادا إلى قوائم الليمو فقد وجه شمشي ـ أدد حملته ضد تلك المنطقة بالذات وكانت مدن جنوب بلاد بابل في العهد الأول. كما أصبحت بعد ذلك ثانية، ذات أهمية بالغة كمراكز للتجارة من الهند والجزيرة العربية المارة شمالا عن طريق عمان والبحرين)دلمون) وفي فترة لاحقة، كانت التحركات العرقية في شمال إيران قد غيرت بالتأكيد الطرق التجارية في تلك المنطقة وأدت إلى استخدام طريق يمر من جنوب إيران (عيلام) وبابل. ولذا من المحتمل أن الغزو الميدي كان قد اتبع هذه التأثيرات وأن شمشي ـ أدد كان يحاول السيطرة على الطريق التجاري بين الموانئ الجنوبية عبر بلاد بابل على طول نهر دجلة. غير أنه ليس هناك في الوقت الحاضر دليل على ذلك بالرغم من أنه يجدر الملاحظة أن خليفة شمشي ـ أدد، أدد ـ نراري الثالث، أدعى على وجه الخصوص بأنه جعل ملوك (أي شيوخ) الكلدو تابعين له وفرض عليهم الجزية والضرائب.

ويكشف لنا أحد النصوص أن أدد ـ نراري الثالث لم يعتل العرش حتى السنة الخامسة من حكمه الأسمى. مما يؤيد الافتراض أن والدته شمو ـ رامات كانت وصية عليه بعد وفاة شمشي ـ أدد. وهذه السيدة التي درج اسمها وقصتها عند الإغريق بشكل محرف على هيئة سميراميس، كانت بلا شك شخصية مهمة حيث كان لها مسلة تذكارية في آشور إلى جانب المسلات الخاصة بالملوك وكبار موظفي بلاد آشور في حين ذكرت (وبشكل استثنائي بالنسبة لامرأة) إلى جانب الملك في أحد النصوص النذرية.

وقد شهد حكم أدد ـ نراري الثالث (٨١٠-٧٨٣ ق م) وحكم ابنه شيلمنصر الرابع (٧٨٢-٧٧٢ ق م) تزايدا كبيرا في قوة أورارتو وكان هناك صدامات عدة بين القوتين لاسيما في المنقطة الميدية. وفي الشمال الغربي أيضا تجاوزت أورارتو كثيرا على الحدود التي كانت خاضعة سابقا للسيطرة الآشورية وبصورة خاصة ميليد Melid وقد شجع ذلك ارتداد بعض الدول السورية الشمالية الأخرى. فقام الحلف الذي أعيد تنظيمه ليشمل دمشق وقو وكوركم Gurgum بهجوم على دولة حماة المؤيدة للآشوريين (المشهورة في العهد القديم). وقد سارع أدد ـ نراري بتقديم المساعدة إلى تابعه الموالي وفي سلسلة من

الحملات قطعت الأولى بين الحلف في الشمال وبين دمشق ومن ثم القيام بهجوم مباشر على الأخيرة التي استسلمت ودفعت جزية كبيرة. وقد تبعت الدول السورية الأخرى ذلك وقبلت بسيادة أدد ـ نراري. وقد كان من نتائج ضغط أورارتو في الغرب أن انتقل مركز سيطرة بلاد آشور الرئيس في سوريا إلى الجنوب، وكنتيجة عرضية أشير إليها في العهد القديم (سفر الملوك الثاني ١٣ : ٢٤: ٢٥) كان من نتيجة ضعف دمشق أن تمكن يهواش في إسرائيل من استعادة بعض الأراضي التي أخذت من إسرائيل خلال فترة سيادة دمشق. وقد استمر تقدم الأورارتيين على طول جميع الحدود الآشورية الشمالية تقريبا خلال السنوات التي أعقبت حكم أدد ـ نراري الثالث ولعدم وجود حاكم من مستواه يتمكن من تقليص نتائج هذا التقدم فقد قاست بلاد آشور كثيرا. وتمكنت أورارتو من السيطرة التامة على المناطق الواقعة جنوبي بحيرة أورميا مباشرة وبذا سيطرة على الطرق التجارية القادمة من شمال إيران. وكان الوضع في الغرب أكثر تأزما حيث اكتسح الأورارتيون المنطقة وأخذوا من الآشوريين جميع المنطقة شمال وغرب كركميش تقريبا وبذا سلبوا آشور السيطرة على تجارة المعادن في آسيا الصغرى. وإلى جانب النتائج الاقتصادية التي لابد وإن كان لها تأثير مباشر على قابلية بلاد آشور العسكرية طالما أصبحت جميع المنقطة التي اعتمدت عليها آشور في تجهيز الخيل في أيدي الأورارتيين. وكان التأثير الاقتصادي لقطع الطرق التجارية إلى آسيا الصغرى قد أدى إلى اضطراب في سوريا فجهزت عدة حملات عسكرية ضد حتاريكا Hatarikka (في العهد القديم Hadarach) وأرباد ودمشق. وفي خلال فترة ضعف الآشوريين هذه يقع حكم يربعام الثاني ملك إسرائيل، وأن عدم وجود أي سلطة مركزية قوية قد مكنت من توسيع حدوده على حساب حماة ودمشق (سفر الملوك الثاني ١٤ : ٢٥: ٢٨) كما كانت هناك اضطرابات في المناطق الواقعة على طول نهر دجلة جنوبي بلاد آشور في حين سببت الضائقة الاقتصادية الناشئة عن قطع الطرق التجارية إلى قيام ثورات في عدد من المدن. وفي عام ٧٤٦ ق م قامت ثورة في العاصمة كالح نفسها واغتيل آشور ـ نراري الخامس، وهو آخر الملوك الثلاثة الذين أعقبوا أدد ـ نراري الثالث، مع جميع أفراد العائلة المالكة. وقد نصبت الثورة التي قضت على العائلة المالكة القديمة على العرش الآشوري أقدر حاكم في بلاد آشور لمدة تزيد عن القرن. وإن ما هو معروف عن تاريخ

تجلاتبليزر الثالث السابق، بول Pul في العهد القديم، قليل جداً. ففي أحد النصوص يدعى بأنه سليل أدد ـ نراري الثالث وليس هناك سبب للتشكيك في ذلك. ولم يستعمل اسمه بول في العهد القديم فقط بل في بلاد بابل أيضاً. وهناك من يرى بأن ذلك يمثل اسمه الشخصي وأن اسم تجلاتبليزر هو اسم ملكي أطلقه على نفسه عند اعتلائه العرش كدليل على رغبته لاتباع خطوات الملوك الفاتحين الذين حملوا هذا الاسم من قبل.

السيادة الآشورية:

عندما تولى تجلاتبليزر الثالث العرش، كانت بلاد آشور في وضع عسكري واقتصادي صعب، بل متأزم جداً. فكانت قد فقدت سيطرتها على كثير من حدودها الغربية وكانت بلاد بابل في فوضى واضطراب في حين كانت الأقاليم الجبلية إلى شرقي وشمالي بلاد آشور تحت سيطرة أورارتو بصورة عامة. وشهدت السنوات الأربعين التالية استفاقة بلاد آشور وعودة سيطرتها على جميع حدودها القديمة وتثبيت نفسها قوة عسكرية واقتصادية بارزة في الشرق الأدنى. ولم تكن هذه التغييرات الكبيرة نتيجة تغييرات جذرية في الموقف الخارجي. ففي الواقع كان الضغط في الشمال قد زاد في هذه الفترة. بل يعزى إلى حد كبير إلى الإصلاحات الإدارية التي قام بها تجلاتبليزر في إعادة تنظيم نظام إدارة حكام المقاطعات. [illegible] في بعض الأحيان في سبيل [illegible] إلى [illegible] حكام المقاطعات على قوة كبيرة [illegible] المقاطعات التي [illegible] [illegible]

[illegible] حكام المقاطعات [illegible] الإمبراطورية بصورة عامة على طول الإمبراطورية فساعد ذلك على سرعة المراسلات بين الملك وحكامه. كما طلب إلى الحكام أيضاً أن يقدموا تقارير منتظمة عن شؤون مقاطعاتهم. واتبع تجلاتبليزر وخلفاؤه بالنسبة للدول المجاورة التابعة ما وراء المقاطعات الآشورية أساليب تضمن [illegible] في

بلاط تلك الدول للإشراف على مصالح الآشوريين بينما أمكن السيطرة عليها بصورة غير مباشرة من خلال العائلة المالكة المحلية، وتمتعت مثل هذه الأسر المحلية الحاكمة بضمان إسناد الإمبراطورية في حالة الثورات الداخلية أو هجوم الأعداء شريطة دفعهم الجزية للمسئولين عن دفعها وقبول توجيه المقيم الآشوري في شئون السياسية الخارجية التجارية، ويمكن ملاحظة أمثلة ذلك في العهد القديم عندما استنجد آهاز ملك يهوذا مثلا تجلاتبليزر حينما هدده حلف سوريا وإسرائيل وقد حصل على النجدة المطلوبة (سفر الملوك إصحاح ١٦ : ٧-٩).

وكان اهتمام تجلاتبليزر العسكري الثاني هو تثبيت حدوده الجنوبية حيث كانت القبائل الآرامية على طول نهر دجلة تثير الاضطرابات منذ السنوات الأولى من عهد آشور ـ دان الثالث (٧٧١-٧٥٤ ق م)، فهوجمت أراضي قبيلة بوقودو Puqudu (في العهد القديم Pekod) شرقي وشمالي بغداد الحالية وأعيد الاستيطان فيها وجعلت جزءا من مقاطعة أرابخا، التي أصبحت حدودها الحالية آنذاك على شكل بيضوي طويل على طول الجانب الشرقي من دجلة ومفتاحا لسيطرة الآشورين على بلاد بابل. وقد جعلت مناطق القبائل الواقعة إلى الجنوب الشرقي من ذلك بين بلاد بابل نفسها وعيلام مقاطعة مستقلة تحت الإدارة الآشورية. وقوت مثل هذه الإجراءات موقف الملك المحلي داخل بلاد بابل نفسها، وهو نابو ـ ناصر الذي لم يتدخل تجلاتبليزر في سلطته غربي نهر دجلة. وحافظ نابو ـ ناصر على الأمن الداخلي والسياسية المؤيدة للآشوريين داخل بلاد بابل حتى موته عام ٧٣٤ ق م فارتاح تجلاتبليزر من قلق الاضطرابات في الجنوب وكان بمقدوره أن يلتفت إلى أورارتو، عدو بلاد آشور الرئيس. ويمكن إعادة تثبيت الخطوط العامة للحوادث التي وقعت في السنوات التالية من حوليات تجلاتبليزر المهشمة قليلا، على حين تزودنا الرسائل التي أرسلت إلى الملك من قادته وحكامه أو ضباط استخباراته على الحدود الأورارتية ببعض التفاصيل الواضحة هنا وهناك، وأن تسلسل الأحداث في بعض الأحيان غير مؤكد بسبب صعوبة تجميع كسر الحوليات بشكل دقيق. وبدأ الضغوط المضاد على أورارتو بحملة إلى أراضي نامري نفسها، وهو إقليم يقع شمالي زاموا (محافظة السليمانية حاليا) شمالي عيلام القديمة. ولم يقابل الجيش الآشوري قوات أورارتية (مما يشير إلى أن كفاءة نظام

استخبارات ومواصلات الأورارتيين كانت أقل بكثير من نظريتها الآشورية) وكان بإمكان الجيش أن يستوعب بسهولة التصدي الذي أبداه بعض القادة المحليين. وقد ترك الحكام المحليون الذين اتفقوا مع تجلاتبليزر في أماكنهم تابعين وخاضعين لدفع الجزية، في حين وضعت حدود أخرى تحت إدارة الموظفين الآشوريين المباشرة وأعيد إسكانها بقبائل من شرقي بلاد بابل. وعلى كل حال فإن الغزوة أنذرت ساردر Sardur في أورارتو الذي استمر بتنظيم حلف قوي ضد آشور في الغرب. وقد أثبتت كفاءة نظام استخبارات ومواصلات الآشوريين جدارة أكثر من الأورارتيين عما في السنة السابقة وزحف تجلاتبليزر بجيشه، الذي كان مجهزا آنذاك بالعدد والتجهيزات نتيجة الأعداد الكثيرة من الخيل والبغال والجمال والماشية التي غنمها في حملته إلى بلاد نامري والتي حصل خلالها أيضا على ما لا يقل عن خمسة عشر طنا من النحاس، ضد القوات في الغرب. ويبدو أن الجيش الآشوري قد عمل الكمائن لقوات الحف التي واجهت هزيمة شنيعة ووقع كثير من الأسرى، استنادا إلى الحوليات ما يقرب من ثلاثة وسبعين ألف جندي، على الرغم من أن ساردر نفسه تمكن من الهرب ليلا من خيمته تاركا وراءه جميع ممتلكاته حتى مجوهراته وختمه الشخصي وهرب عبر الفرات إلى بلاده.

وسارعت تلك الدول التي لم تتورط بالحلف لدفع الجزية إلى تجلاتبليزر، وقضى تجلاتبليزر السنوات التالية في تقوية موقف الآشوريين في الغرب حيث أجريت تغييرات إدارية كبيرة وقلب عدد من الممالك التي كانت سابقا تدين بالتبعية وثبت عدم إمكانية الاعتماد عليها إلى مقاطعات آشورية تحت الحكم المباشر. وظلت هناك بعض الجيوب المضطربة المنعزلة وقد أشير في الحوليات وفي المراسلات الملكية إلى أن السنوات الثلاث التالية شهدت عددا من النشاطات العدائية ضد الآشوريين في سوريا. وكانت هذه النشاطات تتراوح بين العمليات العسكرية الصريحة وبين الشغب المحلي ضد بعض الإجراءات الاقتصادية غير الشعبية. وتمدنا رسالة أرسلت إلى تجلاتبليزر من قبل الموظف الآشوري الذي أعاد النظام في الموانئ البحرية في صور وصيدا يمثل على النوع الثاني. فقد كانت السلطات الآشورية قد فرضت ضريبة على الأخشاب التي تجلب إلى الميناء من لبنان فقام المواطنون الغاضبون ببعض الاضطرابات وقتلوا جابي الضرائب الآشورية وكان رد

فعل الحاكم العسكري الآشوري فعال حيث جلب إلى المدن المعنية فرقا من قوات الأيتو Itu، وهي قوات شرسة استخدمت لأداء
واجبات الشرطة بين السكان المدنيين المثيرين للاضطرابات وكان وجود هذه القوات كما يذكرنا الكاتب إلى جانب الملك قد وضعت الناس في حالة رعب. وبعد أن أفزع تجار الخشب ما فيه الكفاية وجههم الموظف الآشوري للاستمرار بقطع الخشب كالسابق غير أنه حظر عليهم تصديره إلى المدن المصرية والفلسطينية ولعل هذه الحادثة أشير لها في سفر أشعيا الإصحاح ٢٣: ٥ وكان كلا من ملك يهوذا عزرا وملك إسرائيل مناحيم المعاصرين متورطين في الاضطرابات في هذا الوقت. ويصف سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٥: ١٩: ٢٢ كيف أن مناحيم فرض ضريبة على رؤوس الأموال ليدفع الغرامة. وهي ألف طالن من الفضة فرضت من قبل تجلاتبليزر الثالث (بول Pul).

ويبدو أن تجلاتبيلزر الثالث قد بقي نفسه في سوريا في السنوات التالية واتخذها قاعدة له في حين كانت فرق من جيشه مشغولة في الشمال والشمال الشرقي في أعقاب النصر الآشوري على ساردر. كما هوجمت ثانية أراضي نائيري جنوب غربي بحيرة وان وشمال المقاطعة القديمة تشخان Tushkhan ومنطقة التبانل في أعالي الزاب الأعلى. وخضعت هذه المرة للسياسة التي اتبعها تجلاتبليزر الثالث على نطاق واسع وهي ترحيل السكان المحليين وإعادة إسكان البلاد بالأسرى من مناطق أخرى من الإمبراطورية وقد وضع الإقليم بكامله تحت سلطة حكام آشوريين.

ويبدو أن انسحاب قسم من الجيش الآشوري قد أعطى حكام سوريا وفلسطين الثانويين فكرة خاطئة عن قوة الآشوريين. في حين خلفت الإجراءات الاقتصادية من النوع الذي يعكسه حظر تصدير الخشب إلى الجنوب من لبنان بعض الصعوبات.

وفي عام ٧٣٤ ق م كانت هناك بعض الاضطرابات في جنوب فلسطين. واستنادا إلى ما جاء في سفر الأيام الثاني الإصحاح ٢٨: ١٦: ٢١، هاجم حلف من أدوم Adom والمدن الفلسطينية يهوذا تحت حكم آهاز Ahaz بينما أقيم في شمال ذلك حلف معاد للآشوريين ضم سوريا وإسرائيل. واستنادا إلى القصة الثانية في العهد القديم (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٦: ٥-٩ وكذلك الفقرة التي أشير إليها في سفر الأيام الثاني). حافظ أهاز على سياسة موالية للآشوريين طوال الوقت، وطلب العون من تجلاتبليزر وبتقديم ذلك

تمكن الملك الآشوري بسهولة من التخلص من المعارضة في المدن الفلسطينية والسورية والتدخل في شئون إسرائيل وتنصيب هوشع بدلا من الملك بيكا Pekah. ويذكر سفر الأيام أنه كان على أهاز أن يدفع ضريبة إلى تجلاتبليزر على الرغم من موالاته، وهي إشارة تؤيد الحوليات جزءا منها، ويبدو أنه إذا كانت الأحداث في سفر الأيام موثوقة فإن الضريبة هي التي كانت تعرف عادة كيتو Kittu، وهي الضريبة التي تفرض مقابل تقديم المساعدة العسكرية إلى تابع في حالة الاضطرابات.

وفي عام ٧٣٤ ق م، حدثت اضطرابات في منطقة جديدة وذلك عند وفاة نابو ـ ناصر ملك بلاد بابل الموالي للآشوريين. فقد كانت القبائل الكلدانية قد سيطرت تماما على جميع بلاد البحر (وهي الجزء الجنوبي من بلاد بابل) لما يقرب من قرن كامل وكانت تعمل على توسيع سيطرتها تدريجيا إلى الشمال باتجاه الفرات ودجلة. وفي أثناء الارتباك الذي حدث عند وفاة نابو ـ ناصر ثار أوكن ـ زير Ukin-Zer رئيس قبيلة بيت أموكاني الكلدانية Bit-Amukkani ضد الخليفة الشرعي الموالي
للآشوريين والمدعو نابو ـ نادن ـ زير Nabu-Nadin-Zer (734-732 ق م) وتمكن أخيرا من السيطرة على العرش. وظلت القبائل غير الكلدانية القاطعة شرقي دجلة في شمال بلاد بابل موالية لآشور، كما كان كذلك المواطنون البابليون)بصورة عامة) على الرغم من أن الغاصب قد استولى على العاصمة نفسها. وهناك رسالة تحدثنا عن المفاوضات التي تمت بين الموظفين الآشوريين والسكان المحصنين في الداخل، وتذكرنا بالمقابلة التي تمت بين موظفين الرابشاقة ووزراء حزقيا عند حصار القدس عام ٧٠١ ق م (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٨: ١٧: ٣٦). وهناك بعض الدلائل تشير إلى أن الدبلوماسية الآشورية قد نجحت في بذر الخلاف بين شيوخ القبائل الكلدانية ـ وبذلك أمكن جعل جزء من وقتهم محايدة بما في ذلك قوات مردوخ ـ ابلا ـ ادينا. وهو قائد طموح وقدير قاد بنفسه بعد ذلك ثورة وجاء ذكره في العهد القديم تحت اسم مردوخ ـ بلادن (أشيعا ـ الإصحاح ٤٣: ١) وقد كشفت مخططات تجلاتبيلزر الاستراتيجية قيمتها عند التصرف مع أوكن ـ زير. فقد وجه الهجوم من مقاطعة أرابخا وتجنب الجيش الآشوري كثافة المدن على الرقبة المشكلة بالتقاء نهر دجلة والفرات ودخل بلاد بابل عبر دجلة من نقطة تقع إلى الجنوب من ذلك. ووضعت القبائل الموالية لحماية الطرق في حين تحرك الجيش نحو الغرب إلى المدن البابلية.

وأخذت بابل من العصاة الذين هربوا إلى سابيا Sapia، وهي المدينة الرئيسة لقبيلة بيت ـ أموكاني في وسط منطقة الأهوار أسفل الفرات. وتابع الجيش الآشوري ملاحقة أوكن ـ زير وحاصره في مدينته ودمر منطقة بيت ـ أموكاني والقبائل الكلدانية المتمردة الأخرى وهي بيت ـ شيلاني Bit-Shilani وبيت ـ ساآلي Bit-Sa'alli على حين تركت منطقة مردوخ ـ ابلا ـ ادينا والشيوخ أسرين الذين اتفقوا مع آشور، وقد استغرقت العملية جميعا ثلاثة سنوات، ووضعت بلاد بابل عندئذ تحت إدارة أداريين آشوريين، وفي عام ٧٢٩ ق م قام تجلاتبليزر نفسه بأخذ يدي الإله، في احتفال عيد رأس السنة الجديدة في بابل وبذلك قلد رسميا ملكا على بلاد بابل من قبل الإله القومي مردوخ، ولم يسبق لأي من الملوك الآشوريين مدة تزيد على أربعة قرون ونصف، أن تولي ملك بابل. توفي تجلاتبليزر عام ٧٢٦ ق م تاركا بلاد آشور مسيطرة على إمبراطورية واسعة تمتد من الخليج العربي إلى حدود مصر وتضم أجزاء كبيرة من أناضوليا وكيليكيا.

وقد شكلت العمليات العسكرية الآشورية الممتدة جنوبا حتى غزة واضطراب التجارة المصرية نتيجة حظر الآشوريين لتصدير الخشب إلى مصر من لبنان، تهديدا لمصر. وفي عهد شيلمنصر الخامس القصير خليفة تجلاتبليزر، الذي لم تصلنا عنه وثائق كثير، بدأ المصريون باتصالات دبلوماسية هجومية مضادة محاولين إفساد الممالك الصغيرة في فلسطين وجنوب سوريا. وقد تورط هوشع ملك إسرائيل في ذلك، وجلب على نفسه هجوم شيلمنصر (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٧: ٣-٥). وقد أعقب الاستيلاء على العاصمة الإسرائيلية السامرة بعد حصار دام ثلاث سنوات، السياسة التقليدية بترحيل السكان (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٧: ٦ (التي نقلت خلالها قبائل إسرائيل العشرة المفقودة "والتي ظهرت حول مصيرها قصص خيالية عقيمة وذلك إلى مقاطعة كوزانو Guzanu (كوزان) ومنطقة أخرى جنوب شرقي بحيرة أورميا.

وادعى سرجون خليفة شليمنصر بأنه قام بالاستيلاء الفعلي على السامرة الذي ينسب في العهد القديم إلى شيلمنصر. ومن المحتمل أن سرجون كان القائد الذي وجه العملية نيابة عن شيلمنصر.

بداية حكم سرجون (٧٢١-٧٠٥ق.م)

وفي بداية حكم سرجون (٧٢١-٧٠٥ ق م) حدثت اضطرابات جديدة في بلاد بابل. فقد عمل مردوخ ـ ابلا ـ ادينا، شيخ قبيلة بيت ـ ياكيني، وهو دبلوماسي قدير كما يشير إلى ذلك سفر الملوك الثاني، الإصحاح العشرون فقرة ١٢ وما بعدها (الخاص بفترة لاحقة) على تقوية مركزه وجعله قويا جدا. فنصب نفسه شيخا أعلى للكلدانيين وضمن تأييد القبائل الآرامية في بلاد بابل ونظم حلفا مع عيلام، المنافسة القديمة بلاد بابل في جنوبي إيران، وبعد اعتلاء سرجون العرش مباشرة، دخل مردوخ ـ ابلا ـ أدينا بابل وادعى ملوكية البلاد وذلك بأخذ يدي بعل، في عيد رأس السنة الجديدة عام ٧٢١ق م. ويبدو أن الجيش الآشوري قد حاول أن يعيد المناورة شرقي نهر دجلة التي أمكن بواسطتها هزم أوكن ـ زير ولكن جابهه هذه المرة الجيش العيلامي في الدير. وتلى ذلك اشتباك لم يتمكن بسببه الجيش الآشوري من أن يغير إلى مركز بلاد بابل على الرغم من عدم انحداره، وكان عليه أن يعود إلى بلاد آشور. واضطر سرجون بالنظر لانشغاله في مناطق أخرى أن يترك مردوخ ـ ابلا ـ أدينا كملك لمدة عشر سنوات دون أي تفكير. وفي هذا الوقت قاسى اقتصاد المدن البابلية الكبيرة أضرارا بالغة وتدخلت الأقوام القبلية بالتجارة ومارست ابتزام الأموال من المدن بمختلف الأشكال وكانت سيطرة الكلدانيين غير شعبية في المدن البابلية الكبيرة التي ظلت حتى السنوات الأخيرة من نهاية الحكم الآشوري نفسه تستنجد دائما بالملك الآشوري لتقديم المساعدة ضد أعمال التخريب التي تمارسها القبائل الكلدانية.

وكان السبب المباشر الذي اضطر سرجون أن يترك مشاكل بلاد بابل دون حل هو الثورة التي اندلعت في سوريا. وكان ذلك ملائما جدا لمردوخ ـ ابلا ـ ادينا، غير أ،ه لا يمكن في الوقت الحاضر إثبات أنه كان وراء ذلك. كما كان في مسألة مشابهة ورد ذكرها في سفر الملوك الثاني (الإصحاح ٢٠: ١٢: ١٧). وقد تزعمت الثورة ـ حماه وهي الإمارة المستقلة الوحيدة التي ظلت في سوريا. وواجه سرجون المتمردين وهزمهم في قرقر وذلك عام ٧٢١ ق م. وكنتيجة لذلك جعل حماة مقاطعة آشورية. وفي دولة تابعة صغيرة تقع إلى الجنوب، أشار النبي ورجل السياسة أشعيا إلى الدرس الذي يمكن أن يؤخذ من هذه الأحداث معتبرا آشور الأداة ا لسابقة للإله:

ويل لآشور ـ قضيب غضبي. وبالعصا في يدهم هي سخطي. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطي أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهبا ويجعلهم مدوسين كطين الأزقة (أشعيا ـ الإصحاح العاشر: ٥-٦)

وتورطت غزة أيضا بإسناد جبان من الجنرال المصري الذي سمي العهد القديم باسم "سو" So (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٧: ٤). ولكن عند الاشتباك في رفح Raphih هرب الجنرال المصري (استنادا إلى الأخبار الآشورية) بشكل مخز تراكا ملك غزة لأسر محتوم وربما للتعذيب والموت. ولعل وجود هذه السابقة في الذهن جعل الرابشاقة يعلق سافرا على قيمة التحالف المصري:

فالآن هو ذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة على مصر التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه وثقبتها. هكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه.

(سفر الملوك الثاني الإصحاح الثامن عشر: ٢١)

ولم يكن لسرجون اضطرابات أخرى في فلسطين باستثناء محاولة فاشلة من مدينة أشدد Ashdod على الساحل الجنوبي من فلسطين لتنظيم حلف مضاد للآشوريين بإسناد مصري غامض وذلك عام ٧١٢ ق م. وبالاتفاق مع يهوذا وأدوم Edom وموآب. ويشير سفر أشعيا (إصحاح ٢٠: ١-٦) إلى استيلاء الحاكم الآشوري على مدينة أشدد ويذكر سكان القدس بعبث توقع دعم مصري العسكري ضد آشور.

وكما كانت الحال مع تجلاتيليزر فقد كانت مشكلة سرجون الرئيسة هي الضغط من الشمال. فاورارتو، التي بدأ تاريخها وحضارتها يعرف بالتدريب نتيجة التقنيات التركية والروسية التي أثبتت أنها كانت من إحدى القوى الكبرى في الشرق القديم، كانت نفسها واقعة تحت ضغط قوي من القبائل الايرانية المهاجرة التي كانت تتحرك نحو الجنوب والغرب من سهول روسيا. وكانت جماعة من هؤلاء المهاجرين قد استقرت في عهد سرجون وشكلت مملكة ذات أهمية تعرف باسم زيكرتو Zikirtu شرقي بحيرة أورميا. وكان الميديون، الذين كانوا حتى ذلك الوقت غير منظمين وعلى النظام القبلي، تحت سلطة عدد من الشيوخ شبه المستقلين يؤلفون الجزء الرئيس منهم. وقد حاول روساس الأول -Ru

(733-714 sas I ق م) الابن النشط وخليفة ساردر الذي دحره تجلاتبيلزر الثالث، أن يحقق بعض النجاح في الاتفاق مع ثلاثة من الشيوخ الميديين ويضمن إسنادهم العسكري له ضد آشور، كما يجب أن يفترض، تعاونهم في المحافظة على بقاء الطرق التجارية من أقصى الشرق مفتوحة (مقابل الإعانات المعتادة في مثل هذه الحالات) التي كانت أساسية لرفاهية أورارتو. وفي حدود هذا الوقت كان الطريق الرئيس من إيران يأتي من الضفة الغربية لبحيرة أورميا شرقي بحيرة وان إلى أرضورم (حيث عثر على أدوات برونزية أورارتية من القرن الثامن) وإلى تربيزوند Trebizond على البحر الأسود، والتي كانت حسب الأخبار المتوارثة، قد أسست عام ٧٥٧ق م ومن المؤكد أن أورارتو كانت تستفيد من التجارة مع إيران وربما مع الهند. ويستدل على ذلك من رأي المتخصصين بالتكنولوجيا ومن المواد التي ذكرت عندما نهب الآشوريون بعض المدن الأورارتية عام ٧٤١ق م ويحتمل أن أورارتو كان لها علاقات تجارية مع أراضي ما وراء اليونان من خلال الوسطاء. طالما ادعى بأن هناك برونزيات أورارتية عثر عليها في القبور الأتروسكية Etruxan. ويذهب أحد العلماء أبعد من ذلك ويقترح معتمدا على الطرز الفنية بأن قوافل محملة بالحرير كانت تصل أورارتو سالكة الطريق الطويل من الصين ولعل بعض التجارة التي سلكت الطريق الشمالي عبر أرضروم وتربيزوند كانت تمر في الفترات السابقة عبر بلاد آشور إلى موانئ البحر المتوسط، ولعل الرغبة في قطع الطرق التجارية الأورارتية وتحويل هذه التجارة، وما رافق ذلك من رخاء اقتصادي إلى الطرق القديمة هو سبب من الأسباب التي دفعت سرجون للقيام بحملاته التالية إلى المنطقة.

وإلى الجنوب من بحيرة أورميا، بين بلاد آشور ومقاطعات ميديا العظيمة، تقع أراضي المانيين Mannaeans (المني في العهد القديم سفر أرميا، الإصحاح: ٥١: ٢٧). وهم من التابعين إلى الآشوريين وبعد اعتلاء سرجون العرش بفترة قصيرة حدثت اضطرابات في القسم الشرقي من هذه المنطقة أثيرت من قبل ملك زيكرتو Zikirtu الذي كان وراءه أيضا ظل روساس وقد تمكن سرجون من قمع العصاة ولكن الاضطرابات تكررت بعد سنتين عندما قام روساس بأعمال عسكرية علنية، وكان رد فعل سرجون ثانية حازما، وبعد أن تخلص من العصاة عين أولوسونو Ullusunu ملكا على المانيين. وبعد سنتين هوجم

أولوسونو، بسبب مؤامرة داخلية وعمليات عسكرية خارجية من قبل أورارتو ومرة أخرى كان سرجون في مستوى المسئولية فقدم إلى أولوسونو كل المساعدات الممكنة وقام بحملة تأديبية على الحدود الجنوبية لأورارتو. بالإضافة إلى هذه التدخلات المتكررة من جانب أورارتو في شئون التابعين الآشوريين من الموالين لها حدثت مناوشات صغيرة على شكل مصادمات حدود، وللقضاء على المشكلة فقد وضعت الخطط للقيام بهجوم واسع على أورارتو. وبدأت تقارير الاستخبارات تنهال على الملك الآشوري من الموظفين الآشوريين والجواسيس الأجانب. وقد اقترح أحد الكتاب، أن يقوم الملك بهجوم مباشر على أورارتو وبدا أنه واثق من أن العاصمة توروشبا Rurushpa ستقع بيد الآشوريين. وذكرت رسالة أخرى عصيان داخل أورارتو وتفصح الرأي بأن القبائل المعنية ستقف إلى جانب الآشوريين في حالة الهجوم. وكان الهجوم متوقعا لا محالة، حيث يقول أحد الرواة غير الموالين من أورارتو، "عندما تأتي قوات الملك الآشوري للمرة الثالثة".

وقامت قوات سرجون بالتظاهرة الرئيسة المرسومة ضد أورارتو صيف عام ٧١٤ق م وأن خطة الحملة والحوادث معروفة بشيء من التفصيل من تقرير مشهور حول الموضوع كتب على شكل رسالة إلى الإله آشور فقد أخذ سرجون جيوشه إلى مقاطعة زاموا Za-mua ومن هناك، زحف سرجون شمالا إلى منطقة تابعة إلى الوسونو الماني، التابع الموالي للآشوريين، واعتزم أن يستخدمها قاعدة ضد زكرتو Zikirtu وأورارتو. ثم قاد سرجون قواته شرقا إلى حدود زكرتو حيث فتح ودمر المدن الرئيسة المحصنة.*وقد فعل ذلك دون مقاومة حيث ذهب ميتاتي Mettati حاكم زكرتو ليلحق بالجيش الأورارتي ويدافع عن الممرات. واتجه سرجون بعد ذلك غربا ثانية وعلم أن الجيش الأورارتي الرئيس كان يدافع مع حلفائه عن ممر منخفض في الجبال. ويبدو أن قوات سرجون كانت في هذه المرحلة، كما كانت الحال في عهد الاسكندر الكبير في الهند، متعبة من مشاق الحملة في بلاد قاسية وكانت قد أوشكت على التمرد والعصيان. ونظرا لعدم تمكنه من الاعتماد على انضباط جيشه الرئيس، فقد قاد سرجون هجوما مع حرسه الخاص وقواته الخاصة على أحد أجنحة القوة المعادية وشتتها. وبهذا العمل المشجع هجم الجيش الآشوري على الحلف الأورارتي وشتت خطوطهم ونشر الرعب بينهم. وقاد الجنرال الأورارتي قواته مسرعا ولكن بانتظام

متراجعا غير أن بقية الفرق كانت حينئذ بدون قائد ومرتعبة كالغوغاء فانهزمت بدون نظام إلى الجبال حيث لقي الكثير منهم حتفهم بسبب ظروف المناخ القاسية وكان اندحار وهزيمة الجيش الأورارتي الرئيس صدمة كبيرة لمعنويات الأورارتيين فتمكن سرجون من أن يتغلغل في عمق الحدود الأورارتية مع مقاومة لا تكاد تذكر. وترك روساس عاصمته تروشبا Tu-rushpa (التي لم يخاطر سرجون بمهاجمتها كما يبدو) وأخذ طريقه إلى الجبال حيث مات أخيرا من الحزن استنادا إلى ما جاء في أخبار سرجون.

ولازم الفراش كامرأة في المخاض، ورفض أن يمس فمه طعام أو شراب وجلب على نفسه مرضا لا علاج له.

وبعد أن انهارت، كما يبدو، الإدارة المركزية في أورارتو، كان بإمكان سرجون أن يزحف شمال بحيرة وان سالبا وناهبا في طريقه دون أي مقاومة. وفي العودة من الشمال نحو بلاد آشور، لم يقدم أورزانو Urzanu، وهو حاكم موساسير Musasir إحدى دويلات المدن الأورارتية المنعزلة، اعترافه الرسمي بسيادة سرجون. وعلى الرغم من موقع المدينة البعيد وصعوبة التقدم إليها من خلال الغابات والجبال، فقد وجد سرجون من الضروري أن يجعل من مدينة موساسير مثلا رغم القدسية التي كانت تتمتع بها هذه المدينة. فسمح لقواته الرئيسة أن تستمر في طريقها إلى بلاد آشور وقاد سرجون فرقة قوامها ألفا من المشاة ضد المدينة وأصدر أمرا عاما إلى موظفيه في المنقطة الشمالية لمنع هروب أمير موساسير ويظهر سبب هذه التعليمات وضرورة إنجاز هذه الخطوة ضد موساسير واضحا من الحوادث التالية. فقد كانت المدينة مركزا مهما لعبادة الإله خالدي Haldi إله أورارتو القومي. وعندما وصل سرجون، وجد احتفالا للتتويج حيث كان خالدي يقوم بتنصيب خليفة لمملكة أورارتو الشاغرة (ولعله أمير موساسير) وقد أخذ سرجون الإله نفسه وزوجته أسرى ورحل المواطنين وأخذ كنوزا كثيرة من الأحجار الكريمة والمعادن والأواني البرونزية إلى بلاد آشور.

ومع أن العاصمة الأورارتية لم تفتح ورغم قيام روساس، استنادا إلى أحد النصوص الأورارتية الذي يعطي الجانب الثاني من الصورة، بهجوم مضاد ناجح لاستعادة موساسير

(وذلك قبل استسلامه للمرض العضال الذي نسبه إليه سرجون) فقد كانت حملة سرجون فعالـة حيث لم يحدث اضطرابات أخرى مثارة من قبل أورارتو خلال السنوات العشرين التـاليـة أو يزيد باستثناء مؤامـرة في إقليم تابال Tabal (في سفر حزقيـال تبل Tubal الإصحاح ٣٨: ٢، ٣..الخ).

وكان سرجون آنئذ حرا ليتصرف مع بلاد بابل. فقد جعل الحكم القبلي واضطراب التجارة لمدة عشر سنوات على جعل سكان المدن الكبيرة مستعدين للتدخل الآشوري. على حين كانت الشئون الداخلية في عيلام قد شلت قوة الملك العيلامي عن القيام بأي رد فعل. واتبع سرجون الاستراتيجية المضـادة بمهاجمة شرقي دجلة. فاضطر ذلك الجيش الكلداني إلى الانسحاب إلى الجنوب حيث استغلت المدن البابلية الفرصة وفتحت أبوابها للترحيب بسرجون. وأخذ سرجون يدي الإله في عيد رأس السنة الجديدة في بابل غير أنه تبنى اللقب القديم "نائب الإله". وليس "ملك" بلاد بابل. فاكتسحت منطقة مردوخ ـ ابلا ـ ادينا وفتحت حصنه الرئيسة أما هو نفسه فأعيد تنصيبه رئيسا لقبيلة بيت ـ ياكيني بعد أن قدم الخضوع لسرجون.

وفي هذه الأثناء أشارت تقارير الاستخبارات التي وصلت سرجون أن أركيستس Argistus خليفة روساس كان يخطط هجوما على بلاد آشور على الرغم من أن الجيش الذي كان يعده قد يكون لغرض آخر. وعلى كل حال فإن الحوادث اضطرته لاستخدامه لغرض آخر. ففي عام ٧٠٧ق م دخل أورارتو من الشمال حشد كبير من القبائل البربرية تدعى كيمرايا Gimmirraya (في العهد القديم سفر حزقيال الإصحاح ٣٨: ٦....الخ كومر Gomer وفي المصادر الكلاسيكية الكمرين) ودحرت اركيستس في محاولة لوقفهم وعبرت غربا إلى كيليكيا وعندئذ دخلت حدودا تسيطر عليها بلاد آشور. ومن المناسب أن نخلص هنا بإيجاز لمجرى الحوادث في هذه المنطقة خلال عهد سرجون.

ففي السنوات الأولى من حكم سرجون بدأت مصالح مشكو Mushku (في العهد القديم ميشيخ Meshech وفي المصادر الكلاسيكية Phrygia) وهي دولة قوية في جنوب شرقي آسيا الصغرى تصطدم مع مصالح بلاد آشور. وفي عام ٧١٨ق م يبدو أن مشكو

كانت وراء تمرد كركميش (وكان من نتائج ذلك أن جلعت الأخيرة مقاطعة آشورية). وفي عام ٧١٦ق مق قام سرجون بعمليات عسكرية ضد مشكو بدعوى تجاوزها على حدود مقاطعة قو Qu وبعد نجاح سرجون ضد أورارتو وخذلانها في الشرق اتجهت أورارتو لتشكيل شبكة من الأحلاف في الغرب ونجحت بخلق أهداف مشتركة مع مشكو وإفساد تحالف التابع الرئيس لسرجون من بين امراء تابال Tabal وقد تمكن سرجون من هذا التمرد غير أن استعداد مشكو لتقديم التأييد المعنوي على الأقل إلى تابعي آشور من غير الموالين مضافا إليه ضغط أورارتو قد أثبت بأنه مازال يؤلف قوة مقلقة بالنسبة لبعض الذين يدينون بالتبعية لآشور. وفي عام ٧١٢ق م كان هناك تمرد آخر، فوضعت المناطق المعارضة تحت الإدارة الآشورية المباشرة وحصنت تابال لتكون سكينا طويلة تفصل بين مشكو وأورارتو. وفي عام ٧٠٩ق م هوجمت مشكو من قبل قو Qu ولعل ذلك بسبب السياسة الواقعية أو لان آشور قد أظهرت أن جميع الطرق التجارية من سوريا إلى آسيا الصغرى كانت بيدها، أو لعل ذلك بسبب تذمر الأولى من غزو الكمريين Gimmerian فتغيرت سياسة مشكو الخارجية فجأة إلى جانب بلاد آشور وأرسل ملكها ميتا Mita (ميداس في كتابات الكلاسيكيين) هدية وطلب عقد معاهدة صداقة مع آشور. وسر سرجون لذلك وهناك رسالة مرسلة منه إلى مبعوثه المسئول عن المحادثات، وكان علاى الأغلب ابنه سنحاريب، يطلب فيها منه أن يخبر ميتا بسروره لذلك.

وهكذا كان الوضع عندما ظهرت حشود الكمريين في الشمال الغربي بعد محاولات اركيستيس الفاشلة لإيقافها. وتشير الرسائل الإثارية أن كالح)التي كانت ما تزال سركزا إداريا مهما رغم أن سرجون كان قد نشأ في العهد الأخير من حمه عاصمة جديدة إلى الشمال من ذلك في دور ـ شروكين) قد شهدت تدميرا قويا خلال العقد الأخيرة من القرن الثمن قبل الميلاد. ويمكن أن يعتبر ذلك دليلا على هجوم الكمريين المفاجئ على واحدة أو أكثر من المدن الآشورية الكبرى على الرغم من عدم وجود أي شيء آخر يؤيد هذه النظرية. وزحف سرجون إلى تابال عام ٧٠٦ق م. والتقى بالحشود الكمرية في المعركة وقد أخذت بعض الدلائل الغامضة في إحدى الرسائل على أنهما تشير إلى أن سرجون كان قد وقع في المعركة، غير أن هذا الاستنتاج قابل للمناقشة ومهما كانت أسباب وفاة سرجون فإنه ولا

شك توفي في عـام ٧٠٥ق م. وتحركت في نفس الوقت الحشود البـربرية بعيـدا إلى داخل آسيا الصغرى.

الخليفة سرجون ابنه سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ق م)

وكان لخليفة سرجون ابنه سنـحاريب (٧٠٤-٦٨١ق م) ممارسة سابقة كإداري وجندي على الحـدود الشمـاليـة، وهناك عـدد من التقـارير المرسلة منه إلى أبـيه تشـرح بالتـفصيل التطورات في تلك المنطقة. لذا فإن حقيقة عدم قيام سنحاريب باتخاذ إجراءات أخرى على الحدود الشمـالية بعد توليه العرش يمكن تفـسيرها بأنها لا تدل على فـشل الابن في تفهـم المشكلة بل إنها نتيجة لنجاح الأب في معالجتها.

واستـفاد سنحاريب مـن الوضع الجيد الذي خلفـه له سرجون فـكان عمله الأول، وهو أكثـر إنجازاته الخـالدة، إعادت بناء المدينة القـديمة نينوى واتخاذهـا عاصمـة له والتي ظلت كذلك حتى سقـوط الدولة الآشورية. واتخذت، دور شروكين)خرصباد الحـالية) التي كان سرجون قد خططها وبناها عاصمة له وانتقل إليها في السنوات الأخيرة من حكمه كحصن فقط بعد وفاته.

واضطرب سلام الإمـبراطورية بعد سنتين وذلك نتيـجة حدوث عصـيان في بلاد بابل. ولأسباب غـير معروفـة تماما فإن سنحاريب لم يأخـذ يدي بعل في بابل للدلالة على توليه الملوكية أو كنائـب للإله واعتبر مردوخ ـ ابلا ـ ادينا الذي ظل مـخلصا لسيده سـرجون بعد أن أعيد تنصيبه عام ٧١٠ق م أن الفرصة مؤاتية لمحاولة ثانية لأخذ ملكية بلاد بابل. وكانت وراءه القبـائل الكلدانية والآراميـة كما أعطى الـضمانات ثانيـة على تأييد عيـلام له. وكان متحمسا لإقامة حلف واسع ضـد آشور ولابد من وضع تاريخ إرسال مبعوثي مردوخ ـ ابلا ـ ادينا إلى حزقيا (أشعيا، الإصحاح ٣٩) في السنوات التي سبقت ثورة عام ٧٠٣ق م.

وفي عـيد رأس السنة الجـديدة لعام ٧٠٣ق م عين أحـد البـابليين المحليين، وربما نصب كالعوبة آشـورية، ملكا على بابل. وقد تحرك مردوخ ابلا ـ ادينا ـ فورا بقواته إلـى العاصمة وخلع الملك الرسمي واستمـر في إعداد منطقة المدن الشمالية ضـد الهجوم الآشوري الذي لابد سـيتبع ذلـك. وكانت قوات مـردوخ ـ ابلا ـ ادينا العـسكرية الرئيسـة قوات عـيلاميـة

انتخب منها مجموعة وضعها في كوثا كخط أمامي لإيقاف تقدم سنحاريب. أما القسم الرئيس فقد عسرك في كيش. وقد تفوق سنحاريب على العيلاميين وذلك بإرسال مجموعة أمامية لتقطع كيش عن كوثا في حين أخذ جيشه الرئيس كوثا عنوة ثم التقى الجيش الآشوري الرئيس وقضى على القوات المتحالفة في كيش وأصبحت مدن شمال بلاد بابل في أيدي الآشوريين ثانية. وقد استقبلت بابل سنحاريب، كما استقبلت والده من قبل، بحفاوة وكانت علاقات الصداقة متبادلة حيث اقتصر السلب على قصر مردوخ ـ ابلا ـ ادينا.

ثم تقدم الجيش الآشوري لإخضاع وإزالة تحصينات جميع منطقة الكلدانيين التي كانت آنذاك تؤلف جميع جنوب بلاد بابل وتركت المنطقة الكلدانية تحت إدارة موظفين آشوريين في حين وضعت منطقة شمال بلاد بابل تحت حكم ملك بابل المحلي، هو بيل ابني Bel ibni، أحد الأمراء الأجانب الكثيرين الذين عاشوا في البلاط الآشوري رهائن وكان قد ثقف واعد لهذا الغرض.

وفي عام ٧٠١ق م حدث تمرد في فلسطين وربما كان مردوخ ـ ابلا ـ ادينا ينوي أن يتفق ذلك وعصيانه في بابل. وقد تورط في هذا التمرد حزقيا ملك يهوذا (سفر الملوك الثاني ١٨ : ١٣ وما بعده) على الرغم من نصيحة أكبر مستشاريه النبي أشعيا. وكان حزقيا في هذا الوقت أقوى الملوك الثانويين في فلسطين وكان قد بسط نفوذه على بعض المدن الفلسطينية استنادا إلى ما جاء في سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٨ : ٨ كما كان يسعى للتحالف مع مصر (سفر أشعيا الإصحاح ٣٠: ١-٥) وأزيح الحكام الموالون في المدن الفلسطينية وكان من بينهم بادي حاكم أكرون Ekron الذي سجن في القدس، فاجتاحت قوة آشورية قوية فلسطين ودحرت القوات المصرية في التيغة Eltekehواستولت على المدن المتمردة (باستثناء مدينة القدس) وكافأت التابعين الموالي في المدن الفلسطينية باقطاعهم مناطق كانت تابعة ليهوذا سابقا. ولعله بسبب بعض التطورات في بلاد بابل التي جعلت من الضروري عودة القوات الآشورية إلى الوطن، أن سنحاريب لم يلح في حصار القدس وسلمت مدينة حزقيا بعد أن أعلن خضوعه ودفع تعويضا باهظا.

أما في بلاد بابل، فما لبث أن انسحب الجيش الآشوري الرئيس حتى عاد مردوخ ـ ابلا ـ ادينا إلى قبيلته وبدأ تآمره بالاشتراك مع عيلام والقبائل الكلدانية والآرامية. ونظرا لعدم وجود قوات عسكرية كافية تحت سيطرة بيل ـ ابني، فلم يكن مقدروه أن يحافظ على حكم البلاد بصورة فعالة وفي عام ٧٠٠ق م كان لزاما على الجيش الآشوري أن يقوم بغزوة إلى منقطة الكلدانيين وبحملة تأديبية على الحدود العيلامية. وقد أزيح بيل ـ ابني وعين آشور ـ نادن ـ شم Ashur-Nadin-Shum الابن الأصغر لسنحاريب بدلا منه.

حكم آشور ـ نادن ـ شم في بلاد بابل لمدة ست سنوات مات مردوخ ـ ابلا ـ ادينا بعد اعتلائه العرش بفترة قصيرة، غير أن عيلام ظلت تهديدا مستمرا لهدوء بلاد البحر. وقامت باحتضان الفروع غير الموالية من قبيلة بيت ـ ياكيني. وللقضاء على هذا الخطر المزعج، قررت السلطات الآشورية أخيرا أن تقوم بهجوم بحري مباشر على المنطقة العيلامية المعنية. وحيث أن سنحاريب كان قد اسكن أصحاب الحرف السوريين في نينوى، فقد أمرهم ببناء أسطول من السفن أبحرت جنوبا في دجلة بإشراف ملاحين من صور وقبرص، ثم تحولت بواسطة قنال إلى نهر الفرات وجيء بها على طول نهر الفرات إلى رأس الخليج العربي. ونقلت بواسطتها القوات وأخذت إلى الساحل العيلامي وأمكن ضمان راس جسر على الرغم من كثافة الكلدانيين والعيلاميين المنتظرين. ومن هناك قامت القوات بهجومها ودمرت ونهبت المدن العيلامية في الأطراف وأسرت ما تبقى من قبيلة بيت ـ ياكيني المشاكسة.

غير أن ادعاء سنحاريب في حولياته بأنه "قد صب الرعب على بلاد عيلام الواسعة" في غزوته لا تؤيده الأحداث حيث كان رد فعل عيلام قويا. فبينما كانت قوات سنحاريب في الجنوب، قامت عيلام بهجوم على وسط بلاد بابل عبر دجلة حيث أسر الملك البابلي اشور ـ نادن ـ شم في مدينة سبار ونصب بدلا عنه أحد البابليين المدعو نركال ـ أوشيزب Ner-gal-Ushezib على بلاد بابل. وفي منتصف عام ٦٩٣ق م عادت القوات الآشورية بحذر من الجنوب واصطدمت بنركال ـ أوشيزب في مدينة نيبور ودحرته. غير أنه ليس هناك ذكر في الحوليات لأية محاولة ضد مدينة بابل حيث قام مشيزوب ـ مردوخ -Mushezib

Mardukمن رؤساء الكلدانيين الآخرين بتنصيب نفسه ملكا على بلاد بابل بمساعدة الآراميين. وكانت القوات الآشورية دون شك بحاجة إلى العودة إلى القاعدة التجهيز وذلك بعد أكثر من فصلين من السنة عسكرت فيهما في "بلاد البحر"، ولم يشن اي هجوم مباشر على مدينة بابل. وبدلا من ذلك واعترافا بأن عيلام كانت تؤلف العامل الفعال في السياسة البابلية، فقد اتخذ سنحاريب الخطوات اللازمة لتحديد هذا الخطر. وفي عام ٦٩٢ق م قام هجوم آشوري ضد عيلام من منطقة الدير، التي ألحق بها حينئذ بعض الحدود العيلامية المفتوحة. وقد حالت الظروف المناخية دون محاولة التغلغل إلى بلاد عيلام نفسها. وفي بابل أعلن ميشزوب ـ مردوخ مقاومته ورفض الاعتراف بسلطة الحاكم الآشوري وأثار تمردا تمكنت السلطات الآشورية المحلية من القضاء عليه. وهرب غلى عيلام ثم عاد بجيش وأعلن نفسه ملكا على بابل واتبع سياسة مردوخ ـ ابلا ـ ادينا، فارسل رشوة كبيرة إلى عيلام من كنوز المعابد طالبا المساعدة العسكرية. وكانت المساعدات آتية. فقد حشد الملك العيلامي جيشا كبيرا في بلاده ومن التابعين غير الموالين الذين كانوا موالين لآشور سابقا. واجتمعت القوات مع الجيش الكلداني. وزحفت نحو الشمال غلى مقاطعة أرابخا حيث التقت بالجيش الآشوري في خالولي Halule على نهر ديالي. وتزودنا حوليات سنحاريب صورة مجسمة للمذبحة التي تلت ذلك. فكانت الخيل الأشورية تخوض بالدماء وتكدست في السهل أشلاء الجثث المذبوحة التي قطعت إلى قطع رغبة في الحصول على المحابس والاساور أو لمجرد التعطش لسفك الدماء. والخيل الخائفة تسحل عربات الموتى، بهذا الأسلوب تصف الحوليات المذبحة.

ومع أن الجيش الآشوري قد ادعى الانتصار، فقد تكبد خسائر كبيرة إلى درجة لم يتمكن معها الاستفادة من ذلك الانتصار خلال السنة التالية. وفي عام ٦٨٩ق م حدثت تغيرات داخلية في عيلام شغلت العائلة المالكة تماما. فكان بإمكان الآشوريين بعد أن عوضوا خسائرهم في معركة خالولي أن يتوجهوا إلى مشيزب ـ مردوخ. فانسحب القوات الكلدانية إلى بابل حيث قاومت الحصار لمدة تسعة أشهر وأخيرا استسلمت للمجاعة والوباء. ودخل الجيش الآشوري المدينة وخلافا للسياسة القديمة، نهبت وسلبت المدينة وأخذ الإله مردوخ، أي تمثاله، أسيرا إلى آشور وأعلن سنحاريب نفسه ملكا على بلاد

سومر واكد (أي على جنوب وشمال بلاد بابل). ولم تحدث اضطرابات أخرى في بلاد بابل لمدة ثمانية سنوات.

ولم يكن لسنحاريب مشاكل مع اورارتو على طول الحدود الشمالية نتيجة لنشاطات والده ولممارسته الشخصية الفعلية في المنطقة وللضربة التي تلقتها أورارتو من الكمريين. وربما كانت الاضطرابات التي حدثت في غقليم قو Qu في الشمال الغربي عام ٦٩٦ق م نتيجة وجود بعض الجيوب الكمرية الباقية بعد أن دحر سرجون حشودهم الرئيسة. أما بالنسبة للحدود الشرقية فقد قام سنحاريب بعد أن جهز حملة ضد مردوخ ـ ابلا ـ ادينا عام ٧٠٣ ق م، بإلحاق عدد من المناطق التي كانت مستقلة أو أنها كانت تدين بالتبعية بالبلاد وقام بتحصين بعض المدن في المنطقة ضد الهجوم العيلامي.

وقد اشتهر سنحاريب في الشئون الداخلية بنشاطاته العمرانية واهتمامه ببعض المشاكل الفنية. فهو الذي أعاد بناء نينوى وفتح فيها شوارع جديدة ووسع الساحات وحول مجاري المياه وشيد سدادا حجرية ضخمة لحماية قصره من الفيضان. وأقام حول القصر حديقة واسعة شبيهة "بجبل الأمانوس" حيث زرع فيها جميع أنواع النباتات وأشجار الفواكه كالتي تنمو في الجبال وفي بلاد الكلدانيين. وخلف هذه الحدائق النباتية تقع البساتين. ولإرواء هذه الأرض الخضراء حفرا قنالا طوله ستة أميال ثم وسع سنحاريب بعد ذلك حدائق النباتات وضم إليها جميع نباتات بلاد سوريا ونباتات المر التي كانت أضخم مما في بيئتها المحلية وجميع أنواع الكروم الجبلية، ثم وسع مشروع تجهيز المياه فأقام مستنقعا اصطناعيا واسعا بواسطة السداد وملأه بالطيور المائية والخنازير البرية والأيل لتكون حيواناته مشابهة للحيوانات والنباتات الطبيعية في جنوب بلاد بابل. وما تزال هناك أجزاء كبيرة من بقايا أحد أعمال سنحاريب الهندسية وهي قناة لحمل المياه من حوض واد. وكان طول هذه القناة أكثر من ثلاثمائة ياردة وعرضها أربع وعشرون ياردة وتحتوي على نصف ميلون طن من الصخر حول وصف القناة بالتفصيل ويصف سنحاريب أعماله في نصوص القناة قائلا (لقد حفرت قنالا إلى مروج نينوى وأقمت جسرا من الصخر عبر الوادي العميق وتركت تلك المياه تعبر فوقه). وهناك مشروع آخر معروف لتجهيز مدينة أربائيلو (أربيل) بالمياه أقامه سنحاريب. ويظهر اهتمام سنحاريب بالقضايا الفنية بادعائه أنه ابتدع

أسلوبا فنيا جديدا لصب البرونز "أنا سنحاريب، بالذكاء الحاد الذي منحني إياه الإله أيا وبتجاربي الخاصة تمكنت من صب الأسود البرونزية الضخمة ذات الأرجل المفتوحة عند الركب والتي لم يسبق لملك قبلي أن قام بها.... وبنيت قالبا ضخما من الطين لاثني عشر أسدا ضخما مع اثني عشر ثورا ضخما فوق دعامات ضخمة. وجذوع النخيل... وصببت البرونز فيها كما تصب قطع نصف الشاقل". والغشارة هنا إلى عملية... للأشياء الضخمة جدا. وكانت العملية نفسها مستخدمة منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد.

وفي عام ٦٨١ق م لقي سنحاريب حتفه بأسلوب كان شائعا بين الملوك الشرقيين، حيث اغتيل في بابل من قبل أولاده واستنادا إلى ما جاء في العهد القديم (سفر الملوك الثاني، الإصحاح ١٦: ٣٦-٣٧) فقد حدث ذلك بعد عودته من حملة أخرى إلى فلسطين بفترة قصيرة غير أنه ليس هناك أي تثبيت لمثل هذه الحملة في المصادر الآشورية. وكان أسرحدون الوريث الشرعي الذي كان سنحاريب قد رشحه ووافقت عليه الآلهة رسميا وقبله نبلاء آشور. وكان لهذا الأمير خبرة طويلة عند وفاة أبيه حيث كان ينحاريب قد عهد إليه السلطة العليا في بلاد بابل بعد فتح بابل عام ٦٨٩ق م وقد أهلته هذه الخبرة لأن يكون بديلا جيدا ولم يتأخر أسرحدون سوى الفترة اللازمة للتأكد من تأييد الآلهة له فتحرك بخفة من الاتجاه الغربي ضد قتلة أبيه دون الانتظار للمرور بالأسلوب الاعتيادي في إعداد وتجهيز جيشه لحملة طويلة ويتفق الاتجاه الذي سلكه أسرحدون مع ما جاء في العهد القديم حول الفعاليات العسكرية الآشورية في الغرب قبل وفاة سنحاريب بفترة قصيرة (ولو أنه لا يثبتها). وقد استعد الجيش الآشوري الرئيس لمقاومة اسرحدون في منطقة نصيبين ولكن عند تقدم أسرحدون حدث شقاق بين قواته وأعلن قسم منهم انضمامه لأسرحدون بعد أن علموا بمعجزة للآلهة عشتار إلى جانب هذا الأمير. وقد هرب القتلة إلى أرمينيا (أورارتو) وحصل أسرحدون على قبول جميع سكان آشور بعد أن أيدته جميع قوات الجيش. وبعد أن ثبت أسرحدون نسفه قام بتطير الجيش ولقي المتورطون في التمرد نهايتهم الاعتادية.

وأعطت فترة عدم الاستقرار التي تلت اعتلاء العرش الفرصة إلى رئيس قبيلة بيت - ياكني في بلاد بابل لأن يفرض استقلاله بهجوم على الحاكم الآشوري وحاصره في المدينة التي كان يدير فيها جنوب بلاد بابل. وما أن استقرت الأمور في بلاد آشور حتى أصدر

أسرحدون أوامره بالهجوم على المتمردين في المقاطعات الآشورية شرقي دجلة. وهرب زعيم المتمردين إلى عيلام حليفة بيت ـ ياكيني القديمة غير أنه وجد بأن تغيرا في السياسة الخارجية قد رافق تغير الملك الحاكم في تلك البلاد فقتل الزعيم الهارب فورا في عيلام، وقدم أخو الزعيم السابق الخضوع والولاء لأسرحدون فعين أميرا تابعا على جميع بلاد البحر. وبعد سنتين، عين أمير آخر تابعا ومواليا للآشوريين بدلا من الرئيس الكلداني المهم الآخر أمير قبيلة بيت ـ دكوري التي كانت تحتل منطقة على الفرات حتى بورسيا وكانت قد تجاوزت على المناطق التابعة لسكان بورسيا وبابل.

وفي هذه الأثناء واجهة أسرحدون مشاكل في الغرب والشمال الغربي. فقد كانت تجابه معظم مناطق أورارتو أقوام من أجناس جديدة. وكانت هذه الأقوام الجديدة هم السكيثيون المعروفون في المصادر المسمارية باسم اشكوزايا Ashguzaya وفي العهد القديم (سفر أرميا الإصحاح ٥١: ٢٧) باسم اشكيناز Ashkenaz (والأخير يمثل الحروف العبرية Sknz وهو خطأ مطبعي قديم للحروف SKNZ التي يجب أن تلفظ Ashkuz) وهناك بعض الأدلة تشير إلى أن أسرحدون قد أقام زواجا سياسيا مع أحد الأمراء السكيثيين. وربما عادت بالظهور بعض الجماعات الكمرية في منطقة تابال Tabal ومقاطعة هلاكو Hillakku بتأثير ضغط هؤلاء السكيثيين. وفي عام ٦٧٩ق.م قام الحكام الآشوريون بعمليات ناجحة ضدهم غير أن ضغوطهم زادت وفي عام ٦٧٣ق ز كانوا يهددون مقاطعة شبريا Shupria وفي نهاية حكم أسرحدون فقدت مقاطعتي هيلاكو وتابال بالتأكيد.

الاضطرابات والتحالفات

وكانت الاضطرابات في الغرب مركزة في مدينة صيدا التي ثار ملكها بالتحالف مع ساندواري Sanduarri حاكم عدد من المدن على خليج أنطاكية.. وقد أسر أسرحدون كلا الملكين وقتلهما وسلب صيدا وانشأ في مكان جديد بالقرب من الموقع حصنا آشوريا. ولكي يكون ذلك درسا ماديا لمن ينوقع تمردهم فقد افتتح الحصن رسميا بحضور اثنين وعشرين ملكا من ملوك البلدان الغربية. ولكي يضمن السلام من جهة الصحراء في المقاطعات الغربية حيث كان ملك العرب قد توفي آنذاك وربما يهدف إقامة علاقات صداقة

مع القبائل في صحراء سيناء على الطريق إلى مصر فقد قام أسرحدون في السنة التالية بإرسال قوة لتثبيت تنصيب المرشح الآشوري على العرش مقابل تقديم ضريبة كبيرة. أما في بلاد بابل، فقد كان من نتائج معرفة أسرحدون الشخصية بالوضع وسياسة الترضية التي اتبعها أن أصبح الوضع مناسبا لآشور. وربما كان قد بوشر بإعادة بناء بابل بعد أن دمرت من قبل سنحاريب وذلك منذ نهاية عهد سنحاريب وقام أسرحدون بأعمال ترميم كبيرة أخرى. ويوضح أحد النصوص الذي يصف الترميم كيف يمكن الالتفاف على الأوامر المقدسة فعندما دمر سنحاريب بابل كتب عليها الإله مردوخ، وطبعا كان ذلك من خلال أحد الكهنة بعد طقوس دينية معينة، بأنها ستبقى "سبعين سنة" كقياس لفترة هجر المدن ويزعم النص أن الإله، بعد أن تغلب على غضبه، قلب الرقيم راسا على عقب وأمر بترميم المدينة في السنة الحادية عشرة. والمعنى واضح جدا بالنسبة للنظام الستيني البابلي حيث كانت العلامة I

(بالمسمارية) تمثل الرقم واحد وستين. لذا كان ما يقابل الرقم IX يعني)سبعون) وإذا ما قلبت الكتابة وأصبحت XI قرأت أحد عشر.

وقد ساهمت الإدارة الكفوءة في بلاد بابل في رفاهية المواطنين وأعيدت أملاك المبعدين بعد الاضطراب الذي حل في عهد الكلدانيين فيما إذا تمكنوا من إثبات ادعاءاتهم. وكان الموقف الآشوري في بابل مضمونا إلى درجة أنه كان بالإمكان استخدامها قاعدة عسكرية لحملة بعيدة إلى نهاية صحراء الملح في إيران عام ٦٧٦ق م. حيث أمكن جعل عدد من الملوك المحليين تابعين لآشور ولم تلق الغزوة العيلامية على مركز بلاد بابل في السنة التالية أي صدى للقيام بالتمرد وكانت أهميتها مؤقتة.

وفي الشمال الشرقي يبدو أن النفوذ الآشوري على المانيين Mannaeansجنوب بحيرة أورميا كان قد ضعف نتيجة تغلغل السكيثين والعناصر الكمرية في المنطقة ومن المؤكد أن عددا معينا من القلاع الآشورية كانت قد فقدت. وأن فقدان مصدر تجهيز الخيل من هذه المنقطة التي اعتمد عليها الجيش الآشوري بشكل كبير قد يفسر أسباب توغل الآشوريين في منطقة لم يسبق لهم التوغل فيها في إيران كما يفسر تزايد الاهتمام بميديا حيث قدم

أسرحدون المساعدات لعدد من الشيوخ هناك ضد حركات التمرد. وقد تم العثور مؤخرا على كسر لأكبر رقيم طيني مكتشف حتى الآن (قياسه ١٢ انج _ ١٨ انج) نشر مؤخرا يذكر سلسلة من المعاهدات (الخاصة بالأمراء الميديين فقط في النص المعروف في الوقت الحاضر ولكن من المحتمل أنها عقدت مع جميع أمراء الإمبراطورية التابعين) هو لتنظيم ولاية العهد بعد أسرحدون. ولعل ذكرى أحداث اعتلاء العرض قد دفعت أسرحدون لاتخاذه هذا الإجراء.

كان لأسرحدون ستة أبناء، توفي الابن البكر منهم في سن مبكرة، ويبدو أن اثنين من بين الأبناء الباقين كان لهما الحق بولاية العهد وهما شمش ـ شم ـ أوكن واشور ـ بان ـ ابلي (آشور بانيبال) وليس واضحا من منهما كان الأكبر كما لا يمكن الجزم بأنهما لم يكونا توأمين. وفي عام ٦٧٢ق م أعلن أسرحدون في اجتماع كبير في نينوى بعد أن كان قد حصل على موافقة الآلهة وموافقة مجلس العائلة، عن تعيينه آشور نانيبال وليا للعهد على بلاد آشور وشمش ـ شم ـ أوكن وليا للعهد على بلاد بابل. وطلب إلى حكام المقاطعات والحكام التابعين أن يقسموا اليمين بالاعتراف بهذا الترتيب. وصدق الاعتراف بالنسبة للتابعين على الأقل، بمعاهدة تذكرهم بأنه:

"عندما يموت أسرحدون، ملك بلاد آشور، تجلسون آشور نانيبال ولي العهد على العرش الملكي. وسيمارس الملكية والسيادة عليكم. وستقدمون له الحماية في الريف والمدينة وتقاتلون من أجله حتى الموت.. ولا تكونوا أعداء له ولا تنصبوا أيا من إخوته الأكبر أو الأصغر مكانه.... وإذا مات أسرحدون، ملك بلاد آشور، وأولاده قاصرون، فساعدوا آشور بانيبال، ولي العهد، على أخذ العرش وساعدوا في تنصيب أخاه السماو له شمش ـ شم ـ أوكن، ولي العهد على بلاد بابل، على عرش بابل."

وقد أعلنت تفاصيل ولاية العهد في فترة هدوء قصيرة في الإمبراطورية قبل أن يباشر أسرحدون بسياسة جديدة ذات تطويرات بعيدة المدى في سياسة الإمبراطورية. ففي عام ٦٧٥ق م دفع تارقو Tarqu من السلالة الأثيوبية الذي كان يحكم في مصر (ترهاقة، ملك أثيوبيا في سفر الملوك الثاني الإصحاح: ١٩ : ٩) ملك صور إلى مؤامرة ضد بلاد آشور

وعبر أسرحدون الحدود المصرية بعد أن قرر ضرب الاضطرابات على الرغم من أن تقدمه قد أوقف بسبب العواصف الرملية. وفي عام ٦٧١ق م بدأ الغزو المنظم لمصر وهزم جيش تارقو في المعركة وحوصرت مدينة منفيس وفتحت وهرب تارقو نفسه إلى طيبة أو مكان آخر إلى الجنوب من ذلك. فسارع أمراء مصر السفلى بما فيهم أبرزهم نيخو في سايس للاعتراف بسلطان أسرحدون. وعين الموظفون الآشوريون الممثلون لمصالح أسرحدون في مناطق حكم الحكام المحليين وأعلن اسرحدون نفسه ملكا على مصر العليا والسفلى وأثيوبيا، وهو ادعاء تجاوز الحقيقة. وقد تكررت هذه الأكذوبة في منحوتة وضعت في سنجلرلي اثناء عودة اسرحدون إلى بلاد آشور، وتمثل هذه المنحوتة الفاتح الآشوري ماسكا بيده حبلا اخترق شفاه شخصين راكعين أحدهما يمثل ملك صور في حين يظهر الآخر بوضوح بأنه زنجي ويمثل تارقو وفي الواقع أن تارقو كان لا يزال حرا وفي موقف مكنه من ممارسة تأثير كبير. فما أن ابتعد الجيش الآشوري الرئيس إلا وعاد تارقو واقنع بعض أمراء مصر السفلى لرفض السيادة الجديدة واستعاد منفس. فقام اسرحدون عام ٦٦٩ق م بالزحف نحو مصر لمعالجة الموقف غير أنه توفي في الطريق.

وعند وفاة أسرحدون، طبقت الخطط الدقيقة التي رسمت لولاية العهد بهدوء واعتلى كل من الأخوين عرشهما. ولم تكن هناك ثمة دلائل تشير بأن نهاية حكم آشوربانيبال سيشهد دخول الإمبراطورية في كارثة. حيث كانت الإمبراطورية آنذاك في أوسع حدودها الجغرافية، ومع ذلك فهناك بعض العوامل المعينة في هذه الفترة يمكن أن تفسر الانهيار الفجائي. ويأتي في المقدمة من حيث الأهمية، الموقف على طول الحدود الشرقية. فقد انهار هنا الأمن والنظام الذي ثبته تجلاتبليزر الثالث وسرجون الثاني وحافظ عليه سنحاريب إلى درجة كبيرة. وبسبب حشود الكمريين والسكيثيين البربرية التي كانت تطوف في آسيا الصغرى ومناطق أورارتو، فلابد أن التجارة مع الأقاليم الشمالية قد وصلت إلى حد التوقف، وانقطع أحد مصادر الحديد الرئيسة. كما أن القبائل الميدية القوية عدديا التي وصفت بصورة عامة في حوليات تجلاتبليزر الثالث وسرجون الثاني بـ: "الميديين الأقوياء" أو "الميديين المنتشرين" اعترافا بانتشارهم في مناطق جغرافية واسعة. كانت قد استقرت آنئذ واتحدت في وحدات قوية إلى أن أصبحت في النهاية مملكة قادرة على مواجهة قوة

الآشوريين العسكرية مواجهة الند للند. وأن اتحادها لابد وأن انتزع من آشور أحد المصادر المهمة الأخرى للمعادن والخيل وقطع الطرق التجارية التي كانت تجلب التوابل والأحجار الكريمة من الهند. أما بلاد بابل فمع أنها كانت، قد هدأت آنذاك تحت إدارة اعتمدت نظام دويلات المدن القديم في الشمال، فقد حوت على عناصر جديدة قوية هي القبائل الكلدانية. وقد سيطرت هذه القبائل سواء بصورة مستقلة أو تحت النفوذ الآشوري، على معظم جنوبي بلاد بابل إضافة إلى أجزاء مهمة في الشمال وكانت قد تعلمت خلال أحداث التمردات المتكررة منذ عهد أوكن ـ زير معظم فنون الحرب من الآشوريين وفنون السلم من البابليين المحليين.

آشور بانيبال وبداية حكمه

وكان على آشور بانيبال في بداية حكمه أن ينفذ الترتيبات التي وضعت للهجوم المخطط على تارقو غير أنه كان من نتيجة انشغال آشور بانيبال بأمور أخرى، كإقرار المعاهدة التي خضع بموجبها ملك صور له وتنصيب شمش ـ شم ـ أوكن ملكا على بلاد بابل وكذلك قيامه بحملة سريعة على منطقة الكاشيين، أن بقي تارقو يحكم في مصر لمدة ثلاث سنوات بأمان. وفي عام ٦٦٧ق م، زحف جيش آشوري قوي يشمل فرقا من سوريا وفنيقيا وفلسطين وقبرص إلى مصر. وهزم تارقو وانسحب إلى طيبة ووقعت منفس ثانية بأيدي الآشوريين. وحدثت محاولة تمرد موالية لتارقو من قبل الأمراء المحليين بقيادة نيخو غير أن القوات الآشورية أوقفت قادة التمرد وقضت على المؤامرة. ونظرا لضرورة الاعتماد على بعض الأمراء المحليين المقبولين لإدارة قطر كمصر بنظام بيروقراطي مهيب وقدير، فقد استغل الامراء المأسورون بحكمة فبعد أن أخذوا إلى نينوى وحملوا بالهدايا والإحسان، ولابد أنهم ربطوا بعلاقات تحالف ايضا، أعيدو إلى مناصبهم.

وقامت السلالة الجنوبية بمحاولة أخرى لاستعادة مصر السفلى وذلك عند وفاة تارقو عام ٦٦٤ق م. فقد زحف ابن أخيه تانواتاموم Tanuatamum باتجاه النيل حتى منفيس حيث صد هجوم أمراء الدلتا الموالين لآشور الذين جاءوا لمقاومته. وكانت استجابة آشور بانيبال لذلك فورية، فدخل الجيش الآشوري مصر ثانية وذلك عام ٦٦٣ق م وقدم أمراء

الدلتا الموالون الخضوع على حين سارع تانواتاموم، كما فعل عمه من قبل، إلى الهرب وتقدم الجيش الإمبراطوري نحو الجنوب حتى وصل هذه المرة إلى العاصمة القديمة طيبة التي أخذت ونهبت. وقد تركت هذه الحادثة اثرا قويا في أقاليم البحر المتوسط وأشار النبي ناحوم بعد نصف قرن إلى مصير المدينة تحت الاسم العبري للمدينة نو امون Nu-Amon:

"هل أنت أفضل من نو آمون الجالسة بين الأنهار حولها المياه التي هي حصن البحر ومن البحر سورها. كوش قوتها مع مصر وليست نهاية. فوطء ولوبيم كانوا معونتك هي أيضا قد مضت إلى المنفى بالسبي وأطفالها حطمت في رأس جميع الأزقة وعلى اشرافها القوا قرعة وجميع عظمائها تقييدوا بالقيود.

(سفر ناحوم، الإصحاح الثالث: ٨-١٠)

وأثناء فترة فتح مصر هذه يبدو أن آشور كانت تقوم بعمليات عسكرية صغيرة في الشمال الغربي. فالكمريون الذين صرفهم سرجون عن سوريا كانوا أنفسهم تحت ضغوط كلا من السكيثين من الشرق والغزاة الهندو ـ أوربيين من ثريس Thrace وكانوا قد غزوا منطقة مشكو (أي Phrygia) وبدأوا يضغطون على مملكة ليديا. وربما سارع حكام تابال Tabal وهيلاكو Hillakku الذين لم تعد مناطقهم مقاطعات آشورية في عهد أسرحدون لوضع أنفسهم تحت حماية آشور بانيبال نتيجة للضغوط المتجددة نفسها. وأرسل كاجس Gyges ملك ليديا السفراء إلى آشور بانيبال، تنفيذا لنصيحة إلهه الذي جاءه في الحلم طالبا الصداقة والمساعدة العسكرية ضد الكمريين. ويبدو أن ذلك كان وشيكا، حيث تمكن كاجس من إنزال الهزيمة بالكمريين وأرسل بعد الحملة بعض الغنائم إلى نينوى (حوالي عام ٦٦٣ق م). ومع ذلك فإن مصالح كل من ليديا ومصر التجارية المتشابهة، وكلاهما من القوى البحرية على البحر المتوسط، قد دفعت كاجس إلى إسناد بسماتيك Psammeti-chus ابن نيخو طرده للحاميات الآشورية في الخمسينات من القرن السابع قبل الميلاد. ونتيجة لذلك، لم يعد الدعم الآشوري لكاجس قادما إلى آسيا الصغرى. وفي عام ٦٥٢ق م (أو قبل ذلك بقليل كما يرى البعض) وقع كاجس تحت هجوم كمري جديد غير أن محاولتهم غزو شمال سوريا صدت من قبل القوات الآشورية في منطقة كيليكيا.

وقد شهد عام سلب مدينة طيبة (٦٦٣ق م) وفاة نيخو، فعين الآشوريون بدلا عنه كأمير على سايس ابنه بسماتيك وتمكن بسماتيك بالتدريج من أن يحصل، وبدون شك نتيجة لمعاونة آشور، على مركز ارتفع إلى حد السيادة على أمراء الدلتا الآخرين خلافا، كما يذكر هيرودوتس، للاتفاقية القديمة. واستنادا إلى هيرودتوتس فقد ظهرت معجزة تنبئ بوقوع الانتقام على بسماتيك على شكل رجال سن البرونز يخرجون من البحر. ويفسر هيرودوتس ذلك بأنه إشارة إلى قراصنة من بلاد الإغريق وآسيا الصغرى ينزلون على شواطئ مصر ويصف كيف أن بسماتيك أقام علاقة صداقة مع الغزاة من أجل غاياته الخاصة. وفي الحقيقة فإن رجال البرونز كانوا من المرتزقة من الأراضي الساحلية على طول ساحل البحر المتوسط الشمالي ولاسيما من ليديا. وتمكن بسماتيك بمساعدتهم من طرد الحاميات العسكرية الآشورية في مصر بين عامي ٦٥٨ و ٦٥١ق م).

ونظرا للنفور الآشوري من تسجيل الهزائم التي لم ينتقم لها، فليس غريبا أن لا تذكر حوليات آشور بانيبال تفاصيل الانسحاب الاضطراري من مصر. ومن المؤكد أن آشور لم تتمكن من القيام برد فعل فوري كان متوقعا في العادة بسبب الأحداث في بلاد بابل.

وظهر التوتر ثانية في بلاد بابل وكان قد هدأ في عهد أسرحدون وذلك تحت حكم شمش ـ شم ـ أوكن. وبالعكس فقد زاد التوتر نتيجة الإجراءات التي اتخذها أسرحدون للتقليل منه. فقد كانت بلاد بابل تحت ملكية شمشم ـ شم ـ أوكن غير أن معظم الحكام الآشوريين كانوا مسئولين أمام أخيه آشور بانيبال، ملك بلاد آشور وتزودنا المراسلات الملكية بكثير من الأمثلة على حقيقة أن الحكام الآشوريين وغيرهم من الموظفين كانوا يرفضون الأوامر إلا ما جاء منها من خلال التسلسل الصحيح وأنها كانت في النهاية صادرة عن ملك بلاد آشور. لذا فهناك تقرير من عهد أسرحدون أن هناك شخصا معينا في بابل قد قبض على عدد من الهاربين ويرفض تسليمهم بدون حضور ممثل الملك الشخصي أو رسالة تحمل الختم الملكي. وقد أعطت وجهة النظر هذه فرصا كثيرة للخلاف في الحالات التي لا يعترف فيها الموظف الآشوري، الذي لم يستلم التعليمات من آشور بانيبال، أو أنه يعمل على عدم إطاعة الأوامر التي يصدرها شمش ـ شم ـ أوكن. وهناك رسالة يذكر فيها شمش ـ شم ـ أوكن غلى أخيه أنه اضطر إلى إبطال أوامره الخاصة. ومع

ذلك، فقد عملت الازدواجية لمدة اثني عشـر سنة على الأقل تمكن من خلالها آشور بانيبال من أن يقضـي على العدو المتـوقع الرئيس والحقـيقي لبلاد بابـل وهو عيلام. وكـانت مملكة عيلام القـديمة آنذاك تنهار بسرعة تحت ضغـط الأقوام الإيرانية الوافدة حديثـا فالأقوام التي عرفت فيما بعد بالفرس كانت قد استـقرت في الشمال الشرقي من المملكة وكانت مستقلة فعليا، بينما اعتبـر بعض حكام المقاطعات الشرقية أنفسهم مستـقلين استقلالا ذاتيا. وكانت الملكية مـضطربة وخاضعـة للتغيـر الفجائي كـما كانت عليـه بلاد بابل منذ عام ٧٣٤ق م. ولكن ليس واضحا أكان ذلك من الأعراض أم من الأسباب التي عملت على الانهيار.

وبعد مناوشـات طفيفـة، اندلعت الحرب بين عيـلام وآشور. واجتاح الآشـوريون البلاد عام ٦٥٥ق م وأخذوا العـاصمتين التوأمين مـداكتو Madaktu وسوا Susa ونصبوا أحد الموالين للآشوريين من العائلة المالكة ملكا. وبدأ حكام آشور بانيبال وجـواسيسه يبعثون إليه بالتقاريـر الخطرة بأن شمش ـ شم ـ أوكن كان يتآمـر ضد بلاد آشور. وكان هذا التـغير في وجهة النظر ذا عـلاقة بالتغيير في عـيلام، فاطالما كان ذلك البلد تهديدا للأمن البـابلي، فقد كان هناك وحدة طاغية في المصالح بين إدارة آشور بانيبال وشمش ـ شم ـ أوكن. ويبدو أن هذا العامل قـد اختفى آنذاك. إضـافة إلى ذلك، يبدو أن آشـور بانيبـال قد ارتكب خطأ في اختـياره الأميـر للتعيين على العـرش العيلامي. وقـد كتب شمش ـ شم ـ أوكن إلى أخـيه حول هذا الأمر قائلا: "أتحدث عن نفـسي فإني أخاف من أمانيكاش Ummanigash ولي العهد.. أنه خطر". وقد ثبت أن تقويم شمش ـ شم ـ أوكن للرجل كـان صحيحا، فقد اتبع سيـاسة التحـالف القديمة مع القبـائل الكلدانية، وحيث أن الأقـوام القبلية كـان لها في هذا الوقت تأييـد كبيـر في بورسبـا وبابل، فقـد انجر شمـش ـ شم ـ أوكن نفسه غـلى المؤامرة. ورحب بالتـحالف بسمـاتيك في مصـر الذي كان مشـغولا بطرد الحـاميـات الآشورية من بلاده. كـما انضم العـرب في الصـحراء للحلف. وقـد بدأ الصـدام الفعلي عـام ٦٥٢ق م عندما قـام الجيش العـيلام بالتحـرك ضد شـمالي بلاد بابل في حين هاجم شـمشم ـ شم ـ أوكن المدن الآشـورية الكبيـرة التي تحمـيـها الحـاميـات الآشورية وهزم الجـيش العيـلامي وحدثت ثورة داخلية جاءت بتـغيير آخر للملك وشلت القوة العيلامـية لمدة سنة خلال فترة إعـادة النظام. وأخـذ الآشوريون المبـادرة وطهـروا جنوب بلاد بابل من القـوات الكلدانيـة

المنظمة ووضعوا بورسبا وبابل، اللتين كـانتا بيد شمش ـ شم ـ أوكن، تحت الحصار وبذلك قطعوا الاتصـال بين الطرفين الرئيسيين في الحلف. وفـي عام ٦٥٠ق م فشلت محـاولة قوة عربية لفك الحصـار عن بابل كما فشل هجوم مضلل على الحـدود الشرقية لفلسطين. وفي هذه الأثناء استمر الوضع في عيلام في التدهور وفي عام ٦٤٨ق م اندلعت الحرب الأهلية. وكان هناك ثلاثة أشخاص يطالبون بالعرش ويعـملون للحصول على الدعم الآشوري غير أن الحزب المنـاوئ للآشوريين تمكن من السـيطرة على الوضع وتعيين مـرشحـه. وكنتيـجة للشقاق الداخلي في عيلام، لم يقدم إلـى شمش ـ شم ـ أوكن الذي كان محاصرا في بابل ومدافعا عن تلك المدينة أية مساعدة عسكرية ذات قمة فاضطرته المجاعة إلى الاستسلام عام ٦٤٨ق م وكـانت الأوضـاع قد تردت إلى درجـة الرعب بين المدافـعين حـتى أكلوا لحـوم البشر، للتخلص من الإهانات التي ستوقع على جثـته، فقد رمي شمش ـ شم ـ أوكن نفسه في لهـيب نيران الحـرائق. ونهب قصـر الملك الميت وقـبض وقتل كل مـتمـرد باق وقطعت جـثـثهم "وأطـعمت بـها الكلاب والخـنازير والذئاب والنسـور وطيـور السـماء وأسـماء الأعماق" وشغل آشور بانيبال نفـسه عرش بابل لمدة سنة واحدة ولكنه حكم بابل في الفترة البـاقيـة من حكمه من خـلال ملك عرف باسم كـاندا لانو Kandalanu. وقد ثبـت عدم صحة الراي السابق القائل بأن اسم كانـدا لانو ما هو إلا الاسم الذي عرف به آشور بانيبال في بلاد بابل كما كان تجلانبليزر ـ الثالث قد عرف باسم بول Pul هناك.

وبدأت آشور تتدخل ثانية فـي مسألة اعتلاء العرش في عيـلام والزحف إلى سوسا عام ٦٤٨ق م ولكن لم يكن بالإمكان التوصل إلى حل دائم للبـلاد. وتمكن نابو ـ بيل ـ شماتي Nabu-bel-shumati حفيد مردوخ ـ ابلا ـ ادينا، من أن يستخدم عيلام قاعدة لنشاطات القبـائل الكلدانية ضد بلاد بابل. وزحف الجـيش الآشوري إلى بلاد عيلام وجـابها جميـعا بين عامي ٦٤٢ ة ٦٣٩ق م ودمـر جميع مدنهـا وفتح ونهب سوسا وحـمل آلهتها وجـميع أثاث معابدها إلى بلاد آشور، وانتهكت حرمة هياكلها وبعثرت قبور الملوك العيلاميين حتى تلحقـهم العقوبـة بعد الموت ولكي تقاسي أرواحـهم رعب عدم الراحـة والعطش من عدم وجود قرابين من الأطعـمة والأشربة المعتادة. وأخـذ عدد من كبير من كـبار موظفي الإدارة مع جـمـيع أفراد العـائلة المالكـة بجمـيع فـروعـها أسـرى إلى آشـور، على حين ادمـجت

الوحدات المقاتلة المتخصصة بالجيش الآشوري كما أخذ عدد كبير من عامة المواطنين إلى آشور مع أعداد كبيرة من قطعان الماشية والخيل. وأعيد ثانية تمثال الآلهة ننا آلهة الوركاء (يجب عدم الخلط بين ننا وننّا غله القمر في أور) الذي كان قد أخذ من قبل عيلام قبل أكثر من ألف وخمسمائة سنة، إلى مكانه الأصلي. ولابد أن ذلك كان ضمانا لآشور بانيبال لنيل تأييد إدارة معبد الوركاء القوية والتي أصبحت منذ ذلك الحين العاصمة الفعلية لإدارة جنوبي بلاد بابل.

وقد خلص ملك عيلام الحاكم أومانا لداش Ummanaldash نفسه من الأسر بالهرب إلى الجبال، وبانسحاب الآشوريين عاد إلى ماداكتو حيث كانت سوسا آنئذ مخربة ومهجورة وعبارة عن أكوام من الأنقاض ولم يعد في موقف يمكنه من حماية نابو ـ بيل ـ شماتي، الزعيم الكلداني. وعندما طلب آشوربانيبال استسلام ذلك الأمير، أي نابو ـ بيل ـ شماتي، أمر حامل درعه أن يقتله كما فعل الملك شاؤول (سفر صموئيل، الإصحاح ٣١: ٤-٥). وأرسل أوماندالداش الجثة محفوظة بالملح إلى آشور بانيبال الذي لم يتمكن من أن ينزل العقوبة على الرجل حيا فانتقم لنفسه من شبح الضحية وذلك بعدم دفن الجثة. ووقع أومانالداش نفسه أخيرا بأيدي الآشوريين وتبين القطع النحاسية المحفوظة في المتحف البريطاني الحاكم المأسور مرسلا بعربة إلى الملك آشور بانيبال.

ولم يؤلف العنصر الآخر في العصيان البابلي، وهم العرب، مشكلة كبيرة حيث تمكن الجيش الآشوري في سلسلة من العمليات وقعت بين عامي ٦٤١ و ٦٣٨ق م من دحر القبائل وأسر القادة الرؤساء ومن بينهم اثنين ربطا ليكونا مثلا في أحد مداخل نينوى الكبيرة.

ولا تستمر حوليات الملك آشور بانيبال الذي حكم إلى عام ٦٢٦ق م إلى ما بعد عام ٦٣٩ق م. أما بالنسبة للأحداث التي وقعت في السنوات الثلاث عشر الباقية فلابد من الاعتماد على الإشارات الواردة في مراسلات الدولة والوثائق الاقتصادية وعلى نصوص الصلوات وغيرها من النصوص ذات العلاقة الموجهة إلى الآلهة. وإحدى ترانيم التوبة من هذه الفترة تندب:

"في البلاد خلاف، وفي القصر نزاع، لا تترك جانبي، التمرد والتآمر الشرير يخطط ضدي دائما".

ومن المحتمل أن الإشارة هنا إلى الخلاف حول اعتلاء العرش إضافة إلى أمور أخرى. ومن المؤكد أنه كان هناك عند وفاة آشور بانيبال عام ٦٢٦ق م محاولة لاغتصاب العرش وكان على الخليفة المختار أن يقاتل ليعتلي العرش. وأن تسلسل الأحداث في الفترة بين وفاة آشور بانيبال وسقوط نينوى عام ٦١٢ق م تثير كثيرا من المشاكل الصعبة. وأن الموجز التالي يمكن أن يدعي فقط بأنه محاولة للوصول لأقل ما يمكن من التفسيرات غير المحتملة للأدلة المتناقضة.

ولقد زادت الأدلة وضوحا، وفي الوقت نفسه زادت تعقيدا، بالعثور على نص يعود إلى والدة آخر ملوك السلالة الكلدانية التي أسست في حران. فإن هذه السيدة الطيبة التي كانت كاهنة عليا في مدينة حران، وعاشت مائة وأربع سنوات، تذكر على وجه التخصيص بأنها عاشت:

"من السنة العشرين من حكم آشور بانيبال، ملك آشور - عندما ولدت - إلى السنة الثانية والأربعين من (حكم) آشور بانيبال، والسنة الثالثة من (حكم) ابنه آشور - اطلي - ايلي، والسنة الحادية والعشرين من (حكم) نبوبولاصر، والسنة الثالثة والأربعين من (حكم) نبوخذ نصر، والسنة الثانية من (حكم) اميل - مردوخ، والسنة الرابعة من (حكم) نرجال شاراوصر خلال خمس وتسعون عاما".

وحتى بداية حكم ابنها. وحيث أن ذلك يعطي تاريخ نهاية حكم آشور بانيبال في عام ٦٢٦ و٦٢٧ق م، وكما هو معروف من مصادر أخرى أن نبوبولاصر تسلم ملوكية بلاد بابل في كانون أول من عام ٦٢٦ق م فيبدو أن السنوات الثلاث التي أعطيت للملكية آشور - اطلي - ايلي في بلاد بابل تثير المشكلة. وإذا لم نعتبر هذا التناقض بأنه نتيجة هفوة بسيطة في الذاكرة من جهة شخص معمر فلابد وأنها تمثل فترة تداخل ادعى فيها كل من آشور - اطلي - ايلي ونبوبولاصر ملكية بلاد بابل. ومن المؤكد أن آشور - اطلي - ايلي مارس سيطرة كبيرة على بلاد بابل في بعض من حكمه القصير حيث يذكر احد النصوص أنه كان

بمقدوره ان يقدم الحماية على شيخ قبيلة بيت ـ داكوري الكلدانية. على حيث قام بترميم معبد في دلبات على بعد خمسة عشر ميلا جنوبي بابل. ومن المؤكد أيضا أن القائد الكلداني نبوبولاصر تولى ملكية بلاد بابل في أواخر عام ٦٢٦ق م وأن حقيقة سيطرته يستدل عليها من حقيقة تاريخ الوثائق الاقتصادية في بابل وأوروك وأور في عهده في هذا الوقت. ومن المحتمل أن تفسير المشكلة هو أن سيطرة الآشوريين على بعض أجزاء بلاد بابل لم تكن قد فقدت تماما عندما تولى نبوبولاصر الملوكية أول الأمر وأن حديث بيروسس (وهو كاهن بابلي من القرن الثالث قبل الميلاد كتب بالإغريقية التاريخ البابلي) يؤكد هذا بالتحدث عنبنو بولاصر باعتباره ثائرا ضد سن ـ شار ـ أوشكن وهذا يشير إلى أن آشور كانت ما تزال لديها بعض النفوذ على بلاد بابل عند اعتلاء الأخير على العرش. وحكم سن ـ شار ـ أوشكن، الذي يعتبر عادة خليفة آشور ـ اطلي ـ ايلي، سبع سنوات على الأقل كما يستدل على ذلك من تاريخ العقود. وتشير جداول الملوك المكتشفة حديثا إلى أن تداخل حكم آشور ـ اطلي ـ ايلي وسن ـ شار ـ أوشكن في بعض أجزائه يدل على أن كلا منهما قد حكم جزءا من الإمبراطورية التي كان يحكمها سابقا آشور بانيبال كوحدة واحدة. وهذا يدل أيضا على وجود توتر كان يقترب من الحرب الأهلية في داخل بلاد آشور نفسها وكان تحالف نبوبولاصر الذي قضى أخيرا على بلاد آشور في حكم سن ـ شار ـ أوشكن.

وكانت الأقوام التي عقد نبوبولاصر التحالف معها هي الأقوام الميدية. وقد ذكر الميديون في الحوليات الآشورية آخر مرة في حكم أسرحدون عندما كانوا مؤلفين من عدد من القبائل المتنقلة إلا أنها متعاونة. وربما بدأت هذه القبائل بالاتحاد مع بعضها مؤلفة مملكة واحدة بقيادة هناكشاترا Hunakshatra المعروف في النصوص البابلية باسم أوماكيشتا Ummakishta وعند هيرودتوتس باسم كي ـ اخسار Cyaxares وذلك في بداية حكم آشور بانيبال. ولا يعرف بالضبط التاريخ الذي جعل فيه جميع الشعب الميدي مستقلا تماما عن آشور غير أن القصة التي يرويها ديودورس سيكولونس (وهو صقلي معاصر ليوليوس قيصر كتب تاريخ العالم) أن نبوبولاصر Belesys شجع كي ـ اخسار على العدوان ضد آشور ووعده بالنجاح تشير إلى أنه لم يكن قبل وفاة آشور بانيبال. وعلى كل حال، فإن كلا

من المصادر المسمارية والإغريقية تتفق بأن نبوبولاصر وكي ـ اخسار قد قاما بعمليات عسكرية مشتركة بعد عام ٦٢١ق م بفترة قصيرة.

بلاد آشور بدون حلفاء نهائيا

ولم تكن بلاد آشور بدون حلفاء نهائيا. فكان المصريون، مع عدم اهتمامهم بالتوسع، مهتمين كثيرا لأي تطور قد يؤثر على تجارة البحر المتوسط أو أمن مصر وأنهم لم يكونوا بالتأكيد راغبين في أن يشاهدوا سوريا وشمال بلاد ما بين النهرين تحت إدارة جديدة تماما والتي ستمثلها السيطرة الميدية. إضافة غلى ذلك، فهناك خطر الحشود التي كانت تطوف في الشمال وهي الحشود الكمرية والسكيثية وقبائل رحل مختلفة أخرى من أصل هندو ـ أوربي، وكانت آشور بسمعتها العسكرية التي اكتسبتها خلال القرون تبدو بأنها الحصن الوحيد ضد هذا التيار من البربرية. وأن إشارة أرميا في عام ٦٢٦ق م بأنه رأى:

مرجل يغلي، وأن الوجه هناك من الشمال (ارميا، الإصحاح الأول -١٣) تؤخذ عادة للدلالة على توقع حدوث غزو من الرحل المرعبين في الشمال. وقد استخم مصطلح كيثين غالبا للدلالة على هؤلاء الأقوام غير أن الواقع أن العنصر السكيثي يؤلف جزءا منها فقط ويمكن الحكم من العلاقات الآشورية معهم أنهم كانوا الجزء الأكثر مسئولية.

وبين المقاطعات الآشورية والدول التابعة، من أبدت العداء للآشوريين، كمملكة يهوذا، وبعضها الآخر، لاسيما بعض الميديين قدم مساعدات إيجابية إلى اسيادهم. وحتى في بلاد بابل، فكما يمكن الحكم على ذلك من التاويم التي استخدمت سنى حكم سن ـ شار ـ أوشكن، كانت هناك بعض المدن التي ظلت موالية إلى بلاد آشور حتى سقوط نينوى الأخير كما يبدو ذلك واضحا بصورة خاصة في مدينة الوركاء حيث يعتقد أنه حدث هناك عصيان مؤيد للآشوريين في وقت متأخر حوالي عام ٦١٤ق م.

وليس هناك تفاصيل في المصادر المسمارية عن نشاطات نبوبولاصر في مراحلها الأولى ولكن من الواضح أنه أخرج الحاميات الآشوربة من بلاد بابل جميعها جنوبي الرقبة المشكلة عند أقرب نقطة من الفرات ودجلة وذلك عام ٦١٧ق م ثم تقدم نبوبولاصر إلى أعلى الفرات إلى المناطق الآرامية سوهو Suhu وهندانو Hindanu بين هيت ومصب

الخابور والتي كانت جزءا من الإمبراطورية الآشورية لأكثر من قرنين ونصف. وقد لاقى نبوبولاصر بعض النجاح المبدئي في هذه المنطقة حيث خضع الآراميون بسرعة وضربت الهجمات الآشورية المضادة وربما تضمنت الاستراتيجية الأصلية المرسومة إثارة عصيان عام في المقاطعات الغربية ليتفق ذلك مع الهجوم على نينوى من الشرق والغرب من قبل الميديين والكلدانيين. ومع هذا، فإن تقدم الجيش الآشوري والمصري الموحد اضطر نبوبولاصر إلى الانسحاب إلى بابل. وتقدمت القوات المصرية الآشورية الموحدة شرقا على مقاطعة أرابخا، ويجدر أن نتذكر أن هذه المقاطعة التي وضع أسسها أدد نراري الثاني ووسعها تجلاتبليزر الثالث واستخدمها هو وخلفاؤه باعتبارها أحسن الوسائل الناجحة للهجوم على مركز بلاد بابل دون الحاجة إلى المجازفة في عبور منطقة سهلة الدفاع كالتي عند الرقبة التي يشكلها اقتراب نهر الفرات من دجلة. وفي إحدى النقاط جنوبي الزاب الأسفل اعترضت القوات الآشورية وأجبرت على الانسحاب من قبل الجيش الذي جلبه نبوبولاصر هناك.

وأوشك الهجوم المقترح على آشور، العاصمة القديمة، في بداية السنة الثانية (٦١٥ق م) أن يجلب الكارثة على نبوبولاصر الذي اضطر للهرب واللجوء إلى قلعة المدينة التي كانت، ومازالت، تعرف بتكريت. ولم يرغب الآشوريون أن يضغطوا على خصومهم فانسحبوا ومن المحتمل أن جهاز استخباراتهم كانت لديه معلومات عن هجوم ميدي ابتدائي خطط في الواقع على مدينة غير محددة في مقاطعة أرابخا في نهاية السنة لغرض تأسيس قاعدة أمامية يمكن الهجوم منها على نينوى نفسها. وحدث الهجوم الميدي على مركز بلاد آشور عام ٦١٤ق م ومع أن نينوى كانت أقوى من أن ترضخ للاعتداء، إلا أن تربيص)شريخان الحالية شمال غربي نيوى) وآشور أخذتا ودمرتا نهائيا. ووصل نبوبولاصر على رأس جيشه إلى المدينة المقترحة واختتم عمل الميديين والكلدانيين المشترك بمعاهدة رسمية بين نبو بولاصر وكي اخسار وصدق عليها، استنادا إلى أخبار متأخرة، بزواج سياسي.

وبذهاب مقاطعة أربخا كموقع استراتيجي للآشوريين، حاولت القوة الإمبراطورية أن تقوم بهجوم مضاد على بلاد بابل باتجاه الفرات. فقد أعلنت حينئذ قبائل السوهو التي

كانت قد خضعت إلى نبوبولاصر عام ٦١٥ق م العصيان وبينما كان نبوبولاصر يقوم بعمليات لمحاصرة عانة، ظهر جيش آشوري وأجبره على الانسحاب ومن الغريب أن الميديين لم يكونوا فعالين عام ٦١٣ق م بعد نجاحهم الباهر ضد آشور في السنة السابقة إلى درجة أن آشور تمكنت من إرسال جيش إلى مكان بعيد من الوطن. وهناك من يرى أنه من المحتمل أن آشور كانت تتفاوض مع السكيثيين للقيام بهجوم على الميديين من الشمال. وكان السكيثيون، الذين لم تصطدم مصالحهم مباشرة مع مصالح الآشوريين، على علاقة صداقة تقليدية مع تلك القوة تعود إلى أول ظهورهم في الشمال في عهد أسرحدون. وكانوا يشكلون حليفا احتياطيا ذا قوة كبيرة.

وتشير الروايات الإغريقية المتأخرة أن الميديين كانوا في وقت من الأوقات مهددين بالخطر من قبل السكيثيين ولكنهم تمكنوا أخيرا من إقناع القادة بأهدافهم المشتركة. أما في المصادر البابلية، فلم يشر إلى القبائل الرحل في الشمال بالسكيثيين ولكن بالأمانماندا Um-manmanda، وهو مصطلح أثيرت حوله مناقشات عديدة ويبدو أنه كان يعني تقريبا ما يعنيه مصطلح (الحشود) Hordes. ومن المؤكد أن الأومانماندا ضموا بعض العناصر السكيثية وبعض العناصر العرقية الأخرى. ومن المحتمل أيضا أنه كان هناك بعض الشك حول الجانب الذي سيأخذه هذا الحلف من القبائل إلى ما بعد أن تمكن كي ـ اخسار من أن يلتقي ويتفوق على أكثر قادة هذا التحالف من القبائل تأثيرا. وفي عام ٦١٢ق م كون نبوبولاصر والأومانماندا وكي اخسار قوة مشتركة وزحفوا على نينوى. وسقطت المدينة بعد حصار دام ثلاثة أشهر ومات آخر ملوكها سن ـ شار ـ أوشكن، استنادا إلى المآثر الإغريقية، في لهيب تدميرها. ونهبت المدينة وسلبت واستبعد الباقون من سكانها. وتؤكد أخبار الكتاب الإغريق وكذلك سفر ناحوم (الإصحاح الأول ٨) أن فتح هذه المدينة المحصنة تحصينا قويا كان ممكنا بسبب فيضان نهر دجلة الذي اكتسح أجزاء من تحصيناتها.

ودمرت العاصمة، ولكن ظلت مملكة آشور قائمة اسميا حيث قام جزء من الجيش الآشوري الذي تمكن من الهرب من نينوى إلى حران، حوالي مائة ميل إلى الغرب، من تنصيب آشور ـ أوبالط أحد أفراد العائلة المالكة الصغار ملكا وطلب مساعدة حلفائه المصريين.

الإمبراطورية البابلية الحديثة

انسحبت القوات الميدية والأمامانديَّة محملة بغنائم مدينة الإمبراطورية وكانت مساعي نبوبـولاصر حينـئذ متـجه للسـيطرة على أكبـر جزء ممكن مـن الإمراطورية الآشـورية وقد استخدم لهذا الغرض قواته لتحتل إقليـم نصيبين غربي بلاد آشور وكذلك مركز بلاد آشور نفسها والأقاليم الواقعة على طول الفرات الأوسط وقام بمساع نشطة ليحصل على ما يمكنه من الشمال في مـنطقة أورارتو. ومع ذلك، فقد كان لـلسكيثيين مصالح فـي الإقليم الأخير منذ مدة طويلة ففشل نبوبولاصر في الحصول على سيطرة دائمة على أي جزء منها باستثناء كيليكيا وظلت بقايا الجيش الآشوري في حـران دون أن تهاجم وربما كان ذلك بسبب رغبة نبوبولاصـر العاجلة والملحة هي السـيطرة الفعلية على أكـبر جزء ممكن من بلاد آشـور قبل عودة الأمـاماندا. وحصل ذلك في عام ٦١٠ق م عـندما قامـوا بهجوم على حـران ما لبث نبوبولاصر أن التحق به ليحافظ على مصالحه الخاصة. أما آشور ـ أوبالط فلم يحاول الدفاع عن المدينة بل هرب باتجـاه الجنوب الغربي لينتـظر حلفاءه المصـريين وترك حران للاحـتلال والنهب من قـبل الأوماماندين. وكـانت بقايا الجـيش الآشوري، بعـد أن تقوت بالـقوات المصرية التي التحـقت بها، في موقف مكنها من القـيام بهجوم مضـاد على حران وحصلت فيها عـلى بعض التقدم.وقد أجبر تقـدم جيش نبوبولاصر رفع الحصار وانسـحبت القوات الآشورية والمصرية إلى كركميش. وهنا اعـتلى العرش المصري نيخو الثاني (٦١٠-٥٩٥ق م) الذي قرر اتخاذ إجراءات على نطاق أوسع لتأييد آشور ـ أوبالط وسارع في قيادة الجيش المصـري الـرئيس إلى سـوريا (أخـبـار الأيام الثـاني. الإصـحـاح: ٣٥: ٢١) ويبـدو أن الدبلوماسيـة الكلدانية قد لاقت نجاحا كـبيرا في فلسطين، حيث كان على نيـخو أن يقضي على عصيان في غزة (سـفر أرميا، الإصحاح: ٤٧: ١(، في حين حاول يوشيا ملك يهوذا، وهو الحاكم المحلي الرئيس المتـبقي في فلسطين، أن يغيـر على القوات المصرية في طريقـها باتجاه الشـمال فدحر وقـتل عند مجيـدو (٦٠٨ق م) (سفر الملوك الثاني، الإصـحاح: ٢٣: ٢٩)، وأصبحت مملكتـه نتيجة لذلك تابعـة بصورة مؤقتة إلى مـصر. ولم يكن من الصعب على نيخو أن يخضع سـوريا، والتحم بقوات آشور ـ أوبالط في كركمـيش. وقام البابليون بهجـوم مبـاشر على الجـيش المصري القوي (عـام ٦٠٥ق م) تحت قيـادة نبوخـذ نصر ابن

نبوبولاصر. وكانت مذبحة كبرى بالنسبة لكلا الطرفين لان "بطلا يصدم بطلا فيسقطان كلاهما معا")سفر أرميا، إصحاح: ٤٦: ١٢). واستنادا إلى أرميا، الإصحاح: ٤٦: ٥ وفيما بعد فقد حل الرعب في الجيش المصري وهرب مخذولا ومن غير نظام إلى مصر. وقد انتشرت دعاية هزيمة الجيش المصري إلى أماكن بعيدة وشعر الرعايا المواطنون بأن الوقت قد فات للقيام بعمليات أخرى ضد الكدانيين "وقد نادوا هناك فرعون ملك مصر هالك وقالوا بأن الفرعون، ملك مصر هو مجرد ضوضاء" وأنه "قد فات الميعاد" (أرميا الإصحاح: ٤٦: ١٧). وقد تمكن نبوخذ نصر من ملاحقة المصريين المنسحبين إلى حدودهم وكان بإمكانه الاستمرار والتوغل في مصر لولا وفاة والده نبوبولاصر في تلك اللحظة والذي تلطب حضوره في بابل.

لعل من غير الضروري التأكيد على قابلية نبوخذ نصر كسياسي وقائد عسكري فإن نشاطاته في هذه المجالات قد جعلت منه واحدا من أشهر شخصيات العالم القديم. وقد شعر أرميا، الذي عاصره، في بداية حكمه بأنه سيكون القوة الجديدة في السياسة الدولية وقدر فترة حكم إمبراطوريته بثلاثة أجيال (أرميا، الإصحاح: ٢٧: ٧) وقدم يهوياقيم Je-hoiakim ملك يهوذا المعين من قبل نيخو

ملك مصر الخضوع إلى نبوخذ نصر عندما دحر الجيش المصري غير أنه عاد للتحالف مع مصر عندما وجد الفرصة سانحة. ومع ذلك، فقد أثبتت الأحداث أن تقدير أرميا للموقف كان أحكم من السياسيين حيث أرسل نبوخذ نصر عام ٥٩٧ق م قوات لمحاصرة أورشليم. وكان من حظ يهوياقيم أن مات أثناء الحصار وأخذ ابنه يهوياقين أسيرا إلى بابل مع النبلاء والحرفيين والقوات.

وبوقوع جميع فلسطين وسوريا ثانية بأيدي قوى معادية، فقد كان لابد وأن تتأثر تجارة مصر كثيرا والتي اعتمدت على الموانئ الفينيقية. وربما يفسر ذلك قرار حوفرا (إبريز) ملك مصر (٥٨٩-٥٧٠ق م) المذكور في سفر أرميا إصحاح: ٤٤: ٣٠) أن يقوم بغزو فلسطين. وقد حققت القوات المصرية نجاحا في أول الأمر وأخذت صيدا واضطربت الحاميات البابلية في أورشليم، وبدون شك في غيرها من المدن، على الانسحاب تاركة القادة المناوئين

للبابليين مسيطرين على الوضع. وكـما تنبأ أرميا، فقد كان رد فعل نبـوخذ نصر قويا حيث أرسل جيـشا قويا إلى الغـرب. وسارع المصريون في الانسـحاب تاركين تابعيـهم السابقين يقضي عليـهم فرادا من قبل القوات البـابلية. وحوصرت أورشليم لـمدة ثمانية عشـر شهرا واستسلمت من المجاعة أخيرا (عام ٥٨٦ق م). وفقـئت عينا صدقيا آخر ملوك يهوذا وأخذ أسيرا إلى بابل (سفر الملوك الثاني: الإصحاح: ٢٥: ٧)، وسلبت أورشليم ونهبت وأزيلت تحصيناتهـا وقتل زعماء الحزب المناوئ للبـابليين وعين أحد النبلاء الموالين للبابليين حـاكما وسـبي قسم كـبيـر من السكان البـاقين إلى بلاد بابل. وأخـضعت المدن المتـمردة الأخـرى بالتعاقب وحوصر ميناء صور العظيم ولم تـرد الإشارة إلى العملية الأخيرة من قبل مناندر Menander (342-292ق م) الذي ذكر بأنها استمرت لمدة ثلاثة عشر سنة بل كذلك ذكرت عدة مرات من قبل النبي حـزقيال الذي عاصر الأحداث)سفر حزقيال: الإصحاح: ٢٦-٢٩) وصور حـزقيـال صول أول الأمـر بأنها تحـدق على سقـوط أورشليم: "سـأكون شبـعانا، الآن لأنها سـتخرب" (الإصـحاح: ٢٦ (2 :ـ قد تحولت إلى "امـتلئ إذ خربت" ـ وهي إشارة إلى حـقيقة أن التـجارة من مصر ومـا وراءها كانت تمر شمـالا أما بطريق بري خـلال فلسطين أو بحري إلى الموانئ الفـينيـقيـة. وقد وصف المغـامرات التـجارية والثـراء الاقتصادي لمدينة صور بشكل مجسم:

ترشيش ـ [طـرسوس في آسيـا الصغـرى] ـ تاجرتك بكثـرة كل غني بالفضـة والحديد والقـصدير والرصـاص أقـاموا أسـواقك. ياوان ـ [اليـونان] ـ وتوبال ـ [تابال في المصـادر الآشورية] ـ وماشك ـ [مـشكو] ـ هم تجارك. بنفوس الناس وبآنية النحاس أقـاموا تجارتك ومن بيت توجرمـة [تل ـ كاريحو في المصـادر الآشورية] بالخيل والفـرسان والبغال أقـاموا أسواقك. بنو ددان تجـارك جزائر كثـيرة تجار يدك: أدوا هديتك قـررنا من العاج والأبنوس. أرام تاجرتك بكثرة صنائعك...

حران وكنة وعدن، تجار سبأ وآشور وكلمد تجارك...

هؤلاء تجارك بنفائس باردية اسما نجونية ومطرز وأصونة مبرم معكومة بالحبال مصنوعة من الأرز بين بضائعك".

(حزقيال: الإصحاح: ٢٧: ١٢ ـ ١٦، ٢٣ ـ ٢٤)

وأخذت أخيرا مدينة صور عام ٥٧١ق م وثبت فيها إدارة بابلية إقليمية.

وفي هذه الأثناء تمكن كي ـ اخسار بمساعدة حلفائه من بين الأومانماندا أن يقضي على مملكة أورارتو ويتوغل إلى داخل آسيا الصغرى حيث احتك بمملكة ليديا، وهي مركز تجاري مزدهر. وقد أمكن وضع حل لبعض الصدامات الأولية عام ٥٨٥ق م بمعاهدة توسط فيها نابونائيد (نيو نيدس) أحد ضباطه وبالتالي من خلفاء نبوخذ نصر، ثبتت حدود النفوذ بين ليديا والميديين بنهر خاليس Halys.

وحافظ نبوخذ نصر على علاقات صداقة مع الميديين وكانت مشكلته الرئيسة في مجال السياسة الخارجية هي مصر. ولم تكن دوافع اهتمام نبوخذ نصر بالغرب عسكرية فقط بل اقتصادية أيضا. فقد كان اتحاد الميديين قد جرد بلاد بابل بشكل كبير من سيطرتها على الطرق التجارية الشرقية)على الرغم من أن الصعوبة لم تظهر في فترة شهر العسل التي أعقبت نهب نينوى مباشرة) في حين أصبحت الموانئ البابلية التي كانت مزدهرة مغمورة. ولهذا السبب، فقد اتجه الملوك البابليون الجدد نحو الغرب في محاولة للسيطرة على الطرق القادمة شمالا من الجزيرة العربية. وكانت مصر، مع ذلك، بعد أن ضربت تجارتها بسيطرة البابليين على الساحل الفينيقي وساحل كيليكيا تحاول دائما أن تضعف سيطرة البابليين في الغرب. ويتحدث سفر الملوك الثاني: الإصحاح: ٢٥: ٢٢-٢٦ عن اغتيال الحاكم المحلي الذي عينه نبوخذ نصر على أورشليم، وربما بموافقة المصريين إن لم يكن ذلك بتحريضهم. وأخيرا قام نبوخذ نصر، كما تشير كسرة من رقيم طيني، بغزو مصر الذي أشير إليه في سفر حزقيال الإصحاح: ٢٩: ١٩-٢١. وليس هناك تفصيلات معروفة غير أن أخبار أرميا (الإصحاح: ٤٩: ٢٨) وهيرودوتس تشير إلى هجوم ناجح على القبائل العربية في الصحراء.

عهد نبوخذ نصر عهد نشاطات معمارية

وكان عهد نبوخذ نصر عهد نشاطات معمارية عظيم في بلاد بابل، وأن الآثار الباقية في بابل هي بالدرجة الرئيسة من عهده. فقد زيدت تحصينات بابل قوة وحوفظ على خط دفاع

أول وثان. وكـان النهر على الجـانبين مع سلسلة من القـلاع في الشمـال والجنوب من بابل يؤلف خطا دفاعيا رباعيا حول المدينة.

وعند وفاة نبوخـذ نصر عام ٥٦٢ق م، خلفه ابنه اميل ـ مردوخ (اويل مـردوخ في سفر الملوك الثاني: الإصـحاح: ٢٥: ٢٧ وأرميـا: الإصحاح: ٥٢: ٣١) الذي قـتل في ثورة بعد حكم قصـير دام سنتين. ولا يعـرف عنه إلا الشيء القليل إلى جانب مـا ذكره سـفر الملوك الثاني: الإصحاح ٢٥: ٢٧-٣٠ من أنه أظهر حسن معاملته إلى يهوياكين، وهو أحد ملكين من ملوك يهوذا كانا مسجونين في بابل. ومن الغـريب أن هناك إشارة مباشرة إلى يهوياقين في بعض الرقم المسـمارية المكتشـفة في بابل التي تعـود إلى عهـد نبوخذ نـصر. وتمثل هذه الرقم قوائم جرايات وأن الجزء الخامس من أحدها يذكر:

"إلى يهو ـ كينا ملك بلاد يهودو، لابناء ملك بلاد يهودو الخمسة (و) لثمانية يهود، كل منهم ١ / ٢ سيلا (من الحبوب)".

ومن الناحيـة اللغوية، فإن يهـو ـ كينا ملك يهـود وهو بدون أي لبس الاسم الذي ذكره مترجم العهد القديم على هيئة يهوياكـين (يهوياقين) ملك يهوذا وقد استفاد من موت اميل ـ مردوخ نرجال ـ شـاراوصر (في الأخبار الإغـريقية Neriglissar وفي سفـر أرميا Ner-galsharzer الإصحاح: ٣٩: ٣ نركال ـ شار ـ أصر). وهو صـهر نبوخذ نصر. والمعروف الآن من الحوليـات البابلية بأنه قام بحـملة كبيـرة عبر طوروس وربما ليسـبق توغل الميديين المتوقع عبر خالي Halys ودحر اندحارا كبيرا بعـد نجاح ابتدائي وعاد إلى بابل عام ٥٥٦ق م وتوفي بعد عودته مباشرة مما يدفع للتخمين بأن منافسيه الشخصيين في الوطن قد استغلوا فقدانـه اعتباره فعـجلوا في نهايته. ومن المؤكـد أن ابنه لباشي ـ مردوخ الذي حـاول اعتلاء العرش بالوراثة قـد أزيح بعد ذلك بفتـرة قصيـرة بمؤامرة قادها قـائد قوات الدولة ونصب على العـرش بدلا منه نبـونئيـد (نبونيـدس) الدبلومـاسي الذي بعثـه نبـوخذ نصـر للقيـام بالمفاوضات بين الميديين والليديين عام ٥٨٥ق. م.

ولم يكن نبونئيـد من عائلة نبوبولاصر الملكية بل كان ابن أحـد النبلاء وابن كاهنة الإله سن العليا في حران. وربما كانت هذه السيدة نفسـها من العائلة الملكية الآشورية حيث أنها

ولدت في منتصف عـهد آشور بانيـبال، ومن المعروف أنـه في الفترة قـبل وبعد هذا الوقت كانت كهانة الهياكل العظمى العليا تمنح عادة لأمراء وأميرات العائلة المالكة.

وكانت العادة أن يصرف النظر عن نبونئيد باعتـباره مثقف أثاري، أكثر ما يكون سرورا عندما يتمكن من الكـشف عن بعض أحجار الأسس القديمة، غيـر أن نشر بعض النصوص الجديدة خلال السنوات الثلاثين الماضية قد أوضحت بأنه كان رجل سياسية ذو قابلية فائقة. فقد شعـر بالمشكلتين الرئيستين الواجب مواجهـتهما، المشكلة الاقتصـادية في الإمبراطورية والوضع بالنسبة للديانة البابلية القديمة. أما بالنسبة للمشكلة الاقتصادية، فسنذكر أكثر عنها في مكان آخر. أما الآن فما يهمنا هو المشكلة الدينية. فقد كان عند الميديين واليهود، وكانت لكلاهمـا عـلاقـات وثقى بالبـابليين في هذا الوقت، أفكار دينيـة خلقـيـة جـديدة، تنم عن السخرية من الوثنية المشركـة القديمة. وهناك من اقترح اقتراحا معقـولا بأن نبونئيد حاول أن يجعل من الإله القمر، سن أوننا، الإله الحـامي لمدينة أور ومدينة والدته حران، الإله الأعلى لجميع الإمبراطورية استجابة لهـذا الوضع لمعرفـته بعدم دقـة دين الشرك القديم. غـير أنه يجب عدم تضـخيم ذلك وجعله حـركة إلى جانب التـوحيد، حـيث لا يوجد هناك أي اثر لذلك، بل إنها كانت محاولة لإيجاد قوة دينيـة موحدة لجميع رعايا الإمبراطورية. فلم يكن للإله مردوخ، الإله البابلي الأعلى، وهو إله الشمس السومري القديم بمظاهره الأرضية وذو علاقة بمدينة بابل، أي مكان في مـجمع آلهة العرب والآراميين في حين كـان الإله ـ القمر، تحت أسماء مـختلفة، مقـدسا تقدسيا كـبيرا عند هؤلاء الأقوام. وأن الاتجـاه نحو الإصلاح الديني ربما كـان قد بدأ منذ عهـد نبوخـذ نصر حيث كـشفت التنقـيبات فـي مدينة أور بأن هيكل زوجة الإله القمر قد أصابه بتغير في الطراز المعماري في عهد هذا الملك مما يشير إلى تغيير في الطقوس. غير أن نبوئيد كـان هو المسئول بالدرجة الرئيسة عن هذه البدعة استنادا إلى أخباره وكذلك استنادا إلى اتهامات أعدائه عند سقوطه.

وكـانت مدينة حـران النقطة التي التـقت بهـا المشاكل الدينـية والاقـتصـادية. وأن اسم "حـران" نفسـه يعني "الطريق" وقـد أطلق على المكان لأنه كان مـحل التـقاء كـبيـر للطرق الشمالية من بلاد بابل من جهة ومن مصر والجزيرة الـعربية وفلسطين من الجهة الثانية. كما كـان المكان مـحل أحـد هيـاكل سن الكبـرى. ومن سـوء الحظ فـقـد بقيـت المدينة بأيدي

الأمانماندا منذ استيلائهم عليها عام ٦١٠ق م عندما دنسوا ودمروا معبد الإله القمر. ويتحدث نبوئيد في النصوص أن الإله سن العظيم (وفي نسخة أخرى صدرت في بلاد بابل أشرك بحصافة اسم الإله مردوخ، إله مدينة بابل) ظهر له في الحلم في السنة الأولى من حكمه قائلا: "أسرع وشيد أيخولخول Ehulhul [بيت فرح كبير] معبد الإله سن الذي في حران نظرا لأن جميع الأراضي قد سلمت بيدك. وفي النسخة الصادرة في بابل يشير نبوئيد إلى مردوخ "أما بالنسبة للمعبد الذي أمرت بأن يعاد بناؤه، فقد أحاطه الأمانماندا وأن قوتهم مرعبة". ويجيب مردوخ الجواب المدهش "لم يعد هناك وجود للأمانماندا الذين تذكرهم ولا لبلادهم والملوك حلفائهم. في السنة الثالثة القادمة سأجعل كورش ملك إنشان (أي فارس) خادمه الصغير، يطردهم. وسيكتسح بقواته القليلة الأمانماندا المنتشرين".

وكان الفرس اصلا إحدى القبائل الهندو آرية المهاجرة التي استقرت أخيرا في عيلام. وقد اسس عائلتهم المالكة في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، بعد أن قضى آشور بانيبال على السلالة العيلامية القديمة، أخمينس)حاخمانيش Hahmanish) الذي لقب ابنه نفسه بلقب "ملك إنشان". وكانت إنشان إحدى إمارات مملكة عيلام وأن اللقب الجديد تضمن الملكية على البلاد القديمة. وقد دفع ارتفاع شأن قوة مملكة فارس الملك الميدي استياجز -As tyagesأن يزوج ابنته من قمبيز الأول، ملك إنشان الثالث، ومن هذا الزواج ولد كورش .Cyrus

ويبدو واضحا أنه مهما كان مدلول مصطلح أمانماندا من عناصر عرقية، فإن ما ورد في حلم نبوئيد يشير إلى حامية تابعة للميديين. كما يوضح الحلم أن التقليد القديم بخصوص العلاقات الدبلوماسية بين الاسر الحاكمة في بلاد بابل وعيلام كانت لا تزال قائمة طالما كان نبوئيد وكورش يدبرون سوية مساع مشتركة ضد الميديين في سنة نبوئيد الثالثة أي عام ٥٥٣ق م.

وقد أصدر نبوئيد أمرا بتجنيد عام للوقات من الأقاليم الغربية وانسحب اليمديون، الذين كانوا مشغولون بعصيان كورش (الذي تمكنوا من القضاء عليه تقريبا (استنادا إلى الأخبار الإغريقية)، من حران وتمكن نبوئيد من استخدام مجنديه للبدء بمشروع الترميم.

وكان لذلك تأثير على تشجيع العصيان بين سكان مدن بلاد بابل الكبيرة حتى: "نسى أبناء بابل وبورسبا ونيبور واور وأوروك ولارسا وسكان المدن الدينية في أكد [شمال بلاد بابل]... واجباتهم وتحدثوا عن الخيانة وليس عن الطاعة". وهناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن نبونئيد كان يعدل لمثل ذلك. فقد كان الملك يمتلك مقاطعات واسعة في جنوب بلاد بابل وأن عقود أرشيف المعبد تثبت بأنه كان يعطي السيطرة على هذه المقاطعات إلى سلطات إدارة معبد أي - أنا Eanna، وهي مؤسسة المعبد الكبيرة والغنية في الوركاء، مقابل أجرة سنوية مقطوعة، كما ظهرت إصلاحات إدارة المعابد في هذا الوقت وعين في الوركاء تعيينات جديدة لجميع الوظائف المهمة في السنوات الأولى من حكم نبونئيد.

وظهرت آنذاك المجاعة في بلاد بابل ونسبها نبونئيد إلى عدم تقوى الناس على الرغم من أن إرجاعها إلى الوضع الاقتصادي العام هو أكثر منطقية. فقد كان من نتائج الحروب والنشاطات العمرانية التي قام بها نبوخذ نصر ونرجال - شار - أوصر أن ظهر التضخم وارتفع مستوى الأسعار بنسبة ٥٠٪ بين عامي ٥٦٠ و ٥٥٠ق م (ولم يوقف هذا الاتجاه بتطورات تالية بل ارتفعت الأسعار بين عامي ٥٦٠ و٤٨٥ق م إلى ٢٠٠٪). ويمكن ملاحظة النتائج في الوثائق التجارية. وتعود إحدى هذه الوثائق إلى السنة الأولى من حكم نبونئيد وتتعلق بقرض من الحبوب إلى راع كانت ماشيته تموت جوعا في حين تتعلق نصوص أخرى بتسليم الأطفال إلى المعابد كعبيد وهي نتيجة جلية للفقر المدقع. وساهم انسحاب القوى العاملة لمدة سنتين في بعض الأحيان من الأعمال المنتجة على القنوات إلى الأعمال غير المنتجة في بناء المعابد أو الحروب في تدهور إنتاج البلاد ايضا، كما زادت الأوضاع الاقتصادية سوءا بسيطرة الميديين على الطرق التجارية إلى الشرق والشمال. ولا ريب أن حلف نبونئيد مع كورش كان بهدف الحصول على نتائج مثمرة فيما يتعلق بالناحية الأخيرة.

وقد اشير إلى أن نبونئيد قلما يذكر الناحية الاقتصادية في مشاريعه، ولذا فهناك شك فيما إذا كانت الناحية الاقتصادية تؤلف أي دافع رئيس في الأعمال التي قام بها فيما بعدز ومع هذا، فإن الوثائق الاقتصادية والإدارية من النوع الذي أشير إليه سابقا يبرهن بما لا يقبل الشك ولو بشكل عرضي بأن نبونئيد كان على موعد مع المشاكل الاقتصادية. وفي

نصوص الأهداء المخصصة للغلهـة فإن من المنطق أن يدعي الملك بأن التقوى وليس الفوائد الاقتصادية هي الدافع الرئيس لمشاريعه.

وكـانت اسـتـجـابة نبـونائـيـد للوضع في بلاد بابل مـحـاولة رائعـة لـنقل مـركـز ثقل الإمبـراطورية إلى الغرب وضمان الطرق التـجارية من جنوب الجزيرة العـربية. فنصب ابنه بيل ـ شار ـ اصر (في سفر دانيال: بيلشاصر: الإصحاح: ٥: ٢٢، ٧: ١، ٨: ١) وصيا على بلاد بابل وقاد جـيشا إلى واحـة تيماء في شـمال غرب الجـزيرة العربية من خـلال سوريا، حيث أعـدم هناك الملك المحلي واتخذ المدينة قاعـدة له في السنوات العشر التـالية. واندفع نحو الجنوب في خلال فترة إقامته في الغرب مسافة مائتين وخمسين ميلا ومر بأماكن يمكن معـرفتهـا حتى وصل أخـيرا إلى يثرب (المدينـة في الإسلام، مدينة مـحمد صلى الـله عليه وسلم) على البحـر الأحمر. ويذكر نبـونئيد على وجه التـخصيص أنه ترك حامـيات وأقام مستعمرات حول واحات ست ذكر أسمـائهاويصف القوات التي استخدمها بأنها: "سكان أكد وبلاد ـ حاتي"، اي المواطنين البابليين وسكان المقاطعات الغـربية. ومن النتائج العرضية الغريبـة أن خمسـا من الواحات الست المذكورة أسـماؤهم كانت آهلة بالسكان اليـهود في عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد ألف سنة. ومن الاقتراحات التي لا يمكن التغاضي عنها أنه كان بين القوات والمهـاجرين الذين رافقوا نبونئيد فـرقا من اليهود رغم أنه لا يمكن إثبات ما إذاكن كانوا من أولئك اليهـود الذين تركوا فلسطين بعد فتح أورشليم أو أنهم من أولئك الذين اسروا إلى بلاد بابل.

ولعل انسحـاب نبونئيد في هذه السنوات العـشر عن عاصـمته كان الأساس فـي قصة سني الجنون السبع التي نسبت إلى نبوخذ نصر سفر دنيال)الإصحاح: ٤: ٢٨-٣٣). ومن الأمور الشائعة أن تنسب أخبار بعض الأحداث الخـاصة بأحد الأشخاص إلى شخص آخر أكثر شهـرة ولكنه على علاقة تاريخيه به. ويخطر إلى الذهن كمـثال على ذلك قتل جليات Galiath من قـبل الحنان Elhanan التي تنسب عـادة إلى داؤد (سـفـر صـمـوئيل الأول: الإصحـاح: ١٧-٥٠، صمويل الثـاني: الإصحاح: ٢١: ١٩) ومـن الأشكال الأخرى التي تبدو أنها من أخبار اليهود نفسها عن غضب الآلهة على أحد الملوك البابليين، ولو أنه مرتبط

هذه المرة بنبونئيد بدلا من نبوخذ نصر، ما ظهر في النصوص التي عثر عليها في قرمان التي أطلق عليها "لفائف البحر الميت".

والوثيقة المعنية، وهي أجزاء من مخطوط عثر على الجزء الأكبر منه في عام ١٩٥٥ ويعود بتاريخه إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد وهي جزء من تآليف كتب بالآرامية (وهي لغة قريبة من العبرية استخدمت في أجزاء من سفر دانيال وعزرا وبعض الجمل الأخرى في العهد القديم). وبعد كثير من الإضافات (ولعلها ليست صحيحة دائما) يمكن ترجمة الجزء المعروف)مستندين على درجة كبيرة على ترجمة: J. T. Milik, Re-vue Biblique, 63 (1936). Page 408 كما يأتي:

كلمات الصلوات التي قدمها نبونئيد، ملك بلاد آشور وبابل، الملك العظيم، قالها عندما ضرب بمرض جلدي لعين بأمر الإله الأعلى في مدينة تيما: "لقد ضربت بمرض جلدي لعين لمدة سبع سنوات... ولكن عندما اعترفت بذنوبي وخطاياي، متمنيا حكما (جيدا). وكان ناك يهودي من... وقد كتب وأخبرني أن أقدس... لاسم الإله الأعلى..."

وفي نهاية السنوات العشر كانت الأوضاع قد تغيرت إلى درجة كان بإمكان نبونئيد، الذي كان عمره آنذاك لا يقل عن خمس وستين ولعله أكثر من سبعين سنة، أن يعود إلى بلاد بابل دون أن يجابه أية معارضة لمشاريعه في إعادة بناء وإصلاح المعبد الكبير في حران.

وكان التحسن الوقتي في موقف نبونئيد يرتبط بنجاح حليفه السابق كورش. فبعد اعتلاء كورش على عرش إمبراطورية الميديين والفرس، اندلعت الحرب ثانية في آسيا الصغرى مع كروسس ملك ليديا. وبحملة شتوية غير متوقعة، نجح كورش عام ٥٤٧ق م في الاستيلاء على ساردیس Sardes عاصمة كورسس Crosus. وبجعله لديا مقاطعة فارسية، حصل على تأييد المتسعمرات الإغريقية في غرب آسيا الصغرى. وبعد أن انتهى كورش من ذلك، كان قادرا لأن يباشر بعمليات أولية ضد الإمبراطورية البابلية التي بدأها عام ٥٤٧ق م وسيطر على أجزاء من شرقي بلاد آشور. ولعله أراد بذلك ن يستبق هجوما بابليا على ميديا حيث أن الإقليم الذي أخذ كان الإقليم الذي يتخذ قاعدة لمثل هذا الهجوم في العهود الآشورية. ويذكر هيرودتس أن كروسس كان متحالفا مع كل من نبونئيد

والمصريين وأنه طلب المساعدة العسكرية قبل الهجوم المفاجئ الذي أدى إلى سقوطه. وأن توافق تاريخ الأحداث يجعل من المنطق أن نفترض أن التهديد العسكري من الشرق قد أدى إلى وحدة مؤقتة في بلاد بابل ودعى إلى عودة الملك وقيادته الفعالة.

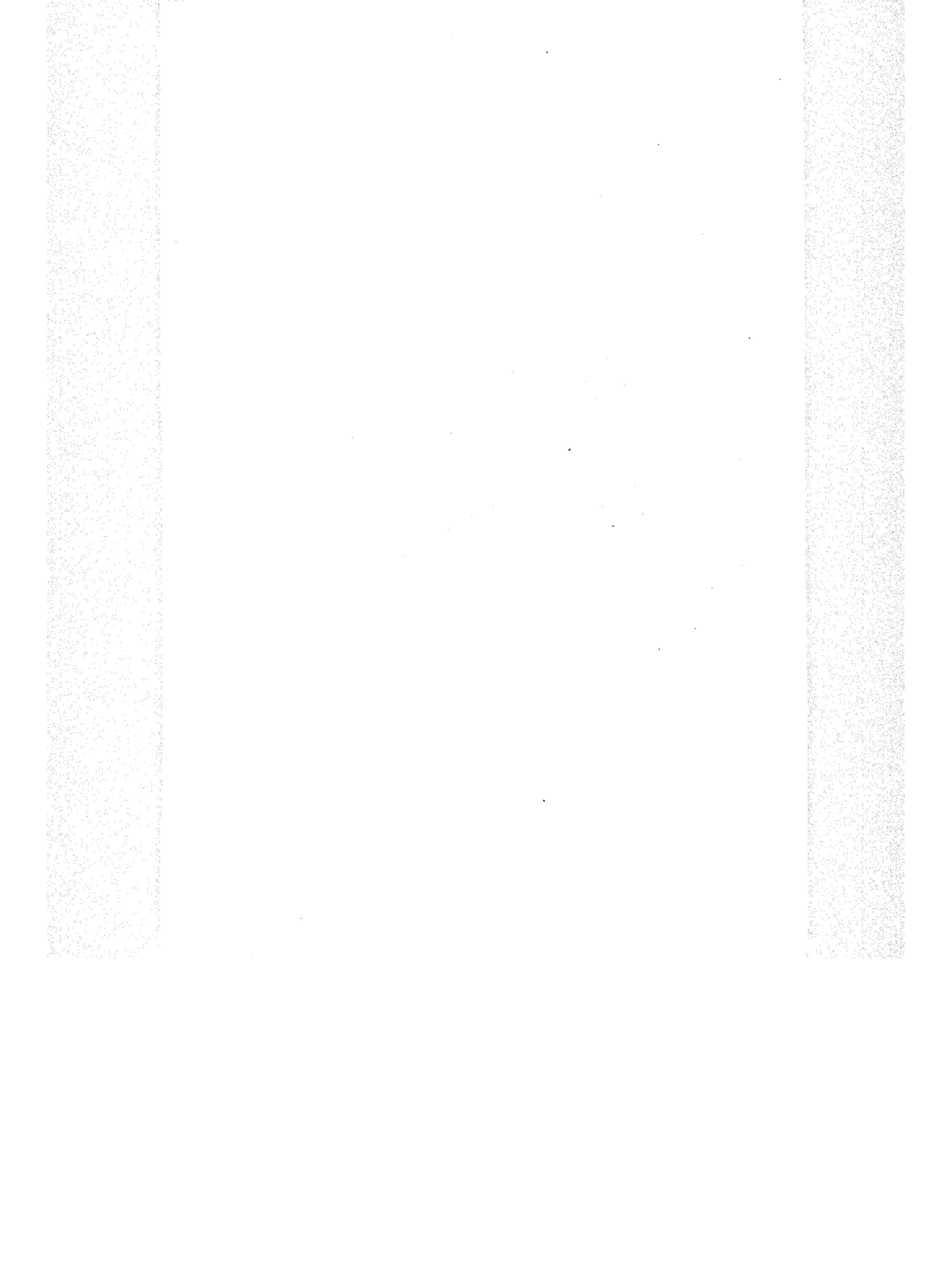
وكان جنوب بلاد بابل معرضا دائما لغارات مفاجئة من عيلام وقد قاست من ذلك عام ٥٤٦ق م. وتبدو الأحداث عندئذ مرتبكة وربما عاد نبونئيد فعلا غلى بابل بعد هذه الحادثة ليشرف على الدفاع عن بلاده. ولم يكن الوضع متأزما، فقد ظلت الوركاء، وهي المدينة الرئيسة في الجنوب، بأيدي نبونئيد على الرغم من الغارة العيلامية، كما لم تبد سوريا والغرب أي دليل عن الاستياء، ويمكن الاستدلال مما ذكره هيردوتس أن مصر كانت أيضا حليفا احتياطيا. ومع هذا، فبينما كان الملك المسن يكمل مشاريعه الطويلة الأمد في تعمير معبد أخولخول Ehulhul في حران، كان كورش مشغولا بحرب الدعاية في الإمبراطورية البابلية. وكان عمله نحو كروسس الذي أحسن إليه واحترمه ونحو حكماء الإغريق في آسيا الصغرى الذين تحملهم ليسلبهم، قد أضفى عليه صفة الاعتدال والتسامح الديني الذي ينعكس في سفر أشعيا. وأن النبي المجهول المعروف حاليا باسم Deutro-Isaiah (سفر أشعيا، الإصحاح: ٤٠-٥٥). ادعى أنه يتكلم عن الرب: "هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لادوس أمامه أمما...، قائلا "لأجل عبدي يعقوب، وإسرائيل مختاري، دعوتك باسمك ولقبتك وأنت لست تعرفني" (سفر أشعيا: ١٤٥ :، ٤). ولابد أنه كان هناك دعايات مشابهة تختمر في بابل وتنعكس في الأخبار الحاقدة التي كتبت عند سقوط نبونئد. وما يأتي هو ترجمة)معتمدة على سدني سميث في Babylonian Historical Texts (1924). P. 87)لأحد النصوص من هذا النوع ومما يؤسف له أنه في حالة رديئة جدا. ويشير إلى نبونئيد بأنه:

....لم يجعل العدالة تنبثق عنه، ....قتل الضعيف بالسلاح،) .... بالنسبة) للتاجر، أغلق الطريق .... وفي الوقت المناسب في عيد رأس السنة الجديدة] أوصى بأن لا يكون هناك أفراح ....عفريت ـ الشيدو غيره .... قام بالأعمال غير المقدسة ....وأقام [تمثالا هرطقيا] على قاعدة، ....ودعا اسمه "الإله سن" ....وكان شكل القمر هو الخسوف واعتاد أن يخلط بين الطقوس، ويفسد الأوامر، ويتحدث بكلمات ضد الأوامر المقدسة.

وتوغل كورش بالتدريج إلى الأمام إلى جبال كردستان ولورستان إلى أن سيطر تمام على جميع الإقليم شرقي دجلة ومن هناك كان بإمكانه أن يقوم بهجوم على بلاد بابل نفسها. وعبر كورش نهر دجلة بالقوة عند أوبس Opis وزحف إلى سبار التي استسلمت ثم هوجمت بابل نفسها واستسلمت دون مقاومة تذكر. وينسب هيرودتس ذلك إلى خدعة الفرس بكسر نهر الفرات الذي يكون أحد جوانب الدفاعات عن المدينة وخفض المياه فيه وبذلك جعل من الممكن عبور المجرى الرئيس مؤقتا. وليس هناك ما يدعو لرفض القصة، ولكن لم تكن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى انهيار المدينة هي ضعف دفاعاتها بل وجود "رتل خامس" في داخل المدينة. فإن تشكك نبونئيد لسيادة الإله مردوخ قد اثار ضده السخط على الرغم من ادعاءاته بأنه أعاد العلاقات الودية مؤقتا في أحد نصوصه بعد عشر سنوات من إقامته في الخارج. وقد وجدت دعايات كورش أرضا خصبة بين المواطنين البابليين وغيروا ولاءهم إلى الملك الفارسي ذي العقلية المتحررة ودخل المدينة التي لم يسمح بنهبها أو سلبها أو أن يفسد مؤسساتها الدينية أو إدارتها المدنية وعين ممثلا فارسيا حاكما عليها. وقدم قمبيز ابن كورش الأصغر الخضوع للآلهة في عيد رأس السنة الجديدة في بابل حيث استلمت السلالة المنصب من الإله مردوخ وبذلك مارست الملكية على بلاد بابل ليس بحق الفتح فحسب بل بدعوة مقدسة أيضا.

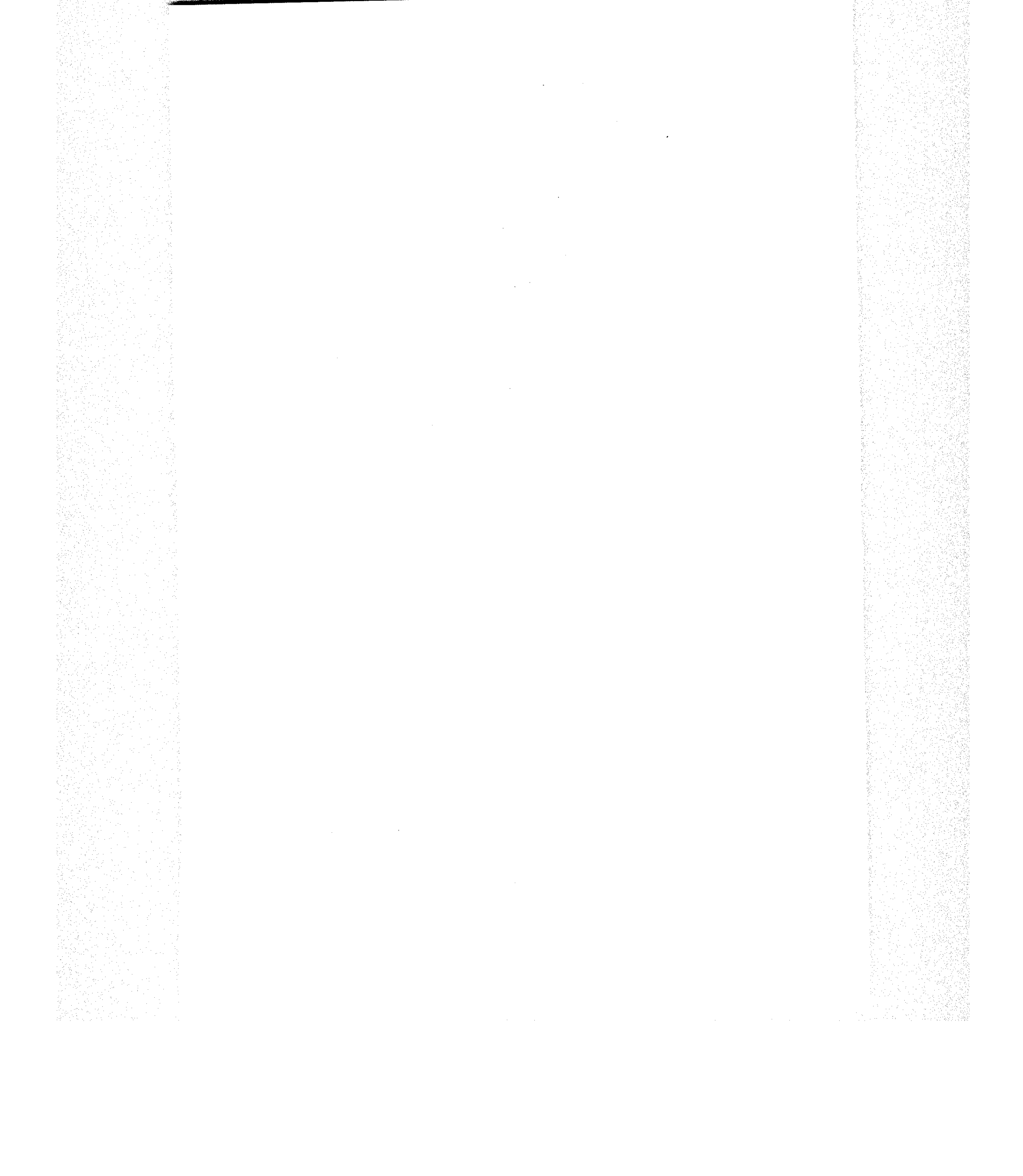
وبذا انتهت آخر سلالة وطنية في بلاد بابل وآشور فقد استمر الحكم الأخميني [الفارسي] حتى عام ٣٣١ق م حيث وقعت بعد ذلك بلاد ما بين النهرين فيما تبقى من الألف الأول قبل الميلاد في أيدي السلوقيين [الإغريق] والإرشاقيين [الفرثيين] وكانت أجزاء كثير من بلاد ما بين النهرين قد وقعت تحت الحكم الأجنبي المؤقت من قبل غير أن الفتح الأخميني جاء في وقت كانت هناك قوى جديدة يرتفع شأنها في الشرق الأدنى القديم وكانت حضارة الألفين سنة القديمة في بلاد بابل تموت بغض النظر عن الاعتبارات السياسية. وقد سبقت الإشارة للشعور الذي كان يزداد حول عدم ملائمة مجمع الآلهة البابلي ومحاولة نبونئيد الإصلاحية، وهناك أدلة كثيرة من فترة العهد الآشوري الحديث لما يسميه فون زودن "الميل إلى النزعة الدنيوية". إضافة إلى ذلك، فابتداء من مطلع الألف الثاني قبل الميلاد كان تأثير الآراميين يتغلغل في بلاد بابل أكثر وأكثر سواء فيما يخص

النظام الاجتماعي أو اللغة. وفي الأول بالتأكيد على النظام القبلي والميل إلى إضعاف أسس نظام دويلات المدن القديم، وفي الثاني، فقد كان من مزايا اللغة الآرامية أنها كانت اللغة الأم لمجموعة من الأجناس البشرية أكثر انتشارا من مجموعة المتكلمين باللغة الأكدية. أما بالنسبة للكتابة فقد كانت الأبجدية الأرامية بحروفها الاثنين والعشرين أسهل بكثير كوسيلة للاتصال من المسمارية الأكدية بعلاماتها الستمائة... وكانت الكتابة الآرامية تستخدم أحيانا حتى عندما كانت الأكدية المسمارية لا تزال تستخدم على الرقم الطينية كوسيلة اعتيادية لكتابة الوثائق القانونية نظرا لسهولتها وذلك لتعليم مثل تلك الرقم لأغراض حفظها. وكان بمقدور المتعلمين فقط وبعد دراسة سنوات طويلة من أن يسيطروا على المسمارية الأكدية. وظلت الكتابة مستخدمة بين هؤلاء المتعلمين للأغراض العملية المحدودة لبعضة قرون أخرى. وفي عام ١٤٠ق م اختفت نهائيا باستثناء استخدامها من قبل بعض الكهنة للأغراض الدينية لمدة نصف قرن آخر، وبين الفلكيين. وبالنسبة للفلكيين فقد ظلت المسمارية مستخدمة حتى وقت المسيح.



الفصل الثالث

الحقائق التاريخية



الفصل الثالث

الحقائق التاريخية

تقع أشور إلى شمال بابل وتبدأ مع السهل المرتفع لميزوبوتاميا على ارتفاع قليل عن ملتقى الأدهم ودجلة وتشغل الجزء الأوسط من حوض هذا النهر حتى كورنيب ويفصلها من ناحية الشرق الجزء الأوسط من الزاب الكبير وجبال زاجروس عن الكاسيين ويحدها شمالًا جبل ماسيوس وهي لا تصل غربًا إلى الهابور أو الفرات.

وليس لهذا البلد المثلث الشكل الوحدة التي تتمتع بها بابل: والجزء الغربي من ميزوبوتاميا هضبة واسعة متموجة تنتشر فيها بعض التلال من الحجر الجيري. أما في القطاع الشرقي فيما وراء دجلة فتوجد كثير من التلال المليئة بالغابات والوديان التي تجري فيها مجار مهمة كالورنيب والزابان والأدهم وهو منطقة غنية في معادنها خصبة في الغلال والتمر. ويكون الزاجروس في الشرق حدًا طبيعيًا مكونًا من سلسلة من الجبال الوعرة التي لا يوجد بها إلا ممران أو ثلاثة لا يمكن عبورها خلال فترة من السنة، ونحو الشمال تتلاحق مرتفعة الواحدة بعد الأخرى مسطحات ترتكز في النهاية إلى جبل أرمينيا. وفي الجنوب يقع السهل الفيضي الذي يسكنه البابليون. وينفرد الغرب وحده بعدم وجود حدود طبيعية وهو الاتجاه الذي ستمتد منه فتوحات الدولة الأشورية نحو البحر المتوسط ومصر. وقد ذكر ج. رولنسن أن مساحة أشور تساوي مساحة بريطانيا على حين تقرب مساحة بابل من مساحة الدنمارك.

وأقدم الوثائق التي اكتشفت تحت أحد معابد عشتار في خرائب أشور أول عاصمة لأشور عبارة عن تماثيل تشبه التماثيل السومرية هي: تمثال لرجل جالس ولكنه للأسف مشوه وبدون رأس. وتمثال لرجل واقف بعينين واسعتين فارغتين ورأس حليق ولكن له ذقنا تكسوها لحية بخلاف ما هو متبع لدى السوميريين.

وقد اكتشف صدفة أثناء الحفر في "كالاتية" بالقرب من "كارا يوك" وهو تل يقع على مبعدة ١٨ كيلو متراً من شمال شرق شيزارية بكبادوكيا لوحات مكتوبة باللغة السامية وعليها أسماء مركبة من الإله أشور: أني أشور، تابا أشور، أشور ملك، أشور موتابيل ولم يعد هناك شك في أنه كان يوجد بهذه المنطقة النائية من أشور عباد لأشور في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد وذلك بعد نشر لوحة من هذه المجموعة التي يحمل غلافها اسم ختم سوميري باسم أحد خدم "أبي سن" آخر ملوك أور. وهذا الختم مزين برسومات أخرى مقتبسة من الفن السوميري للحفر على الحجارة الكريمة في هذا العهد ولكن من طراز مختلف تمامًا يلاحظ فيه منذ ذلك العهد وفي أكثر الأحيان الميل الذي سيبرز في الفن الميزوبتامي إلى عدم تشكيل الوجوه مقابل الاهتمام بصفة خاصة بالزينة الخارجية التي جرت العادة على أن تنقش فيها الكتابة _ فضلًا عن التفاصيل المتصلة بالعبادة والعادات المحلية _ في اتجاه القراءة المباشرة على الاسطوانة نفسها، وتدل النصوص على وجود مدنية تطورت تطوراً كبيراً خارج نطاق الثقافة السوميروأكادية كما تدل على أن لها شكلها واصطلاحاتها الخاصة التي وجدت ثانية في أشور حتى سقوط نينوي. من ذلك أنهم بدءوا يذكرون على الأغلفة الأختام المطبوعة لجعل الوثيقة صحيحة ولكن الشهود كانوا يضعون هنا إلى جانب أختامهم ختم حامل السند على حين نجد أن هؤلاء الشهود في نينوي في عهد السرجونيين يذكرون فقط في نهاية الاتفاق. وأسوة بالمتبع في أشور كانت السنوات تعرف بأسماء الأشخاص لا الأحداث الهامة أسوة بالعادة المتبعة في سومير وأكاد ولكن لا تستطيع القطع وقتئذ بأن الاسم هو ذاته في أشور، أما أسماء الشهور فهي واحدة في كبدوكيا وفي أشور.

ومن المحتمل جداً أن تجارة منتظمة في مختلف أنواع النسيج والمعادن التي تستخرج من مناجم البلجار داج كانت تجري مع أشور: وكانت القوافل تنزل إلى الفرات حتى نقطة اتصاله بالهابور ثم تعبر بلاد هانا التي كانت حضارتها واقعة تحت نفس المؤثرات وحيث كان جزء كبير من السكان يمارس صناعة النسيج كما حدث بالفعل فيما بعد.

وتثبت هذه المجموعة في آسيا الصغرى وهذه الشهود للحضارة السومرية التي كشف عنها في أشور أن الأشوريين استطاعوا أن يكونوا في القرن الخامس والعشرين شعبًا متميز

العلاقات بالسوميروأكاديين (الذين كان لهم تأثير بيّن عليهم) وإن تمكنوا في الوقت نفسه من أن يكون لهم طابعهم الخاص. أما أصلهم فلا يزال غير معروف، ويظهر أنهم كانوا قد انتشروا في مساحة واسعة في الألف الثالثة دفعهم الآريون منها إلى أشور نفسها وأن بلادهم نفسها احتلها الميتانيون _ أو احتلوا منها على الأقل الإقليم المحيط بنينوى. وإننا لنجد إلى شرق تلك المدينة بالقرب من كركوك في الألف الثانية بعض الآريين من عباد تشوب أحد آلهة الحيثيين. ويسود الاعتقاد أن الكاسيين المستقرين في الزاجروس من نفس الجنس.

ولعل أقدم أمير وصلتنا عنه وثيقة مكتوبة كان يدعى زاريكوم (حوالي ٢٤٠٠ ق.م) وكان معاصراً ومن موالي بورسن ملك أور، ونسمع عن سلف له هو أوشبيا الذي ينسب إليه تشييد الأسوار وكذا كيكيا مؤسس معبد أشور. وكان ايريكا بكابو أيضًا أميرًا قديمًا: ويقول "اداد نبراري" الثالث عنه إنه كان ملكًا قبل حكم "سوليلو" ولكن سوليلو نفسه لا نكاد نعرف عنه شيئًا.

وحوالي ٢٢٥٠ ق.م ظهر "بوزور اشير" الأول ومنذئذاك تستمر قائمة الملوك الأشوريين دون انقطاع تقريبًا حتى نهاية الإمبراطورية.

ولقد هاجم ايلو شوما الأشوري "سوموابوم" مؤسس الأسرة البابلية الأولى ولكن يظهر أنه هزم حسب ما ورد في إحدى الوثائق البابلية وقد بنى ايلو شوما هذا معبداً للآلهة عشتار وجدد ابنه وخلفه ايريشوم هيكل الإله الوطني الذي كان قد شيده من قبل أوشبيا كما حفر قناة عند قاعدة السيجورات. وأما ابنه ايكونوم فقد جدد أسوار المدينة وكرس معبداً لـ"ننكيجال" وربما كان ذلك نينوى. وقد شيد سرجون الأول الذي خلفه مزارا لعشتار. وأما "شامشي أداد" الأول (٢١٢٣- ٢٠٨١) فكان معاصراً ومولى لحمورابي ولقد وضع حامية بابلية في أشور وساعد الأمير الأشوري مولاه البابلي _ أما لغرض خاص أو بدافع الضرورة _ في حربه ضد أمراء لارسا. وإننا لنجد في وثيقة محفوظة في متحف جامعة بنسلفانيا أن صيغة القسم تحوي اسم شامشي أداد إلى جانب اسم حمورابي كما نجد هذا الاسم نفسه في نصوص اسطوانات مختلفة من الطراز البابلي البحت.

وأما بعد ذلك فيكاد يحجب الأحداث ديجور شديد الإظلام حتى القرن الخامس عشر حين استقبل تحوتمس الثالث المصري في العام الثالث والعشرين من حكمه سفارة أشورية قدمت له ثلاث كتل من اللازورد وأحجاراً أخرى ثمينة. وتكشف رسائل تل العمارنة عن الموقف الدولي عند نهاية ذلك القرن كما تضيف الوثائق التي عثر عليها في بوغازكوى مكان عاصمة الحيثيين القديمة معلومات لها قيمتها. وكان أمنحتب الثالث يجلس على عرش مصر. وكان الشاطئ السوري خاضعًا لمصر ومقسمًا إلى إقليمين: كنعان في الجنوب وعامور في الشمال. وكانت دولة الحيثيين الجار المباشرة لعامور وكانت تمتد في آسيا الصغرى عبر طوروس كما تمتد من ناحية الشرق حتى انحناءة الفرات. وهناك كانت تلامس دولة ميتاني التي تحدها بدورها من ناحية الشرق أشور التي كانت قد أخضعتها. وأما أصل الحيثيين والميتانيين فغير معروف. وكان الميتانيون يعبدون أندرا، فارونا، مثرا، وكانوا قد لعبوا من زمن بعيد دوراً هامًا في التاريخ: فقد غزا الحيثيون ميزوبوتاميا في القرن العشرين واحتلوا بابل وأنهوا حكم الأسرة الأولى في تلك المدينة (١٩٢٥ ق.م) وكان ملكهم في عصر أمنحتب الثالث يدعى شوبليوليما وكان ملك ميتاني نسيبًا لفرعون هو دوشراتا الذي كان قد زوجه من إحدى أخواته. وقد هاجمه الحيثيون ولكنه نجح في ردهم واحتجز جانبًا من الغنائم عربة وخيلًا لملك مصر وكذا بعض الحلي الصدرية (حلى الصدر) للملكة أخته.

وكان نفوذه يمتد حتى على نينوى حيث كانت آلهتها يمجدها البابليون والأشوريون تحت اسم عشتار _ التي يظهر أنها كانت في الأصل معبودة ميتانية. وكانت في عهد الملك السابق قد قامت برحلة إلى مصر وحفظت خير الذكريات الممتعة من الترحيب الحار الذي قوبلت به هناك. وقد طلبت إلى ملك ميتاني أن يبلغ عن مقدمها حين عزمت على تكرار الزيارة.

ولقد منح فرعون في إحدى المرات دوشراتا عشرين وزنة من الذهب وقد أثار ذلك غيرة "أشور أوبالليت" ملك أشور (حوالي ١٣٧٠) وسرعان ما تساءل عن سبب عدم حظوته بمثل هذه المعاملة. ولقد ادعى "بورنابورياش" البابلي حق السيادة على أشور وحين سمع بالرسالة التي أرسلها أشور أبوالليت شكا واحتج على أساس أن الأشوريين "هم من

رعاياه" ليس لهم حق الاتصال المباشر بفرعون. وحقيقة الأمر أن كل هذه الشعوب كانت تتنازع فيما بينها جميعًا حق السيادة على الشاطئ السوري الذي كان سوقها المشترك وكان الحيثيون أقواها جميعًا فأثاروا منافسين من بين الأمراء العاموريين وحاولوا أن يفصلوهم عن مصر وقد نجحوا في السيطرة على وادي الأورونت ولكن أمنحتب الثالث أرسل جيشًا وأعاد النظام فانتقم شوبليوليما من دوشراتا ونهب حدود ميتانى ثم عاد إلى سوريا واستولى على حلب.

ويظهر أن أمنحتب الرابع الذي كان قد اعتلى عرش مصر لتوه لم يشغل باله بالحروب الداخلية التي كانت في سوريا كلها. ولقد استطاع "عزيرو" أحد الأمراء العاموريين أن يوسع رقعة نفوذه بعد حملة ناجحة ولكنه اعترف بسيادة فرعون وقدم إلى مصر ليعلن ولاءه له. وقد عده شوبليوليما خائنًا فهاجمه وهزمه واستولى على سوريا وقضى على النفوذ المصري قضاءً تامًا.

وقامت ثورة في ميتانى وقتل دوشراتا وخلفه ابنه "ماتى بوزا" الذي تحالف مع الملك الحيثي ولكن "سوتارنا" ابن أخ الملك السابق استطاع أن يستولى على العرش فطرد ابن عمه الذي لجأ إلى البلاط الحيثي، وسرعان ما تقدمت أشور لاجتياح ميتانى فزوج شوبليوليما ابنته إلى ماتى يوزا وأعاد له حقوقه ولكن مع معاملته كمولى. وبعد وقت قصير اعتلى مورسيل العرش الحيثي وورث إمبراطورية ضخمة تمتد شرقًا إلى الحدود الأشورية وجنوبًا إلى الكرمل والجليل. ومات بعد أن هزمه سيتى الأول بالقرب من قادش على الأورونت ثم رمسيس الثاني وشهد أبناء موتاللو وخاتوسيل قواهما تضمحل حتى ذلك اليوم حين رأى هذا الأخير نفسه مضطرًا إلى أن يعلن السلام في العام الحادي والعشرين من حكم رعمسيس الثاني (حوالي ١٢٧٩ ق.م) ولكن سرعان ما بدأت مصر نفسها تنحل كما بدأت بابل تفقد نفوذها، وكانت هذه هي اللحظة التي اختارها العبرانيون للاستقرار في كنعان وبدأت جماعات من الأراميين في التسرب عبر حدود أشور وبابل.

وقد تولى "أشور أوباليت" إصلاح العاصمة التي كانت أسوارها قد دمرت حديثًا _ ربما كنتيجة لحصار _ وقد أعاد بناء معبد في نينوى وحارب الشوباري في الشمال الغربي

من مملكته ووسع رقعة بلاده وقد تدخل في بابل ضد حزب الكاسيين الذي اغتال حفيده "كارا انداش الثاني" وأمن العرش لحفيده الآخر "كوريجالزو" الثالث. وأما ابنه "ايلليل نيراري" (حوالي ١٣٤٥ (فقد وسع أيضًا مملكته على حساب أرض الكاسيين الفعلية وبعد مذبحة للبابليين في سوحاحي اغتصب أراضي أخرى من ابن أخيه كوريجالزو.

وقد قام "اريك دين ايلي" (حوالي ١٣٣٥) بخمس حملات مظفرة على الأقل كانت إحداها ضد الهابور في ناحية حاران واستجلب من هناك غنائم كثيرة من قطعان ماشية وأغنام.

ويحدثنا "أداد نيراري" الأول (حوالي ١٣٣٠- ١٢٩٠) عن حملات أسلافه ولقد كان عليه هو نفسه أن يحارب الـ"لولومي" في الشرق وبابل في الجنوب وهي التي فرض عليها تعديل الحدود. وقد أصلح القصر الملكي ومنشآت أخرى في أشور ونينوي. وقد تابع ابنه شلمنصر الأول (حوالي ١٢٩٠- ١٢٦٠) رياسة الغزو فقام بحملات ثلاث في ناحية ديار بكير وهزم "ساتو وارا" ملك هانيرابات وهو الميتاني القديم الذي كان قد تحالف مع الحيثيين والأراميين أهلامي وثبت ملكه حتى قرقميش على الفرات. وقد اضطر الـ"لولومي" في الشرق كذلك إلى دفع الجزية. ولما بسط شلمنصر على هذا النحو نفوذه على ميزوبوتاميا جميعًا عول على نقل العاصمة السياسية لدولته. وكانت أشور تقع على الضفة اليمنى للدجلة إلى ما دون ملتقاه بالزاب الأعلى فاختار موقع كلح الضفة اليسرى فوق نفس الملتقى بقليل وقد دمر في عهده معبد أشور وربما كان ذلك نتيجة زلزال كما دمر معبد عشتار في نينوى.

وقد غزا ابنه "توكولتى اينورتا" الأول (حوالي ١٢٦٠ _ ١٢٤٠) منذ السنة الأولى من حكمه الأراضي الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقي وهي "قوتو" و"شوباري" ثم نهب وأخضع الأقاليم الواقعة إلى الشمال الغربي حتى كوما جين فتكون ضده اتحاد في "ناييري" فيما يجاور بحيرة "فان" ولكن الأربعين من الملوك الصغار لهذه البلاد اضطروا إلى الاعتراف بسيادته ودفع الجزية له ثم استدار نحو بابل حيث حكم سبع سنوات ومد غزواته حتى الخليج الفارسي وابتنى هناك مدينة جديدة سماها باسمه "كارتوكولتى اينورتا"

وزودها بالماء عن طريق قناة وبنى معبدًا لأشور فيها كما شيد لنفسه بها قصرًا. وهناك اغتيل أثناء فتنة أثارها ابنه "أشور نادين ابلا" الأول.

تاريخ أشور مدى قرن من الزمان

ولقد ظل تاريخ أشور مدى قرن من الزمان لا يكاد يعرف عنه سوى القليل. وأعيد تمثال مردوك إلى بابل كما أعاد "أشور دان" الأول (حوالي ١١٨٢ - ١١٤٥) رابع خلف لـ"أشور نادين ابلا" غزو منطقة الزاب التي كان قد اضطر لتركها للاستسلام لبابل كما غزا بابل نفسها وجلب منها غنائم قيمة، وإننا لا نعرف شيئًا عن "موتا كل نوسكو" أما "أشور رش ايشي" الأول وهو محارب (حوالي ١١٣٥-١١١٥ (فإننا نراه يحارب منتصرًا ضد الأهلامي واللولومي والقوتي الذين كان أسلافه قد اضطروا لمحاربتهم مرارًا من قبل كما انتصر على نبوخذ نصر الأول البابلي وأعاد بناء أو إصلاح معابد أشور وعشتار.

وبولاية "تجلات فلاسر" الأول بن "أشور رش ايشي" (حوالي ١١١٥ - ١١١٠ (نرى أشور تتقدم وتمد سيادتها حتى البحر المتوسط.

وتعدد الكتابات على المناشير من أربع نسخ التي وضعها في أسس معبد أنو وأداد "في أشور... تعدد الحملات التي وقعت خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه فنراه أولًا يهاجم الموسكيائيين الذين يقطنون الجبال إلى شمال كوماجين: "والذين كان عليهم أن يؤدوا جزية لأشور في أيام "توكولتي أينورتا" ولكنهم كانوا قد استطاعوا أن يستعيدوا استقلالهم الكامل منذ نحو ستين عامًا. ونزل ٢٠٠٠٠ رجل تحت قيادة خمسة ملوك إلى كوماجين فجمع الأشوري جيوشه وعبر تلال الكاشياري فوق نسيبًا، وانقض على كوماجين وأسر ٦٠٠٠ أسير واستحوذ على غنيمة طائلة كما قطع رءوس القتلى وزين بها أعلى قمم أسوار المدن. وبهزيمة كوماجين ضمت إلى الإمبراطورية وألحقت بها. وفي العام التالي تقدم الملك نحو جبال أرمينيا _ وذلك بناء على طلب أشور في الوقت الذي كانت جماعات من الجند تغير على كردستان _ في غابات لا يستطاع اختراقها لم يرتدها أي ملك من قبل"... تقدم في هذه المنطقة الوعرة التي يتعذر استخدام المركبات فيها... تقدم بالمشاه فقط واكتسح كورهي والـ "هاربا" وحمل آلهتهم أسرى ونفى الأهلين وصودرت

ممتلكاتهم وأحرق مدنهم. ثم بدأ الحرب ضد الـ"نابيري" وحاول ٢٣ من صغار الملوك أن يدافعوا عن أراضيهم ولكنهم هزموا وطردوا حتى بحيرة فان واضطروا إلى قبول حماية أشور وتسليم أبنائهم كرهائن وتوريد ١٢٠٠ حصان، ٢٠٠٠ رأس من الماشية كجزية.

وفي السنة الخامسة من حكمه "بعد تحديد يوم ملائم بواسطة حلم" غادر " تجلات فلاسر" أشور ونزل إلى أرض سوهي وفي صعوده إلى الفرات دمر آرام النهرين التي كان يحتلها الاهلامي ووصل إلى قرقميش وهي قلعة الحيثيين على الفرات وعبر النهر وأخضع بلاد موتسرو التي تمتد من الطوروس إلى ما وراءه وواصل فتوحاته إلى أرض عامور، وصاد الملك جاموسة عند سفح لبنان وركب البحر في أرواد وقتل كلب بحر (قرش) في البحر المتوسط. وأصبح الشاطئ وحده تحت حكم أشور التي لم تكن تجرؤ بعد على مهاجمة ممالك الأراميين في تشوبا ودمشق ولا حتى على مقاطعتي صور وصيدا اللتين كانتا قد استعادتا استقلالهما.

ولقد استطاع "تجلات فلاسر" بعد سنوات خمس من ولايته للعرش أن يفخر بأنه أخضع ٤٢ شعبًا بملوكهم.

أما خلفاؤه المباشرون فلم يستطيعوا أن يسيطروا على مثل هذه الإمبراطورية الشاسعة واستطاعت الولايات البعيدة أن تخلع النير عن كاهلها واحدة بعد الأخرى وذلك في مدى قرنين من الزمان.

وقد أعاد "تجلات فلاسر" بناء معبد أنو، أداد في أشور ذلك المعبد الذي كان قد شيده "شامشي أداد" منذ ستة قرون ونصف ودمر في خلال حكم "أشور دان" الذي كان قد اعتزم إعادة بنائه ولكنه لم يستطع أن يفعل وقد أصلح أيضًا معابد أشور الأخرى وكذلك القصور الملكية وأقام من جديد أسوار المدن واستورد الخيل من البلاد التي فتحها وكذا الحمير والماشية كما استورد للصيد الملكي قطعانًا حقيقية من الماعز الوحشي وأمر باستجلاب نباتات لم تكن معروفة في أشور لتزرع في الحدائق والأراضي الملكية.

وقد حارب تجلات فلاسر مرتين ضد بابل خلال النصف الثاني من حكمه وأما ابنه "أشور بعل كالا" فقد عقد معها الصلح وتزوج من ابنة الملك البابلي. ولم يستطع أشور

رابي الثاني أن يمنع الأراميين من أن يستردوا مدن بترو وموتكينو. وأما خلفه الرابع أداد نيرارى الثاني (حوالي ٩١٠- ٨٩٠ (فقد بدأ في بعث أشور فأشهر حربًا انتصر فيها على بابل ثم عقد حلفا معها. وكان ابنه "توكولتي اينورتا" الثاني فاتحًا عظيمًا (٨٩٠- ٨٨٤ :(إذا كان يقوم بحملة كل عام ويكتب يومياته أثناء حملاته ويظهر من يوميات حملة العام الأخير أنه خرج من أشور ونزل في مجرى الترتار إلى الصحراء المجدبة ثم وصل إلى دجلة مارًا بدور كاريجالزو و"سيبار" ثم صعد مع الفرات حتى الهابور متابعًا السير عن طريق بيت حالوبي والشاديكاني ونسيبًا متجهًا نحو بلاد الموسكيين.

ويعتبر "أشور ناتسير ابلا" الثاني (٨٨٤- ٨٦٠) بن "توكولتي اينورتا" أحد أمراء الأشوريين الذين تركوا نقوشًا وآثارًا مرسومة كثيرة. وتوجد كتابات ورسوم له في أطلال قصره بكلح وفي معبد اينورتا وعلى نقوش بارزة وعلى سلة وعلى تمثاله وعلى مذبح وفي كل مكان توجد كتابات أو رسوم له. وكرجل رمم كلح نراه يملؤها بالأسرى الذين استجلبهم من الأقاليم التي فتحتها أسلحته وأتى بمياه الزاب عن طريق قناة زرعت ضفتاها بالأشجار.

ولقد هاجم كردستان في حملته الأولى وفتح "كيرهى" الواقعة إلى شمال "كاشيارى" وكوم جماجم أعدائه في شكل هرمى وفي خريف العام نفسه غزا كوماجين وتسلم هناك جزية من الموسيكين ولكن "بيت حالوبى" ثارت ضد حاكمها الأشورى فأسرع الملك إلى هناك مع جيوشه وقبض على المغتصب والثوار الآخرين، وحكم بالموت على واحد أو اثنين منهم ولف بجلودهم أثرًا أقامه أمام بوابات المدينة، وأما جثثهم المقطوعة الرءوس فقد وضعت فوق الخوازيق وعلقت رءوسهم كتاج فوق الأثر ونقل المدعي إلى نينوى حيث سلخ حيًا وعلق جلده بالمسامير على حوائط المدينة.

وفي عام ٨٨٣ ق.م علم بعد أن تسلم في نينوى هدايا "ايلو ابنى" محافظ سوهي ـ علم أن المستعمرة الأشورية التي أقامها شلمنصر الأول في هالزيلوها قد ثارت فقام إليها ليقر النظام ومر خلال منبع سوبنات وأقام لوحة له بجوار لوحات تجلات فلاسر الأول وتوكولتي اينورتا الأول ثم اخترق كاشيارى ووصل إلى كينابو مركز المقاومة وأخذ نائب

الملك حيًا وسلخه ووضع جلده فوق حائط مدينة دامداموسا أما "توشها" في "نربو" فقد أعيد بناؤها وشيد قصر بها كما أقيمت لوحة ملكية هناك ولما أضر الجوع بالمستعمرين الأشوريين القدماء هربوا إلى شوبري واستقروا في تلك المدينة الملحقة بالأملاك الملكية وخضعت نربو بأكملها وأتت بيت زماني والشوبرى والنردون والأورومى وكل النايرى ليقدموا ولاءهم.

وفي عام ٨٨١ ق.م حدثت ثورة وتكتل عدائي في أقاليم الزاجروس وسد الثوار الممر البابيتى بواسطة متراس ولكن الممر اغتصب ودمرت ١٥٠ مدينة وقرية وعاد الملك في عام ٨٨٠ إلى زاموا للمرة الثالثة. وفي العام التالي دخل إلى كوماجين وكرس قصرًا لـ"توليلى" وتسلم الجزية ثم اخترق ممر عشتارات وتوقف عند كيبالكي. ولما كان سكان كيرهي قد هربوا فإنه طاردهم في الجبال وقطع أيدي أولئك الذين وقعوا أحياء بين يديه. كما دمر في نايبري ٢٥٠ قرية وعند عودته عبر دجلة نزل حتى الفرات وقابل أمير سوهي حليف ملك بابل الذي خرج لمقاتلته. ولكن هذا الأمير هزم وتم الاستيلاء على مدينته وأخذ القائد البابلي أسيرًا. ولم يكد الملك الأشورى يرجع إلى كلح حتى وصل إلى علمه أن ثورة جديدة قد قامت في "سوهي" و"هندانو" و"لاقى" فسار في طريق مضاد للطريق الذي كان قد سلكه "توكولتى اينورتا" الثاني وهزم التكتل وبنى مدينة على كل من ضفتي النهر هما: "كاراشور ناتسير ابلا" على أحد الجانبين و"نيبارتي أشور" على الجانب الآخر.

وفي عام ٨٧٧ ق.م. تقدم نحو قرقميش فأسرع "سانجار" ملك الحيثيين ليقدم له هدايا ذات قيمة وكذا رهائن. وبعد عبور الفرات تقدم نحو أرض "هاتين" التي قدم ملكها "لوبارنا" حرسا وأثاثًا وعتادا حربيًا وعبيدًا ومعادن ثمينة وحيوانات. وعبر الجيش الأورونت وسانجورا وغزا أرض لوهوتي في جنوب حماة على الضفة اليسرى للأورونت وتقدم الملك نحو البحر المتوسط وغسل أسلحته في البحر وقدم التضحيات متبعًا في ذلك الطقس القديم للأمراء السوميرواكاديين. ورغم استمراره في التقدم غربًا فإنه قنع بجزية من صور وصيدا وجبيل (ببلوس) ومهالاتا ومايتسى والعامور وأرواد. وكان من الفطنة بحيث عرف أين يتوقف قبل أن يدخل في صراع مع مملكة دمشق القوية.

وعند عودته من حـملته أمر بـقطع الأرز في أمانوس لإحضـار خشب من أجل تشيـيد مبـاني كلح (نمرود) حيث أسس عـاصمتـه. وقد أعيـد بناء هذه المدينة وهي المقر الصـيفي القديم لأسـلافه وهدم القـصر القـديم الذي كان قد شـاده شلمنصر الأول منـذ أمد طويل وحل مكانه مبنى أضخم منه. وقد كشف هناك عن تمثال للملك ولوحة مستديرة مكونة من قطعة واحدة أما النقوش الملونة التي زينت بها واجـهة الحوائط فإنها تسمح لنا بدراسة الفن الأشورى للـقرن التاسع وأن نـتابع الملك في حـربه أو خروجـه للصيد وأن نـرقب الأمراء المعادين وهم يقـدمون خضوعـهم وأن ندرك لمحة صحيـحة من كثيـر من تفصيلات الحـياة الآشورية.

وأما ابنه شلمنصر الثالث (٨٥٩- ٨٢٤) فقد كـان جنديًا محاربًا قاد ٣٢ حملة في مدة حكمه البـالغة ٣٥ عامًـا ٩٠ ولم يكد يعتلي العـرش حتى توجه إلى سـوريا ليتـسلم جزية صور وصـيدا. وفي السنوات الـتالية دعم نـفوذه في "أورارتو" و"نايبـرى". وفي عام ٨٥٤ ق.م. عاد إلى سـوريا وغزا مملكة "حمـاة" التي كانت تسند ملكهـا "ايزهوليني" قوة متـآلفة على رأسهـا "اداد ادري" الدمشـقي الذي أنزل إلى الميدان ١٢٠٠ مـركبة، ١٢٠٠٠ خـيال، ٢٠٠٠٠ من المشاة. أمـا "أشاب" ملك إسـرائيل وهو صهر ملـك صيدا فـقد أرسل ٢٠٠٠ مركبة، ١٠٠٠٠ رجل. وأما "قي"، و"موتسرو" وهي أقاليم من قيـليقيا الشهيرة بخيلها فلم يرسلوا سوى المشاة. كما ساهمت بـنصيبها أربع مدن فينيقية والبعـثة الأمونية. وجهز ملك عربي ١٠٠٠ جمل. وأمـا صور وصيدا فقد امـتنعتا عن الاشتراك في هذه الثورة واسـتمرتا بفطنة تدفعان الجزية.

وقامت المعركة في قرقار بالقرب من الأورونت وطبقًا لما جاء بالسجلات الأشورية فإن السهل كان أصغر من أن يتحمل الأعـداد الضخمة من الجثث وأن الأرض الواسعة لم تكن تكفي لدفنهـا وقـد أفعم نهـر الأورنت بجـثث الأعداء وأقـيم منهـا مـعبـر على الأورنت. والواقع أن النتيجـة لم تكن حاسمة فإن شلمنصـر لم يجسر _ أو هو لم يستطع _ أن ينتفع من النجاح الذي يفخر به. وقد عاد إلى أشور بعد رحلة بحرية.

وفي عام ٨٥٣ ق.م. قاتل في منطقة منابع دجلة وفي البلاد المحيطة ببحيرة فان وقد شق

طريقه مرتين إلى بابل (٨٥٢، ٨٥١) ليساند "مردوك زاكر شوم" الذي كان أخوه "مردوك بعل أوشاتى" قد رفع لواء الثورة ضده وفي ٨٥٠ أغار على سنجار ملك قرقميش، وأرامى ملك أرنى عند سفح الأمانوس. وفي العام التالي قام بحملة ثانية ضد أرض حماة وقاتل ملك دمشق وأحلافه الذين قاموا بحرب ثانية بعد ثلاث سنوات (٨٤٦). وعلى أية حال، فإنه عند موت "أداد ادرى" استولى مغتصب، يدعى حازائيل على عرش دمشق ومات كذلك "اشاب" والحل الحلف. فلما عاد الملك الأشورى لنزال في ٨٤٢ واجهه حازائيل منفردًا وكان قد حصن نفسه على الـ"سانير" عند مدخل سوريا المتكتلة ولكنه لم يستطع أن يصمد أمام الهجوم وانسحب إلى دمشق فخرب الجيش الأشورى الإقليم المحيط ودمر حوران وعاد ليعسكر عند مصب نهر الكلب حيث أحضرت صور وصيدا وإسرائيل جزاها. وأهم الآثار المرسومة لهذا الحكم مسلة مزينة بنقوش وبعض لوحات من البرونز المطروق عثر عليها في خرائب القصر الصيفي الذي بنى في أمجور ايلليل (بالاوات).

وقد أظلمت أخريات سنين الحكم من جراء ثورة الابن الأكبر للملك المدعو " أشور دانين ابلا" الذي انحازت إلى صفه معظم مدن أشور. وقد استغرقت الثورة أربع سنوات حتى مات شلمنصر (٨٢٤). وكان على ابنه الأصغر "شامشى أداد" الخامس أن يتابع الصراع مدى عامين آخرين قبل أن يتم له النصر. وقد حارب أيضًا في نايرى حيث قاد ثلاث حملات. بل وأكثر من ذلك نراه يتدخل في بابل ويدحر "مردوك بالاتسو اقبى" في "دور بابسوكال" وبعد مدة استطاع أن يهزم ويأسر "باو آخي أدين" خلف مردوك بالاتسو اقبى. ومازال اسم زوجته "سامورامات" التي كشف عن لوحتها في أشور مشهورًا في صورته اليونانية "سميراميس".

وقد خبا ضوء العظمة الأشورية خلال حكمه لفترة قصيرة فلقد أضعفتها الحروب الداخلية ولما خط الملك حدود إمبراطوريته لم يجسر على أن يدفعها غربًا إلى ما وراء الفرات.

أما ابنه "أداد نيراري" الثالث (٨١٠- ٧٨٢ ق.م) فإنه لم يضمن حدوده فتوح شلمنصر الثالث فحسب بل مدها من الخليج الفارسي وحدود عيلام حتى صحراء مصر. ولكن

التوسع لم يكن يستحق الذكر في ناحية الشرق أو الشمال: وكان الميديون قد بدءوا يتحفزون ولم تكن أورارتو التي هزمها شلمنصر عام ٨٢٩ وشامشى أداد عام ٨١٩ ق.م لتقبل الهزيمة ولكنها استغلت كل فرصة لمحاولة استعادة استقلالها.

وقد حارب شلمنصر الرابع (٧٨٢- ٧٧٢) الأرامين الذين كانوا يحاولون الانتشار في ميزوبوتاميا فقد دست حملات في أورارتو وواحدة في ناحية جبل أمانوس (٧٧٥) واثنتين ضد دمشق (٧٧٣) ومدينة هزرق (772) على التوالي.

وتابع أشور دان الثالث (٧٧٢ _ ٧٥٤ ق.م) الصراع ضد الأراميين (769) فأرسل حملة إلى ميديا في ٧٦٦ وضد هزرق في السنة التالية. وانتشر الطاعون في أشور وكسفت الشمس في سيمانو (٧٦٣) وكان ذلك كافيًا كي يوحي للناس بعقوبة السماء. وثارت أشور وتابعتها في ذلك، محتذية مثالها مدن أخرى كثيرة. ولم يستطع الملك أن يعاود الكرة ضد مدينة هزوق إلا بعد عشر سنوات من تاريخ حملته الأولى ضدها.

ولم تقم حروب في السنوات الأربع الأولى من حكم أداد نيراري الرابع (746 -754) ولكنا نراه يقوم بحرب في عام ٧٤٩، ٧٤٨ ق.م. ضد "نامرى" فيما وراء الزاب الأسفل وثارت كلح في عام ٧٤٦ ق.م. وحارب تجلات فلاسر الثالث الذي ربما كان أحد أشقاء الملك... حارب العصاة وإننا لنراه في العام التالي وقد اعتلى العرش. ولقد كان أميرًا عظيمًا (٧٤٥- ٧٢٧ (استطاع أن يرتفع بأشور فوق كل جيرانها وأن يجعل لها سيادة مطلقة دون منافس. ولما استحوذ على الملك في الثالث عشر من أيار عام ٧٤٥ ق.م. هاجم نابوناسار البابلي في خريف تلك السنة ونهب مدينتين أو ثلاثًا في أكاد وحمل آلهتها أسرى. وعند موت نابوناسار انتهز فرصة الحرب الأهلية فعاد إلى أكاد و"أخذ بيد بعل" وجعل من نفسه "ملكًا على سومير وأكاد وملكًا على الأقاليم الأربعة" تحت اسم بولو (٧٢٩).

ولقد انتهز الأراميون فرصة الانحلال المؤقت لآشور لينتشروا في ميزوبوتاميا وعرف تجلات فلاسر الثالث حوالي ٣٥ قبيلة من قبائلهم "مستقرة على ضفاف دجلة والفرات والسواربو حتى الاوكنو (كرخا) على ضفاف البحر الأدنى".

ولقد قام بحملات أربع ضد مدينة "أرباد" وتدخل في الشئون الداخلية لـ"يودى" كي يعيد إلى العرش بانامو الثاني الكارى الذي قتل أباه أحد المغتصبين وقد قدمت له الجزية كوماجين ودمشق وصور وصيدا وببلوس)جبيل) وقى وقرقميش وحماة وجورجوم ومليد مدن أخرى في قيليقيا ومليثين وأخيرًا زبيبة ملكة سبأ في بلاد العرب.

ولقد أتبع تجلات فلاسر الثالث طريقة جديدة في الغزو، إذ أنه كان ينفي سكان الأقاليم المغزوة ويحل حكامًا أشوريين في مكان الملوك المهزومين، وقد أقر في المنطقة الواقعة من حماة إلى الشاطئ أقوامًا استحضرهم من لولومو في الزاجروس ومن نايبري قرب بحيرة فان.

وفي ٧٣٧ ق.م قامت حرب في الشرق ضد ميديا. وفي ٧٣٥ حدث توسع جديد إلى ناحية الغرب فكانت هناك حملة ضد فلسطين ونهبت غزة ووضع هوشع على عرش إسرائيل. وفي ٧٣٣ و٧٣٢ قامت حروب ضد دمشق وتنافس العرب الذين كانوا يعيشون على حدود أراضي الغرب. في سرعة إرسال الذهب والفضة والجمال والعطور للمرة الأولى: وكانوا يأتون من تيما وسبأ وبادانا في أرض مدين ومن مدن كثيرة أخرى.

وقد تدخل في شئون إسرائيل عندما قامت ثورة ضد صنيعته هوشع كما ثبت في عسقلان سلطان روكبتو الذي كان أبوه قد تنازل عن العرش واستولى مقابل تدخله هذا على جانب من الإمارة ثم عين أحد الحكام على العرب أنفسهم.

وقد ترك تجلات فلاسر عند موته لابنه إمبراطورية أوسع مساحة وأقوى تنظيمًا منها في أي وقت سابق.

وحكم شلمنصر الخامس (٧٢٧ -٧٢٢) مدى ست سنوات. وقد عرف في بابل تحت اسم "اولولاى" ولقد كان حاكمًا على فينيقيا منذ حملة عام ٧٣٣ ق.م ولما عاد من هناك إلى أشور ثارت صور فاضطر إلى معاودة زيارة شواطئ البحر المتوسط والتوجه جنوبًا لتسلم جزية هوشع وسرعان ما كان ملك إسرائيل يتآمر مع مصر فخرج الجيش الآشوري ليحاصر عاصمته ساماريا مدى ثلاث سنوات.

السـرجونيون

مات شلمنصر في الشهر العاشر من عام ٧٢٢ ق.م وبعد أيام قلائل اعتلى عرش أشور سرجون الثاني (٧٢٢- ٧٠٥) وهو من أصل مجهول. وقـبل نهاية العام استسلمت سامريا وتبعًـا للخطة التي اسـتنها "تجلات فـلاسر" الثـالث طرد الإسرائيليين... البـعض منهم إلى ناحيـة حران والبـعض إلى ضفـاف الهابور والبـعض أخيـرًا إلى ميـديا. وقد حل مـحلهم الأراميـون من إقليم حمـاة ثم لحق بهم العرب هناك في عام ٧١٥ وكـذا بعض الأهلين من كوثا وبابل في ٧٠٩.

وقـد ثارت بابل في بداية عـام ٧٢١ ق.م واستطاع مـردواخ بالادان الثـاني الارامي من بيت ياكين أن يستـولى على السلطة وأن يحكم مدى اثنى عـشر عامًـا. وقد عقـد حلفا مع هومبانيجاش ملك عيلان الذي هزم الآشوريين في دير.

وكان تقدم أشور نحو شاطئ البحر المتوسط قد بدأ يقلق مصر فنجح سيبو قائد جيوش فرعـون الذي كان قد عقـد اتفاقًا مع هوشع مـلك إسرائيل في بداية حكمه نجح في تجـميع حلف تحت قيادة "ياؤو بعدى" ملك حماة وقد أسهمت فيه ارباد وسميرا ودمشق وسامريا. وتمت المعركـة في قرقار كـما حدث في عـهد شلمنصر الثـالث وأخذ "ياؤو بعدى" أسـيرًا وسلخ حيًا. وقد تكاثر الأشوريون في حماة تحت قيادة أحد القواد.

وقد أعـيد تكوين التـحالف بعـيدًا إلى الجنوب بزعـامة "سيـبو" وجـر وراءه ملك غزة فهاجـمهم سرجون واضطروا إلى التراجع نـحو رفح على حدود مصر وهرب سـيبو تحت ضغط الأشوريين وحمل ملك غزة أسيرًا إلى أشور.

أما في شـمال الإمبراطورية فـقد كان أحد القـواد الطموحين لـ"أورارتو" وهو " أورسا الأول" يحاول أن يثـير الدسائـس منذ عشر سنوات فـاستولى مـيتانى مـن زيكارتو في عام ٧١٩ ق.م بإيعاز منـه وبدون قتال على مـدينتين ولكنهمـا استعـيدتا ودمرتا بـالنيران وطرد أهلوهما إلى سوريا.

وفي الغرب بدأ ملك الموشـيين المدعو ميداس بن جـورديوس الفريجي يتحرك كنتـيجة لنفس المؤثر. وفي عام ٧١٧ ق.م. خلـع "بيسيريس" الملـك الحيثي لقمـرقميش وأصـبحت

مدينته مستعمرة أشورية. وفي الأعوام التالية قامت حملات جديدة ضد أورارتو كما اجتيحت في عام ٧١٦ البلاد الواقعة فيما بين بحيرتي فان واورميا وقامت غارة جديدة في عام ٧١٥. وفي عام ٧١٤ قامت حملة أخيرة انتهت، بموت اورسا.

ثم استدار سرجون إلى ناحية قيليقيا وتابال وموسكو واستطاع في عام ٧١٣ ق.م أن يبسط نفوذه حتى هاليس واستورد من هناك الأحجار والمعادن والأخشاب الثمينة لتشييد دورشاروكين" وهي المدينة الجديدة التي أنشئت في شرق نينوي على موقع قرية ماجانوبا.

ويتميز عام ٧١١ بحملة على فلسطين ذلك لأن ملك أسدود كان قد تمرد وحاول بتحريض من مصر أن يحمل الفلسطينيين واليهود والأودميين والموآبيين على التمرد فخلع ولكن الشعب رفض أن يعترف بالملك الجديد الذي نصبته أشور فهزمت جات مع الاسدوديين وضمت إلى الإمبراطورية تحت رعاية حكام من القواد. وعندئذ حاول سرجون أن يعيد فتح بابل. وقد استهدفت قبيلة جامبولو للهجوم الأول وتجمعت قبائل أخرى على طول الكرخا حيث حوصروا واضطروا للتسليم. وقامت مظاهرة على حدود عيلام وهرب "مردواخ بالادان" وفتح كهنة بابل بوابات المدينة للمنتصر!

وفي بداية عام ٧٠٩ ق.م أخذ ملك آشور بـ"يد بعل" وأصبح الحاكم الشرعي لبابل وعندما هدأ إقليم الفرات الأدنى أقر فيه المنفيون من الأقاليم الحيثية وكوماجين كما أنشئت فقط للمحافظة على الأمن على طول حدود عيلام. ولأول مرة نرى ملك دلمون على الخليج الفارسي يرسل جزية وكذلك يفعل ميداس الذي قهر نهائيًا. كما أرسل سبعة ملوك من جزيرة قبرص هدايا ومسحوا بإقامة لوحة في ستيوم (لارناكا) أمر سرجون بأن تحفر عليها صورته الملكية ورموز الآلهة العظمى لبابل وأشور.

وفي عام ٧٠٨ أصبحت كوماجين مقاطعة أشورية تحت قيادة حاكم مزود بقوات حربية عظيمة. وفي العام التالي افتتح سرجون القصر ومدينة دور شاروكين بعد رحلة في جنوب كلديا ولكن لم يقدر له أن ينعم بهما طويلًا وذلك لأنه قتل في الشهور الأولى من عام ٧٠٥ ق.م.

وكان سرجون قد أتقن الطريقة التنظيمية التي وضع أسسها تجلات فلاسر فهو لم

يكتنف بأن نفي الشعوب المغـلوبة على أمرها وعمل على مزجهم بأجناس مـختلفة، بل أنه استن طريقة جـديدة للاندماج والاحتـلال بأن جعل بعض الأشوريين يسـتوطنون في المدن الرئيسية المغزوة. ورغم ذلك فإن الحيوية الخـاصة بالشعوب المنقولة ظلت تنمو حتى اضطر خلفاؤه إلى الدخول في حرب ليحافظوا على تماسك المجموعة.

وقد أنشـأ سرجـون مكتبة نـينوى كما شـجع التجـارة عن طريق إنشاء أسـواق جديدة والزراعـة عن طريق عـمل خـزانات وقنوات. وكـان قـصـره في دور شاروكـين مزخـرفًا بالنقوش التي تجدر دراستـها مع مقارنتها بنقـوش قصر أشورنا تسير ابلا فمـوضوعاتها لم تتغيـر تقريبًا ولكن الذي تناوله التغييـر كان الأسلوب: فأصبح الأشخاص أكـبر من الحجم الطبيعي كما تطورت النقوش وانتشـرت. ولعل الأسد البرونزي المقيد ككلب الحراسة عند بوابات هذا القصر يعتبر كمثل من أروع أمثلة الفن الأشورى.

ولم يكد سناخـريب (٧٠٥- ٦٨١ ق.م) بن سرجـون يعـتلي العرش حـتى ظهر مـدع استطاع أن يسـتولي على السلطة في بابل فـخرج مروداخ بالادان مـن مستنقـعه وطرده في الشهر التالي (٧٠٣) وحكم هو مدى تسعـة شهور. وقد اعتمد _ كما كانت الحال من قبل _ على القوات العيلاميه لتسنده. وحالما خرج
ملك أشور لمهاجـمته جمع قواته بالقرب من كـيش على مبعدة ثلاثة فراسخ من عـاصمته. ولكن الأشورى هزمه واستقبلته بابل استقـبال المنتصرين. وقد وضع الملك الأشوري عليها "بغل ابنى" بمثابة نائب ملك (٧٠٣-٧٠٠ (وهو بابلي نشأ في بلاطه، ثم أمضى عامًا كاملًا في تحطيم قوى الـقبائل الأرامـية للفرات الأدنى وهم أولئك الـذين كان العرب قـد تسربوا بينهم والذين كثر عددهم في أوروك ونيبور في سـومير وفي كيش وكوثا في أكاد. ثم ارتد مرة أخرى ضـد الأراميين في ميزوبوتامـيا ونفي وطرد أكثر من مـائتي ألف من بينهم. وقام بغـارة على الكاسيـين وبسط عليهم نفـوذ حـاكم أرافا ثم أكـمل عمـله في الشرق ببـعض المظاهرات على حدود ميديا.

وأما في الغـرب فلم يكن ملك صور ليسـتطيع أن يحتمل خـضوع الأمراء القبـرصيين لأشور وهم الذين كانوا يدفعون الجزية من قبل ويتجرون مع مدينته ولذا نراه يرسل جيوشًا

لاستعادة "ستيوم" وهي المدينة التي كان سرجون قد أقام فيها لوحته. فأرسل سناخريب في عام ٧٠١ جيشًا قويًا وجهه ضد صور ولم تحارل صيدا أو عكا أو المدن الأخرى الساحلية المقاومة ولكنها فتحت بواباتها للأشوريين فهرب ملك صور إلى قبرص حيث مات بها. أما المواطنون فنظموا الدفاع عن المدينة التي ظلت مصونة. أما فينيقيا التي كانت قد نظمت شئونها كولاية واحدة فقد قررت عليها جزية.

أما في كنعان فإن مصر كانت قد استمرت، تدبر إشاعة الاضطراب فيها وكان عنصر التآمر صدقيا العسقلاني وقد انضوت تحت لوائه يافا وأكرون وأورشليم ولكن صدقيا هزم وأسر ونهبت مقاطعة يافا فأرسل أمراء الدلتا وفرعون هددا. وقامت الحرب في سهل إلى جنوب أكرون وخرج الأشوريون من المعركة منتصرين واستولوا على المدينة وعلقوا جثث زعماء الثوار على الأسوار ثم اتجه الثوار على الأسوار ثم اتجه نحو يهوذا واستولى على ٤٦ قرية محصنه وحاصر أورشليم وتمردت حامية المدينة، الأمر الذي اضطر الملك حزقيا إلى المفاوضة وتعهد بدفع جزية قدرها ٣٠ وزنة من الذهب مضافًا إليها ما زنته عشرة أمثال ذلك من الفضة. كما أرى نفسه مضطرًا علاوة على ذلك إلى قبول الانتقاص من مقاطعته.

وقد وجد سناخريب نفسه مضطرًا عقب عودته إلى أشور إلى مقاتلة "بعل ابنى" ملك بابل الذي خان عهده ولم يبر بقسمه. فطارد موشزيب مردوك"الكلداني الذي كان قد أعلن استقلاله وكذا "مروداخ بالادان" الثاني الذي هجر "بيت ياكين" وركب البحر وهرب إلى "ناجيتي رقى". وبأسر "بعل ابنى" وضع "أشور نادين شومى" ابن الملك الأشورى على عرش بابل _ 700) ٦٩٣).

وفي عام ٦٩٩ ق.م. قامت حملة إلى كردستان والإقليم الغربي لبحيرة فان وفي عام ٦٩٨ اتجه جيش لإخضاع قيليقيا التي كان حاكمها قد رفع لواء الثورة فأسر وأحضر إلى نينوى وسلخ حيًا. وفي عام ٦٩٥ قامت حملة إلى أرض تابال.

ويتميز عام ٦٩٤ ق.م. بعملية حربية جديدة تمامًا _ لم يكن لدى سناخريب أسطول ليطارد "مروداخ بالادان" إلى عيلام بحرًا فأمر بإنشاء أسطول جزء منه في "كارشو لمانو أشاريد" و(برجيك) على الفرات والجزء الآخر في نينوى على دجلة. وقد استغرق إنشاء

هذا الأسطول عامًا كاملًا وكان العمال صوريين وصيدائيين وقبرصيين وأبحرت السفن من نينوى حتى أوبيس حيث نقلت برًا حتى قناة أراهتو التي استطاعوا بواسطتها الوصول إلى الفرات. وتم ضم جزءي الأسطول في "باب ساليميني" واتجه الأسطول كله إلى مصب الأوليوس. وهزم "مروداخ بالادان" وأخذ جنده والجيوش العيلامية التي سندته إلى الأسر. وسرعان ما دخل المعركة "هاللودوش" ملك عيلام وغزا بابل وثار السكان ضد "أشور نادين شومى" وسلموه لـلعدو وأعلنوا المدعو "نرجال شريب" ملكًا عليهم. وعاد الجيش الآشورى وانتشرت المذابح في كل مكان وأسر نرجال شزيب بالقرب من نيبور. أما "موشزيب مردوك" فقد ظهر مرة أخرى وعقد حلفا مع عيلام.

ولقد حاول الملك الآشورى أن يستغل _ في نهاية عام ٦٩٣ _ ثورة قامت في عيلام استطاع "كوتور ناهونتى" من ورائها أن يخلع "هاللدوش". وقد تراجع العيلاميون في مبدأ الأمر إلى الجبال ولكن الأمطار والثلوج سقطت بغزارة في بداية عام ٦٩٢ حتى اضطر الجيش الآشورى إلى التراجع ومات "كوتور ناهونتى" بعد ذلك بفترة قصيرة وخلفه أخوه الأصغر "أومانيجاش" وقد أرسل جيوشًا ضد أشور بناء على التماس ملك بابل: فقامت معركة كبيرة في هالولي التي لا تبعد كثيرًا عن ملتقى التورنات بدجلة ولكنها لم تكن حاسمة (٦٩٠).

وفي نفس العام بسط سناخريب سلطانه على بعض القبائل العربية التي هربت جيوشها إلى ناحية أدوماتو (الجوف) عند مدخل نفود "وهو مكان مجدب لا طعام فيه ولا شراب" وقد سار ملك أشور على طرف الصحراء حتى الحدود المصرية ونصب معسكره في لاشيس وأرسل من هناك رسلًا إلى حزقيا ملك يهوذا فأسرع طهرقة الملك الأثيوبي نحو الميدان وتجهز الجيش الآشوري للمعركة ولكن بعد ما تحمله من حرمان من جراء قسوة الطبيعة في أقاليم الصحراء هلك جزء كبير منه يضاف إلى ذلك ما قاساه من جراء وباء انتشر عن طريق الفيران فدفع ذلك كله الملك إلى أن يتخلى عن خطته التي كان قد دبرها للمعركة وأن يأمر بالانسحاب.

وكان "موشزيب مردوك" في بابل يثير متاعب جديدة فقرر سناخريب أن يضع حدًا

لذلك فاستولى على المدينة وجعل عاليها سافلها وأشعل فيها النيران ثم أغرقها. وبعد ثماني سنوات أي في العشرين من تبت من عام ٦٨١ ق.م. بينما كان الملك يصلي في المعبد اغتاله ابنه "اراد ملكات" و"نابوشار أوتسور" الذي سمى العام المذكور باسمه.

وقد جدد سناخريب نينوى التي كان سرجون قد هجرها وزودها بكمية وافرة من ماء الشرب وبنى بها قصراً زينه بالنقوش التي بدأت تظهر فيها الصفوف العليا من اللوحات المصورة وميل واضح إلى التدقيق في نقش المناظر. كما وسع المكتبة التي أسسها أبوه وأدخل في أشور عدداً من النباتات والأشجار الجديدة.

ولم يستطع أراد ملكات أن ينتفق بما جناه من قتل أبيه فبينما هو يستعد لإعلان نفسه ملكًا جمع أخوه أسار حدون (٦٨١- ٦٦٨ ق.م) أعوانه وحارب أخاه وهزمه وتوج نفسه ملكًا بعد مقتل سناخريب بـ٤٢ يومًا.

أولما كان من أم بابلية فإنه عول على أن يقيم من جديد العاصمة المهدمة. وكان نابوزر كنوليشير بن مروداخ بالادان الثاني يحاول في الوقت نفسه أن ينتهز فرصة تغيير الملك فأثار "أرض البحر" وتقدم لمحاصرة أور ولكنه هزم واضطر إلى الهرب إلى عيلام حيث قتله "حومانالداش" الثاني (٦٨١-٦٧٥ (وسرعان ما خضع أخوه ناعبد مردوك.

وأما في سوريا فإن فرعون كان يحاول استعادة نفوذه وقد ثار "عبدي ملكوتي" ملك صيدا بإيعاز منه. وقد انتهت الجملة الأولى بنهب مدينته وأسر في عام ٦٧٦ ق.م وقطع رأسه وحمل إلى نينوى. وقد لقى نفس المصير شريكه "ساندواري" ملك سيس في قيليقيا ونفى الناس جماعات وحلت محل صيدا مدينة جديدة هي "كاراشور احا ادين" وعين عليها حاكم آشوري وسكنها كلدانيون أسروا في العام الأول من حكمه.

وكان الآراميون وخاصة قبيلة "بيت داكوري" يتآمرون في بابل حتى استطاعوا أخيراً أن يدفعوا "حومانالداش" أن يعيرهم عونًا محسوسًا فاستولى الجيش العيلامى على سيبار ولكن موت الملك المفاجئ اضطر خلفه "أورتاكو" إلى أن يكف عن الاعتداء.

وأراد "أسارحدون" أن يتابع الصراع القديم ضد مصر وأن يدخل إلى الدلتا التي لم يسبق لجيش آشوري أن تقدم نحوها فشق طريقه حتى سيل مصر (وادي العريش) (٦٧٥)

ولكنه استدعى إلى بلاده ليواجه حلفا من الآريين والسكيثيين والميدين الذين كانوا يتهددون الحدود الشمالية والشرقية للإمبراطورية وكان سرجون (٧٢٠) قد هزم مجموعتين من السكيثيين والاشكوازي والسيميريين القادمين من قارة أوربا ولكن السميريين استطاعوا إذ هناك أن ينحدروا ويستقروا في أحواض الاراكس والهاليس. أما الاشكوزاى فقد استقروا بالقرب من المانيين في مكان ليس بعيدًا عن بحيرة فان. فهاجم أسار حدون تيوشبا قائد السميريين وطرده إلى آسيا الصغرى ثم هزم الاشكوزاى المتحالفين مع المانيين.

وأرسل الجيش الآشوري مرة أخرى إلى مصر... ولكن ليس عن طريق سوريا بل عن طريق الصحراء الذي كان سصناخريب قد سلكه.

وقد استطاع الجيش أن يخضع وهو في طريقه بعض القبائل العربية التي قتل ملوكها الصغار. ولم يكد الجيش يصل إلى الصحراء السورية حتى اضطر للعودة لمقابلة العيلاميين والميديين (٦٧٣) وانضم الجامبولو إلى آشور ضد عيلام واضطر ملوك "ميديا" (الميديين) حين ضيق عليهم الخناق عند سفح ديما فاند إلى الخضوع وتقديم الجزية.

وقد استدعيت الحشود المسخرة من سوريا جميعًا وكذا من قبرص لينقلوا إلى نينوى المواد المطلوبة لبناء قصر جديد. وكان بعل ملك صور قد أقسم يمين المعاهدة مع أشور: ولكن لم يمنعه ذلك من أن يتصل بطهرقة ملك أثيوبيا متآمرًا فحوصرت مدينته في بداية عام ٦٧١ ق.م. وهو الجيش الآشوري بها نحو النوبي إلى رابيحى (تل رفح) حيث أحضر العرب جمالًا لعبور الصحراء وشق الجيش طريقه للمرة الأولى في أرض مصر. ووصل بعد خمسة عشر يومًا إلى منف وهو يقوم بمعركة تلو معركة. وفي الثاني والعشرين من تموز (يوليه) استسلمت المدينة بعد مقاومة استغرقت نصف يوم وفر طهرقة إلى الجنوب وأسرت زوجته وحريمه وأولاده. وأعيد الأمراء الأقدمون في المدن المهزومة إلى وظائفهم وأن ألحق ببلاطهم ضباط وكتاب آشوريون.

قعقعة الثورة تدوي في آشور فذبح الملك في عام ٦٧٠ق.م

وكانت قعقعة الثورة تدوي في آشور فذبح الملك في عام ٦٧٠ق.م.

الكثيرين من أمرائه الذين لم يكونوا ليقبلوا بغير تذمر اختيار آشور بانيبال الابن الأصغر

لاسار حدون وريثًا شرعيًا للتاج الآشوري في الوقت الذي كان عرش بابل وحده من نصيب ابنه الأكبر شاماش شوم أوكين.

وفي العام التالي كانت الأمور في مصر تتطلب تدخلًا جديدًا إذ عاود طهرقة الظهور واستعاد منف فاتخذ أسر حدون الخطوة للتقدم لولا إنه سقط مريضًا ثم مات في العاشر من مارهشوان (أكتوبر _ نوفمبر) عام ٦٦٩ ق.م.

فأمر آشور بانيبال (٦٦٩- ٦٢٦) رئيس الجيش أن يتابع السير وأن يجمع كل القوى في الدويلات التابعة له التي يمر بها في طريقه فهزم جيش طهرقة بالقرب من كاربانيت في الدلتا وتقدم الآشوريون في وادي النيل حتى طيبة وأعيد تنظيم البلاد. ولكن لم تكد الجيوش تعود إلى سوريا حتى تآمر ثلاثة من ملوك الدلتا بقصد الاستقلال وهكذا غزيت الدلتا جميعها مرة أخرى ونهبت سايس ومندس وتائيس. ولما مات طهرقة (٦٦٦) استولى ابن أخيه تانداماني (تانوت آمون) على طيبة وأونو (هليوبوليس) واتجه نحو منف حيث كانت قوات البوليس الآشورية مركزة. ووصل الجيش النينوى إلى الميدان واضطره إلى الانسحاب جنوبًا وطارده إلى النوبة ونهب مدينة طيبة وحمل معه مسلتين كعلامة من علامة النصر.

وكانت إحدى نتائج هذه الحملة تهدئة سوريا حيث لم يجرؤ أي ملك على معاودة التآمر. وقد ذاعت شهرة أشور بانيبال في آسيا الصغرى فأرسل جيجس ملك ليديا إليه وفدًا ملتمسًا عونه في صراعه ضد السيميريين الذين كانوا يهددون دولته: وفي الوقت الذي كانت ليديا تحارب هؤلاء الآريين هاجمت آشور أحلافهم المانيين والميديين (حوالي ٦٦٠) الذين كانوا قد اتحدوا تحت قيادة رئيس واحد.

والتمس "شماش شوم أوكين" العون من أخيه ضد العيلاميين الذين انتشروا في بابل بفضل تستر الجمبوليين. وقد هزم ملكهم "أورتاكو" ومات (٦٦١) واستولى على العرش مغتصب يدعي تيومان وطلب أن يسلم إليه الأمراء العيلاميون الذين كانوا قد التجئوا إلى نينوى. وقد دعا هذا إلى قيام حرب جديدة فهزم "تيومان" في "تولليز" في جنوب سوسه وحمل رأسه رمزًا للنصر وقسمت عيلام إلى مملكتين وضع على عرشيهما ابنًا "أورتاكو" وهما: "هومبا نيجاش" الثاني "وتاماريتو".

وقد كان "شاماش شوم اوكين" سببًا في إشعال نار الحرب من جديد، إذ أن هذا الامير كون حلفًا ضـد أخيه حوالي ٦٥٢ ق.م. ضم كل أمـراء كلديا كما انضم له هومبـا نيجاش وكذلك فـعلت شعـوب الجبل وقد امـتد هذا الحلف غـربًا عن طريق بلاد العرب إلى شـبه جزيرة سـيناء وسوريا، ولكن هذه الحركة قـمعت في قوة وعنف وقـاست بابل من السيف والنار والدم وحـسس شمـاش شـوم اوكين نفسـه في قصـره وأشـعل فيـه النار وهلك في لهيبها. أما كلديا فقد أقيم عليها حكام أشوريون (٦٤٨).

وكان "تامـا ريتو" في عيلام قـد خلع أخاه وانضم إلى الحلف البابـلي فخلعه مغـتصب يدعى "اندابيـجاش" ولكن سـرعان مـا حل محـله "أوما نالداسي" ثم "أومـباهابوا" وتقـدم الجيش الآشوري نحـو سوسه وأعاد "تماريتـو" ولكن سرعان ما تحرك وظـهر أوما نالداسي وانتهى التدخل الجـديد بنهب وتحطيم سوسه (640)ولم ترع حرمة الموتى إذ حملت عظام ملوكهم إلى آشـور وحرمت أرواحهم من الراحـة وذلك بعدم تقديم القـرابين الجنزية. وقد حاول بسـماتيك في مـصر أن يكون حلفًـا وتلقى مددًا من جـيجس الليـدي ولكن الوثائق المسمارية لا تتحدث عن قمع هذه الثورة وإن كانت تذكر فقط موت جيجس في صراع بين السيميريين كما تذكر رسالة أرسلها ابنه إلى الملك الآشوري يعترف له فيها بولائه.

وقد وجـهت عدة حـملات ضـد العرب وقـامت غارة أولى وصلت إلى نبـاتين وذلك عقب سقـوط بابل مباشرة فاصطنع ملك نبـاتين الخضوع ولكن سرعان ما اسـتدعت الحال العـودة إليه: وحـاول العرب أن يسـتدرجـوا الجـيش الآشوري إلى الصـحراء ولكنه أخـذ مـعـسكرات "اتار سـامـايين" والكيـدارنيين واسـتطاع "واتى" بن "بيـرددا" _ الذي كـان الآشوريون قد نصبوه ملكًا _ أن يهرب ولكنه طورد وسادت المجاعـة وانتشر الطاعون بين العرب الذين خانوا ملكهم وسلموه إلى العدو فحمل إلى نينوى وربط من فكه الأسفل إلى سلسلة كلب وعرض على البوابة الشرقية للمدينة.

وصلت آشور وقـتئذ إلى أوجـها: وبلغ اتساع الإمـبراطورية إلى أقصى مـا وصلت إليه وكانت نينوى قد طفحت وامتلأت بالثراء وكان الأمراء الأسرى يجرون عربة آشور بانيبال حين يذهب إلى المعـبد ليـقدم الـشكر للمعـبود من أجل إنـه مهـد له دائمًا سـبيل النصـر.

وجمعت في المكتبة التي أسسها سرجون أهم الوثائق للآداب البابلية والأشورية وزينت قاعات الاحتفالات في القصر بالنقوش التي بلغ بعضها القمة من ناحية الدقة الفنية.

وينقطع قصص الحوليات في عام ٦٣٦ ق.م. وليس بها نبأ ما عن النزاع الذي أدى بهذه الإمبراطورية إلى الانهيار بعد أقل من ثلاثين عامًا.

ولقد كونت في الشرق _ هضبة إيران _ القوة التي قدر لها أن تغزو أرض آشور وتحاصر نينوى وتزيلها من وجه الأرض إلى الأبد. وربما أتى الميديون والفرس من أوربا عبر القوقاز واستقروا هناك الأول في الجنوب والآخرون في الشمال وكان الآشوريون قد دخلوا في صراع للمرة الأولى في القرن التاسع مع بعض القبائل الميدية، وفي القرن التالي نفى سرجون بعضهم إلى سوريا وأحلى محلهم السامريين وبعض الشعوب الأخرى المغلوبة على أمرها. وقد استطاع "دايا اوكو" وهو (De Joces عند اليونان) في خلال حكمه أن يجمع شمل قبائل متعددة ويعلن نفسه ملكًا واختار "اكبتاني" عاصمة له وخلفه فرافارتي Phraortes) _ حوالي ٦٤٧ - ٦٢٥) وضم بعض الولايات المجاورة وانتصر على الفرس الذين انتهز ملكهم تايسبس فرصة تدمير سوسة، ليستولى على جانب من عيلام ويعلن نفسه ملكًا على انشان ثم هاجم عندئذ آشور ولكنه سقط في ساحة القتال مع معظم جنده.

وأعاد سياس كسار ابنه تنظيم الجيش على النظام الآشوري. ولما دخل ساحة الحرب مرة أخرى هزم القواد الآشوريون وحوصرت نينوى ولكن جيشًا جديدًا اشترك في الصراع وهم السكينيون القادمون من أوربا والذين كانت تربطهم آشور صلات منذ أكثر من قرن من الزمان فهاجموا الميديين من المؤخرة وهزموهم إلى الشمال من بحيرة أورميا واجتاحوا إقليمهم ثم انقضوا على آشور وحرقوا كلح وآشور ودمروا كل ما لقوه في طريقهم وانتشروا بعد ذلك في البلاد التي كانت تدفع الجزية ووقفوا في النهاية على حدود مصر تقديرًا للهدايا الثمينة التي قدمها لهم بسماتيك.

وحوالي عام ٦١١ استطاع "سيا كسار" أن يرفع النير. وكان آشور بانيبال قد مات (٦٢٦ _ ٦٢٥) واحل العرش ابنان له على التوالي وإن لم يكن ذلك بغير صراع نظرًا

لظهور مدعين لـلعرش. ولم يستطع ثانيهـما سنشار اشكون" أن يبسط نفـوذه خارج آشور نفسـها إلا على بضع مـدن بابلية ظلت موالـية له ثم أعلن "نابوبو لاسار" الـكلداني حاكم بابل نفسه ملكًا وسرعان ما تحالف مع الميدى ضد مولاه القديم وحوصرت نينوى وسقطت ودمرت بالنار والفيضان (٦١٢).

وتحطمت الإمبراطورية الآشورية إلى الأبد ورددت الشعوب التي خلعت نيرها كلمات النبي اليهودي:

"كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك:

لأنه على من لم يمر شرك الدام؟".

قائمة تاريخية لأمراء آشور ومن يعاصرهم من أمراء سومير وأكاد

علامة * تسبق أسماء الأمراء الآشوريين الذين لدينا نقوش عنهم

علامة × تدل على المعاصرين:

أوشبيا	ترتيب غير معروف	
كيكيا	ذكرهما ملوك متأخرون	
	ايري كابكابو	
سوليلو (؟)		
*زاريكوم	حوالي ٢٠٤٠	بورسن ملك أور
١- بوزور أشير الأول		**الأسرة الأولى البابلية**
٢ *شاليم أهوم		
٣ *ايلوشوما الأول	٢٢٢٠ × ١ _ سوموابوم	٢٢٢٥ _ ٢٢١٢
٤ *اريشوم الأول	٢٢٠٠ × ٢ _ سومولا ايلوم	٢٢١٢ _ ٢١٧٦
٥ *ايكونوم	٣- زابيوم	٢١٧٥ _ ٢١٦٢
٦- سرجون الأول		
٧- بوزور أشير الثاني	٤- أبيل سن	٢١٦١ _ ٢١٤٤
٨- أهي أشير	٥- سن موبالليت	٢١٤٣- ٢١٢٤
٩- رم سن	٦- حمورابي	٢١٢٣ _ ٢٠٨١
١٠- ايلوشوما الثاني		**الأسرة الثانية**
١١- أريشوم الثاني		× ايلوما ايلوم
١٢- شماشي أداد الأول		ايتي ايلي نيبي
١٣- اشمي دجان الأول	٧- سمسو ايلونا	٢٠٨٠ _ ٢٠٤٣
١٤- ...أششات	٨- ابيشو	٢٤٠٢ _ ٢٠١٥ داميق ايليشو
١٥- ريموش	٩- أمي ديتانا	٢٠١٤ _ ١٩٧٨
١٦- أداسي	١٠- أمي زادوجا	١٩٧٧ _ ١٩٥٧ ايشكيبال (معاصر بعل بابي)
١٧- بعل باني	١١- سامسو ديتانا	١٩٥٦ _ ١٩٢٥ Weidner, Assur, 4128

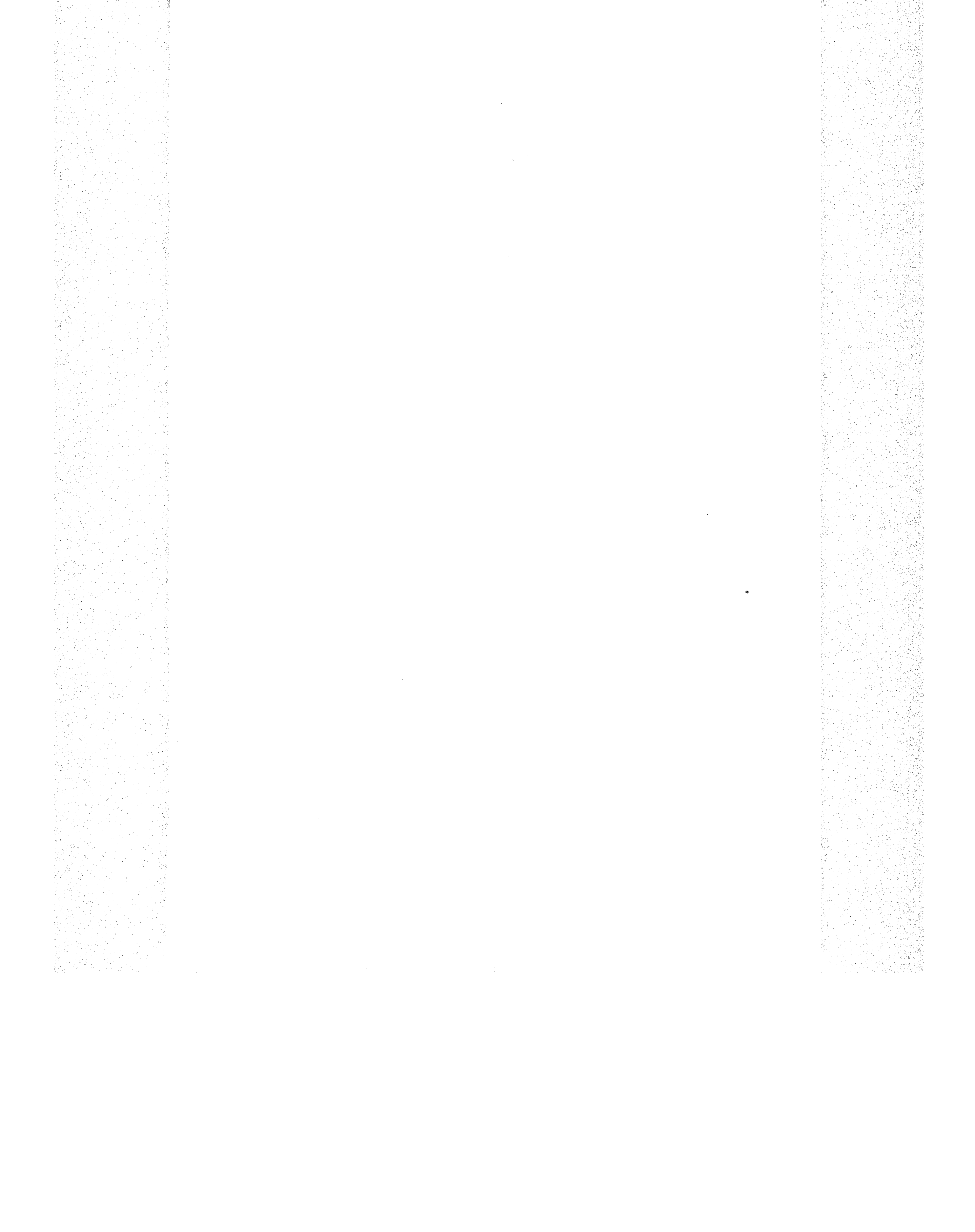
١٨- شابابا		شوشي
١٩- شارما أداد الأول		كولكشار
٢٠- جيزيل سن		...رن
	الأسرة الثالثة	
٢١- زمزايا		
٢٢- لولايا		
٢٣- بان نينوا		
٢٤- شارما أداد الثاني		
٢٥- أريشوم الثالث	١- جنداش	حوالي ١٧٦١ -١٧٤٧ بشد اجالدا راماش
٢٦- شمشي أداد الثاني	٢- أجوم الأول	١٧٤٥ _ ١٧٢٤ أدارا كالاما
٢٧- اشمي دجان الثاني	٣- كشتلياش الأول	١٧٢٣ _ ١٧٠٢ ايكورو لانا
٢٨- شامشي أداد الثالث	٤- ابيراتاش	١٧٠١ _ ١٦٩٤ ميلامكور كورا
	٥- كشتلياش الثاني	أيا جميل
	٦- تازيجوروماش	
	٧- هارباشيباك	
	٨- ...	
	٩- أجوم الثاني	
	١٠- كوريجالزو الأول	
	١١- ملشباك الأول	
٢٩- ...		
٣٠- بووزر أشير الثالث	١٢- نازيما رو تاش الأول	
٣١- انليل هتسير الأول		
٣٢- نور ابلي		
٣٣- اشمي دجان الثالث		
٣٤ *اشير نيراري الأول	١٣- بور نابورياش الأول	
٣٥ *بوزور أشير الرابع		
٣٦- انليل نتسير الثاني	١٤- كشتلياش الثالث	
٣٧- أشير رابي الأول	١٥- أجوم الثالث	
٣٨- أشير نيراري الثاني		في مصر
٣٩- أشير بعل نشيشو	١٦- كارا انداش الأول	× أمنحتب الثالث حوالي ١٤١٣ _ ١٣٧٧

٤٠- أشير رم نشيشو	١٧- كوريجالزو الثاني	
٤١ *أشورنا دين أهي	١٨ × كادشان الليل الأول	
٤٢ *اريبا أداد	١٩ × بورنابورياش الثاني	أمنحتب الرابع حوالي ١٣٧٦ _ ١٣٦١
٤٣ *أشور أوباليت	٢٠ × كادا انداش الثاني	
	٢١× كاد شمان حاربي الأول	
	ناز يبوجاش (مغتصب)	
	٢٢× كوريجالزو الثالث	
٤٤ *ايلليل انبراري		٢٣ سنة حوالي ١٣٥٧- ١٣٣٥
٤٥ *أريك دن ايلي		
٤٦ *اداد نيراري الأول	٢٣ _ نادي مارو تاتش	٣٦سنة حوالي١٣٣٤ _ ١٣٠٩
٤٧ *شلمنصر الأول حوالي ١٢٩٠ _ ١٢٦٠	٢٤_ كاد شمان تورجو	١٧ سنة حوالي ١٣٠٨ - ١٩٢٩
	٢٥_ كادشمان ايلليل الثاني	٦ سنة حوالي ١٢٩١ _ ١٢٨٦
٤٨* توكولتي اينورتا الأول ١٢٦٠ _ ١٢٤٠	٢٦- كودور ايلليل	٩ سنة حوالي ١٢٨٥ _ ١٢٧٧
	٢٧- شاجاراكتي شورياش	١٣ سنة حوالي ١٢٧٦ _ ١٢٦٤
	٢٨- كاشتلياش الثالث	٨ سنوات حوالي ١٢٦٣ _ ١٢٥٦
	٢٩- ايليل نادين شوم	١,٥ سنة حوالي ١٢٥٥-١٢٥٤
	٣٠- كدشمان حربي الثاني	١,٥ سنة حوالي ١٢٥٤ -١٢٥٣
	٣١- أداد شوم ادين	٦ سنوات حوالي ١٢٥٢ _ ١٢٤٧
	٣٢- أداد شوم أوتسور	٣٠ سنة حوالي ١٢٤٦ - ١٢١٧
٤٩ *أشور نادين أبلا الأول		
٥٠ *أشور نيراري الثالث ٦ سنوات	٣٣- مليشيباك الثاني	١٥ سنة حوالي ١٢١٦- ١٢٠٢
٥١- ايلليل كودور أوتسور٥ سنوات	٣٤- مروداخ بالادان الأول	١٣ سنة حوالي ١٢٠١- ١١٨٩
٥٢- اينورتا أبال ايكور الأول ١١٨٢ _ ١١٤٥	٣٥× زبابا شوم أدين	١ سنة حوالي ١١٨٨
٥٣- أشور دان الأول	٣٦- ايلليل نادين أهي	٣ سنوات حوالي ١١٨٧ - ١١٨٥
	الأسرة الرابعة	
٥٤- اينور تاتو كولتي أشور	١- مردوك شابيك زيريم	١٧ سنة حوالي ١١٨٤ _١١٦٨
٥٥- موتاكل نوسكو ٦	٢- اينورتا نادين شومي	٦سنوات حوالي ١١٦٨ - ١١٦٢

٥٦- أشـــور رش ايشي الأول حوالي ١١٣٥-١١١٥	٣× نبوخودو روسور الأول		
	٤× ايلليل نادين ابلي		
٥٧- تجلات فلاسر الأول حوالي ١١١٥ _ ١١٠٠	٥× مردوك نادين أهي		
٥٨- اينورتا أبال ايكول الثاني	٦- اتي مردوك بلاتي		
٥٩- آشور بعل كالا الأول	٧× مردوك شابيك زرماتيم		
	٨× أداد أبال ادين	٢٢ سنة	١٠٩٥-١٠٧٤
٦٠- ايلليل رابي	٩- مردوك أهي	١,٥ سنة	١٠٧٣
٦١- آشور بعل كالا الثاني	١٠- مردوك زر	١٢ سنة	١٠٧٢-١٠٦١
	١١- مردوك شوم ليبور	٨ سنوات ما بين	١٠٦٠-١٠٥٣
	الأسرة الخامسة		
٦٢- اريبا	١- شيماش شيبا	١٨ سنة ما بين	١٠٥٢ _ ١٠٣٢
٦٣- شمشي أداد الرابع	٢- ايامو كوكين شومي	٥ شهور	١٠٣٥
٦٤- آشور نتسير أبلا الأول ١٩ سنة	٣- كاشرو نادين أهي	٣ سنوات	١٩٣٤-١٠٣٢
	الأسرة السادسة		
٦٥- سلمنصر الثاني ١٢ سنة		١٧ سنة	١٠٣١-١٠١٥
٦٦- آشور نيراري الرابع ٦ سنوات	١- أولماش شاكين شومي	٣ سنوات	١٠١٤ _ ١٠١٢
٦٧- آشور رابي الثاني ١٠١٢ _ ٩٩٥	٢- اينورتا كودور أوتسو	٣ شهور	١٠١٢
	٣- شرقتو شوقامونا		
	الأسرة السابعة		
٦٨*آشـــور رش ايشي الثـــاني ٩٩٥-٩٦٦	ماربيتي أبال أوتسور	٦ سنوات	١٠١١-١٠٠٦
	الأسرة الثامنة		
٦٩ *تجلات فلاسر الثاني ٩٦١-٩٣٣	١× نابوموكين أبلي	٣٦ سنة	١٠٠٥-٩٧٠
	٢× اينورتا كودور أوتسور الثاني		٩٧٠
	٣× ماربيتي أهي أدين		٩٧٠-٩٤٦
٧٠- آشور دان الثاني - ٩٣٣-٩١١	٤× شماش موداميق		٩٤٥-٩٠٥

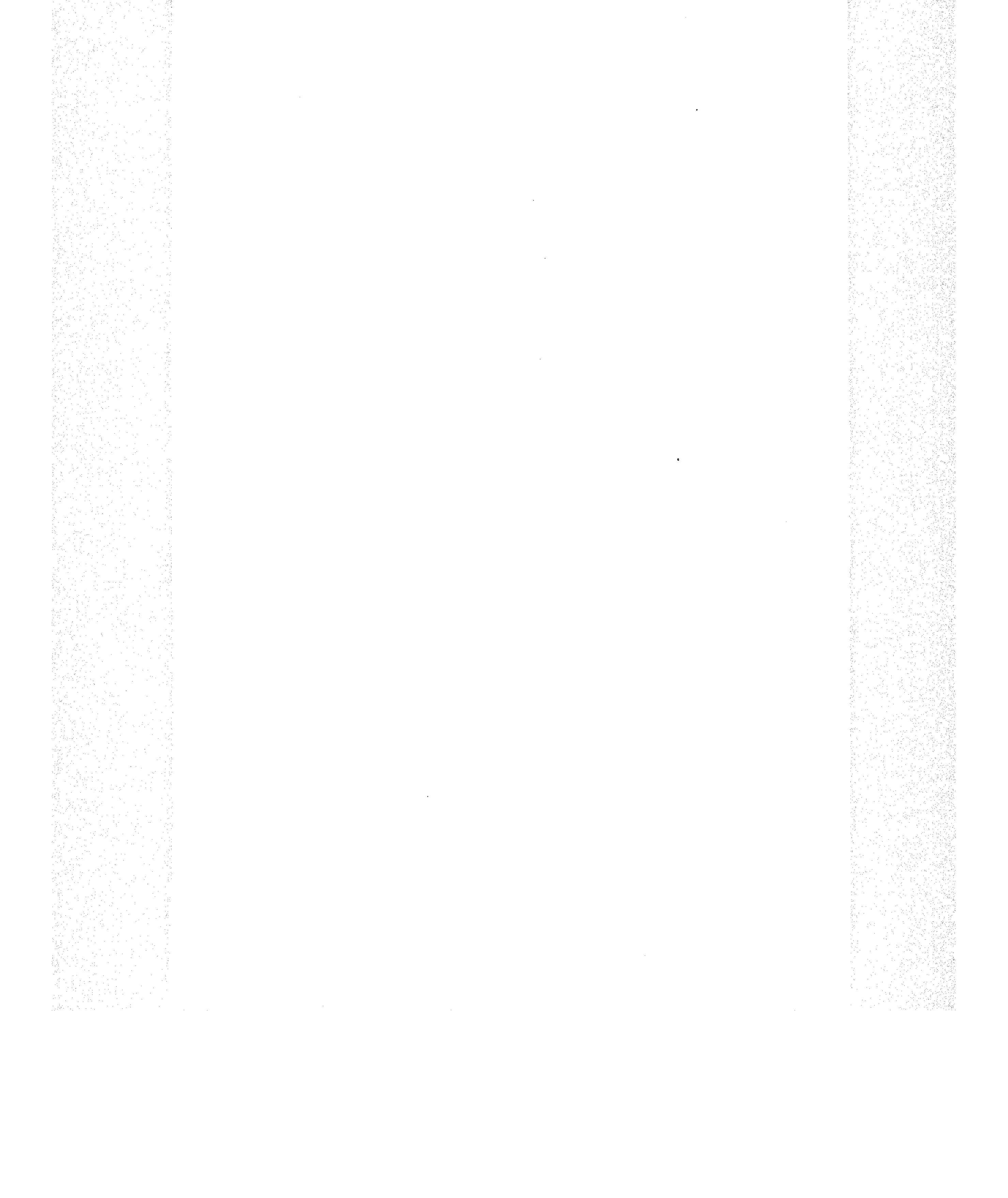
٧١ *أداد نيراري الثاني	٩١١- ٨٩٠	
	×٥ نابوشوم أوكين	٩٠٥- ٨٨٥
٧٢ *توكولتي اينورتا الثاني	٨٩٠ _ ٨٨٤	
	×٦ نابو ابلا أدين	٨٨٥- ٨٥٢
٧٣ *آشور ناتسيرابلا الثاني	٨٨٤- ٨٥٩	
٧٤ *سلمنصر الثالث	٨٥٩- ٨٢٤	
آشور دانين ابلا (مغتصب)		
	٧- مردوك زكير شوم	٨٥٢- ٨٢٢
٧٥ *شمشي أدان الخامس	٨٢٤ _ ٨١٠	
	٨- مردوك بالاتسو ايقبي	٨٢٢ _ ٧٩٤
	٩- باوو أهي أدين	
	١٠- مردوك بعل	
	١١- مردوك أبال أوتسور	
٧٧- سلمنصر الرابع٧٨٢ _ ٧٧٢	١٢- اريبا مردوك	٧٨٢ _ ٧٦٢
٧٨- آشور دان الثالث ٧٧٢ _ ٧٥٤		
	الأسرة التاسعة	
	١- نابو شوم اشكنون الثاني	٧٦١- ٧٤٨
٧٩- أداد نيراري الرابع	٧٥٤- ٧٤٦	
	٢- نابو ناسار	٧٤٨ _ ٧٣٤
٨٠ *تجلات فلاسر الثالث	٧٤٥ _ ٧٢٧	
	٣- نابو نادين زر	٧٣٢
	الأسرة العاشرة	
	١- نابو أوكين زر	٧٣٢- ٧٢٩
	٢- بولو	٧٢٩ _ ٧٢٧
٨١ *سلمنصر الخامس٧٢٧ _ ٧٢٢	٣* أولولاي	٧٢٧- ٧٢٢
٨٢ *سرجون الثاني ٧٢٢ _ ٧٠٥	٤- مردواخ بالادان الثاني	٧٢١ _ ٧١٠
	×٥ سرجون	٧٠٩- ٧٠٥
٨٣ *سناخريب ٧٠٥ _ ٦٨١	×٦ سناخريب	٧٠٥ _ ٧٠٣
	٧- مردوك زاكين شوم	٧٠٣
	٨- مروداخ بالادان الثاني	٧٠٣
	٩- بعل ابنى	٧٠٣- ٧٠٠

	١٠- آشور نادين شومي	٧٠٠ _ ٦٩٤
	١١- نرجال شزيب	٦٩٤- ٦٩٣
	١٢- موشزيل مردوك	٦٩٣ _ ٦٨٩
	١٣- سناخريب	٦٨٩- ٦٨١
٦٨١- ٦٦٩	١٤× أسارحدون	٦٨١ _ ٦٦٩
٨٤ *أسارحدون ٦٦٩- ٦٢٦	١٥× شماش شوم أوكين	٦٦٨- ٦٤٨
٨٥ *آشور بانيبال	١٦- كاندا لانو	٦٤٨- ٦٢٦
٨٦ *آشور اتيل الياني ٦٢٦	١٧- آشور اتيل الياني	٢٦٦
	الأسرة الحادية عشر	
	١- نابوبو لاسار	٦٢٥- ٦٠٤
٨٧- سن شوم ليشير	١٨× سن شوم ليشير	
٨٨ *سن شارا اشكون ٦١٢	١٩× سن شار اشكون	٦١٢



الفصل الرابع

العصر الآشوري



الفصل الرابع
العصر الآشوري

العصر الآشوري

استقر الآشوريون في القسم الشمالي من العراق، ربما منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، واندمجوا بالسكان الذين عرفوا بالسوباريين. ولم يكن الآشوريون بالأقوام الغربية أو الأجنبية عن معظم سكان العراق الآخرين الذين عاشوا قبلهم أو بعدهم، فهم ينتمون إلى الأصول نفسها وإلى الشجرة ذاتها التي تفرعت عنها الأقوام الأكدية والبابلية (الأمورية) والكلدية والآرامية والعربية، وهي الأقوام الرئيسة التي استوطنت العراق منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد فصاعداً. وكان منبت تلك الشجرة الأولى في شبه الجزيرة العربية، مهد الأقوام الجزرية (العربية القديمة)، والتي كانت تسمى سابقًا بالأقوام السامية، كما هو متفق عليه الآن بين جمهور الباحثين، وتكلم الآشوريون لهجة من لهجات اللغة الأكدية، وهي اللغة التي انتشر استخدامها في أنحاء العراق منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد وحتى أواخر الألف الأول قبل الميلاد.. واستخدموا الخط المسماري ذاته الذي ابتدعه السومريون وطوّره الاكديون والبابليون، واتصفت معتقداتهم الدينية وأفكارهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية ونظمهم الأخرى المختلفة بالصفات العامة التي اتصفت بها معتقدات ونظم وأفكار إخوانهم بقية سكان العراق حتى غدا من الصعب على الباحث أن يميز بين أصول العناصر الحضارية العراقية القديمة أهي سومرية أم أكدية، بابلية أم آشورية، بل إن التشابه الحضاري الكبير بين الشمال والجنوب، ولاسيما بين الاكديين والآشوريين في عهدهم القديم، قد دفع البعض إلى الاعتقاد بأن الآشوريين كانوا قد استقروا في بداية أمرهم في جنوبي العراق ثم نزحوا إلى الشمال في فترة متأخرة نسبيًا.

ومنذ أن استوطن الآشوريون القسم الشمالي من العراق، عرفت المنطقة في النصوص المسمارية ببلاد آشور، وربما كانت التسمية نسبة إلى اسم أول عاصمة لهم هي مدينة آشور ومن ثم أطلق الاسم على الإله القومي للآشوريين. وظلت هذه التسمية شائعة حتى القرون الأخيرة من الألف الأول قبل الميلاد أي حتى بعد زوال كيان الآشوريين السياسي.

وقد شهدت المنطقة التي عرفت ببلاد آشور أولى مستوطنات إنسان العصر الحجري القديم في العراق في وقت كان القسم الجنوبي من العراق غير آهل بالسكان.. وكشف عن مخلفات العصر الحجري القديم في عدد من الكهوف والمغارات، وفي العصر الحجري الحديث، ضمّت بلاد آشور أولى المستوطنات الزراعية، وكان الإنسان العراقي القديم يعيش في تلك العصور الطويلة حياة بسيطة بدائية معتمداً فيها، بداية الأمر، على ما يمكن اصطياده من حيوانات، وما يمكن جمعه من أثمار وحبوب برية، ثم غدت حياته تعتمد على إنتاج القوات بعد أن اهتدى إلى الزراعة وتدجين الحيوان، غير أن التحديات الطبيعية التي واجهها الإنسان لم تكن من القوة والقسوة بحيث تدفعه إلى توحيد الجماعات الصغيرة التي كانت تعيش في القرى الزراعية البسيطة في وحدات كبيرة ومتطورة على غرار ما حدث في القسم الجنوبي من العراق بل ظلّت حياة تلك الجماعات بسيطة ردحًا طويلاً من الزمن، حتى بدأت بوادر الحضارة الناضجة في القسم الجنوبي من العراق تمتد بتأثيرها نحو الشمال، وهكذا كان الآشوريون خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، وكذلك خلال الألف الأول قبل الميلاد، على اتصال وثيق بما كان يجري في القسم الوسطي والجنوبي من العراق من تطورات حضارية، بل وأصبحوا في عصرهم الحديث جزءاً من تلك التطورات، يتأثرون بها ويؤثرون فيها، ويبدو أن الشعور بوحدة أرض العراق وتكاملها الحضاري والاقتصادي، بل والشعور بوحدة وتكامل المنطقة بأسرها (من سواحل الخليج العربي وحتى البحر المتوسط، ومن أطراف الجزيرة العربية وحتى بلاد عيلام) لم يكن غائبًا عن الأقوام العراقية القديمة سواء أكانوا في الشمال أم في الجنوب. وهكذا نجد، ومنذ فترة مبكرة جدًا، محاولات القادة العراقيين، أمثال لوكال زاكيزي وسرجون الأكدي وحمورابي البابلي وسرجون الآشوري ونبوخذ نصر الكلدي وغيرهم، باتجاه توحيد أرض العراق والبلدان المجاورة، وإنشاء دولة مركزية واحدة قوية تهيمن على المنطقة بأسرها، وقد نجحوا

أحيانًا كـثيرة، كما تشـهد بذلك الإمبراطوريات التي أسـسّها سرجون الأكـدي وحمورابي وسرجـون الآشوري مثلاً، وأخـفقوا أحيـانًا أخرى في مواجهـة الغزو الأجنبي الذي توالى على أرض العـراق منذ أقـدم العـصور، كـالغـزو الكوتي والكشي والأخـمـيني الفـارسي والمقدوني، وسـواء أكان الدافع الأساسي للشـعور بضرورة وحدة المنطقـة الذي هو أساس قوتهـا نوعًا من الإحسـاس القومي أو الوطني بوحدة المصـير في مواجـهة الأخطار الكامنة على الحدود، ولاسيـما في الجبهـة الشرقية والشمـالية الشرقية، أم كـان الدافع تفهّم أولئك القادة العظام ضرورة تكامل المنطقة الاقتصادي لتحقيق الرفاهية العامة، أم كليهما معًا، فقد كان الهدف واحدًا وهو العمل على خلق دولة مـركزية قوية واحدة قادرة على إدارة شؤون المنطقة بحدودها الواسعـة. وقد تطلبَ تحقيقُ ذلك الدخول في صراعات سـياسة وعسكرية حادة ومريرة غير أن نتائجها الاقتصادية والحضارية كانت أكبر وأعظم.

وإذا تجاوزنا عصور ما قبل التأريخ التي سـبق الحديث عنها والتي انتهت بابتداع الكتابة وسيـلة للتداوين يمكن أن نقـسم تاريخ الآشـوريين الطويل إلى أربع مراحل رئيـسيـة هي: عصر التبعـية السومرية _ الأكدية الذي شغل الألف الثالث قـبل الميلاد، والعصر الآشوري القديم الذي يقابل تقريبًـا العصر البابلي القديم، والعصـر الآشوري الوسيط الذي يبدأ من حوالي أواسط الألف الثاني قبل الميلاد وينتهي باعتلاء ادد _ نراري الثاني العرش الآشوري عـام ٩١١ ق.م، وأخـيراً العـصـر الآشـوري الحديث وهـو العصـر الإمـبـراطوري للدولة الآشورية الذي تميز بالقوة والازدهار واستمر حتى نهاية الآشوريين السياسية عام ٦١٢ ق.م بسقوط العاصمة نينوى.

أولاً: عصر التبعية السومرية - الأكدية

كـانت بلاد آشور طـوال الألف الثالث قـبل الميـلاد خاضـعـة للنفـوذ الحضـاري، وربما السياسي، للدولة الـسومرية والأكدية التي قامت في القـسم الجنوبي والوسطي من العراق، عن بلاد آشـور في النصف الأول من هذه الفـتـرة، وهي التي تسـمى عـادة بعـصور فـجـر السلالات (حدود ٣٠٠٠ _ ٢٤٠٠ ق.م) قليلة جدًا، ولا تتجاوز بعض المخلفات المادية من أبنية وفخـاريات وغيرها، ولنا أن نتصـور الوضع في بلاد آشور في هذه الفترة مـشابهًا إلى

حد كبير للوضع في بلاد سومر في الفترة ذاتها، حيث نشأت عدة مدن ومراكز حضارية في المنطقة كمدينة آشور ونينوى وغيرهما، وربما كان بعضها على هيئة دويلات مدن صغيرة ومستقلة. وعندما قامت الدولة الأكدية التي كانت سياستها المركزية تسعى لتوحيد جميع الدويلات والمراكز الحضارية في الشمال والجنوب كان لابد من وقوع بلاد آشور ضمن نفوذها وسيطرتها. وتشير الأدلة الآثارية المتوفرة إلى أن مدينة آشور نفسها كانت تمثل أحد المراكز الإدارية المهمة التابعة للدولة الأكدية في حين أظهرت التنقيبات التي أجريت في كل من مدينتي آشور ونينوى آثار النفوذ الأكدي السياسي والحضاري بشكل واضح. ففي نينوى عُثرَ في الطبقة السادسة من معبد الآلهة عشتار على اسطوانات حجرية منقوشة بكتابة يرقى تاريخها إلى عهد الملك الأكدي نرام _ سين (٢٢٩١- ٢٢٥٥ ق.م) حفيد سرجون، كما عثر في نينوى أيضًا على رأس تمثال من النحاس المسبوك لملك يُظنّ إنه سرجون أو نرام _ سين، وفي السنوات الأخيرة عُثرَ عن طريق الصدفة على تمثال من البرونز لشاب جالس وعليه كتابة تشير إلى عهد نرام _ سين.

أما في آشور، فقد كُشفَ عن عدد من النصوص القصيرة التي تذكر اسم الملك مانشقوسو بن سرجون وأخاه ريموش إضافة إلى الكشف عن أبنية ضخمة من بينها قصر واسع وجزء من زقورة معبد الإله انليل تحمل طابعًا أكديًا، ولا تقتصر التأثيرات الأكدية في بلاد آشور على الأساليب والطرز المعمارية والفنية والمعتقدات الدينية، بل جاوزتها لتشمل اللغة والكتابة. فاللهجة الآشورية القديمة تحمل تأثيرات اللهجة الأكدية القديمة، في حين اقتبس الآشوريون الكتابة المسمارية من السومريين والأكديين واستخدموها للتدوين طوال حياتهم السياسية. أما الآشوريون أنفسهم، فيبدو إنهم كانوا قد احتفوا بذكرى طيبة عن الأكديين إلى درجة أن بعض ملوكهم العظام، كالملك سرجون، قد سموا أنفسهم بأسماء أكدية معروفة.

وإبان الغزو الكوتي لبلاد سومر وأكد في أعقاب سقوط الدولة الأكدية، يبدو أنه أصاب بلاد آشور ما أصاب بلاد سومر وأكد حيث كُشفَ عن آثار تخريب في الطبقات السكنية التي ترقى بتاريخها إلى فترة الاحتلال الكوتي، وذلك في كلّ من مدينة آشور ونينوى، ولا يعرف هل أن بلاد آشور وقعت تحت النفوذ الكوتي أو أنها انسلخت عن تبعيتها للجنوب وأقامت لها سلالة محلية مستقلة.

وما أن تمّ طرد الأقوام الكوتية الغازية من بلاد أكـد، وقامت سلالة أور الثالثة في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد حـتى وقعت بلاد آشور ثانية تحت نفوذها. وقد كشـفت التنقيبات التي أجريت في مدينة نينوى عن معبد شيـدّه الحاكم زريقم للآلهة "سيدة القصر"، من أجل حياة سيّده "امار _ سين ملك أور". وبعبارة أخرى أن زريقم كان تابعًا للملك السومري في أور. وكانت سـلالة أور الثالثـة قد أقامت لهـا دولة مركـزية موحدة شـملت جمـيع أنحاء القطر بما في ذلك بلاد آشور، ووصلت بنفوذها حتى سوريا وآسيـا الصغرى غير أن نهايتها على أيدي الأقوام العيلامية الغازية من الشرق الذي رافقه تدفق الأقوام الأمورية من الغرب أنهى عهد دولة القطر الواحد، وأعـاد العراق إلى عهد التجزئة والانقسام، كـما كانت عليه الحال في عصـور فجر السلالات، فـقامت عدة سلالات حـاكمة مسـتقلة في كل من بابل وآشور وايسن ولارسا واشنونا والدير وغيرها.

ثانيًا: العصر الآشوري القديم

أطلق المؤرخون على الحقـبة التي أعقبت سقـوط سلالة أور الثالثة وحتى سـقوط سلالة بابل الأولى عام ١٥٩٥ ق.م مصطلح العصر البابلـي القديم بالنسبة لبلاد بابل. أما في بلاد آشور فـيمكن تسمـية الحقبـة بين ٢٠٠٠ إلى ١٥٢١ ق.م، وهي حقبـة مقابلة تقـريبًا لحقـبة العصر البابلي القـديم، باسم العصر الآشوري القديم. وقد قامت في مـدينة آشور، كما في غيرهـا من المدن الرئيسة في العراق، سـلالة حاكمة مـستقلة. وكان الصـراع بين السلالات الحـاكمـة في بداية هذا العهـد عنيفًـا للسيـطرة على الطرق التجـارية والأراضي الزراعيـة، واستـمر هذا الصـراع، كما سـبقت الإشارة إلـى ذلك، لحقبـة جاوزت القرنـين حتى تولى العرش الـبابلي حـمورابي، فأعـاد للعراق وحـدته، وقامت دولـة حمورابي لـتضمَّ جمـيع الدويلات والمدن العـراقـيـة في الشـمـال والجنوب بما في ذلك بلاد آشـور، ومن خـلال المعلومات المتـوفرة لدينا يمكن أن نميز ثلاث مراحل رئيـسة مرتّ بها بلاد آشـور خلال هذا العصر.

أما المرحلة الأولى (من سقوط أور في حدود عام ٢٠٠٦ ق.م وحتى عام ١٨١٤ ق.م)، فـإن معلومـاتنا عنها قـليلة، وفي الغالب غـامضـة، ولا تعـدو أحيـانًا أسمـاءَ بعض الملوك

والحكام وأعمالهم العمرانية، كما وردت في جداول الملوك الآشوريين التي دُوِّنت في فترة متأخرة وكذلك في بعض نصوص الأبنية التذكارية، إضافة إلى ذلك، لدينا بعض المعلومات المستقاة من النصوص المكتشفة في المستوطنة التجارية الآشورية في منطقة كيدوكيا في آسيا الصغرى. ويستفاد من أحد النصوص المسمارية أن أحد الملوك الآشوريين وهو الملك ايلوشوما (حوالي ١٩٦٢ _ ١٩٤٢ ق.م) كان من القوة إلى درجة أنه قام بحملة على بلاد بابل، ربما للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى بلاد عيلام والخليج العربي، سالكًا الطريق الواقع إلى الشرق من نهر دجلة. وادّعى ايلوشوما إنه "حرر مدينتي أور ونفر" اللتين كانتا تقعان على الطريق التجاري إلى الخليج العربي. وتنقطع معلوماتنا عن بلاد آشور في الحقبة التالية، وربما وقعت تحت نفوذ مملكة اشنونا شرقي بلاد بابل، ومع الغموض الذي يكتنف تاريخ بلاد آشور في هذه الملحة، فقد جاءت معلومات غزيرة وهامة عن علاقات بلاد آشور التجارية مع شرقي بلاد الأناضول وذلك من النصوص المسمارية المكتشفة في منطقة كيدوكيا في موقع كانش (كول تبه حاليًا). فقد أشارت هذه النصوص التي دُونت باللغة الأكدية إلى وجود جماعات من التجّار الآشوريين كانت تقطن في شرقي بلاد الأناضول في مراكز تجارية ذات تنظيمات إدارية وقانونية خاصة بها. وكان كلٌ مركز تجاري من هذه المراكز يُدْعى كاروم. وكان تجّار الكاروم يمارسون مختلف الأعمال التجارية، ويقومون بدور الوسيط بين الدولة الآشورية الأم وبين الدويلات المحلية في بلاد الأناضول، فكانت القوافل التجارية الآشورية تذهب محملة بالمنسوجات والملابس الآشورية والبابلية وخامات القصدير، التي كانت تستورد أصلاً، وتعود إلى بلاد آشور بالذهب والفضة والنحاس (ربما الرصاص) والأحجار الكريمة.

ولا توضّح المعلوماتُ المتوفرة حاليًا طبيعة العلاقة بين هذه المراكز التجارية وبين الدويلات المحلية والدولة الآشورية الأم. ويبدو من طبيعة أعمال هذه المراكز إنها كانت خاضعة سياسيًا لأمراء الدويلات المحلية مع تمتعها بنوع من الاستقلال الذاتي والحماية العسكرية مقابل ضرائب معينة كانت تُدفع للأمراء المحليين. أما علاقة هذه المراكز مع الدولة الآشورية فيبدو إنها كانت علاقة الفرع بالأصل حيث كانت تدين بالديانة الآشورية وتتبع نظم وتقاليد وقوانين الدولة الآشورية وتعيش حياة الآشوريين مع بعض التأثيرات

المحلية، تؤيد ذلك الاتفاقات والعقود التجارية والقوانين الآشورية المكتشفة في كانش والتي تشابه ما كان معروفًا في بلاد آشور الأصلية. ومن الطبيعي أن وجود هذه المراكوز في بلاد الأناضول كان عاملاً في نقل العديد من العناصر الحضارية الآشورية إلى بلاد الأناضول ولعل أبرز مثال على ذلك هو استخدام الخط المسماري لكتابة اللغة الحثية فيما بعد.

ويبدو أن الظروف التي ساعدت على نشوء هذه المراكز وازدهارها في الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد قد تغيرت باتجاه معاكس حيث عمّ بلاد الأناضول فترة من الارتباك السياسي نتيجة تحركات الأقوام الهندو _ أوربية، وتدفقها إلى بلاد الأناضول، فأنهارت الكيانات السياسية المحلية، وتدهور نشاط هذه المراكز التجارية وانحسر، فكانت نهايتها مما أثر كثيرًا على الحياة الاقتصادية في بلاد آشور، ودخولها في فترة تدهور اقتصادي.

تبدأ المرحلة الثانية من تاريخ الآشوريين في عصرهم القديم بانتعاش اقتصادي وسياسي ملحوظ في أعقاب فترة التدهور والاضمحلال، وتمكن (شمشي سادد) الأول، أحد زعماء الأموريين، وهم من الأقوام التي سيطرت على الأوضاع السياسية في معظم الدويلات البابلية التي قامت في بداية العصر البابلي القديم، من تأسيس سلالة جديدة في بلاد آشور وذلك عام ١٨١٤ ق.م استمرت تحكم بلاد آشور بشكل مستقلّ إلى أن قضى على استقلالها الملك البابلي حمورابي. وتشير المعلومات المستقاة من النصوص المسمارية، ولاسيما تلك المكتشفة في مدينة ماري على أواسط الفرات، إلى قوة شخصية (شمشي _ ادد) وحنكته السياسية حيث تمكن من تأسيس دولة سيطرت على المنطقة الشمالية والغربية من العراق، وضمّ إلى دولته مملكة ماري، وعيّن ابنه الأصغر نائبًا له فيها. وكانت علاقات الدولة الآشورية مع مملكة كركميش وقطنة في شمال سوريا علاقات ودية ضمنت علاقات تجارية نشطة، في حين كانت العلاقات مع مملكة يمخد، التي كان مركزها مدينة حلب، علاقات عدائية لوقوف الأخيرة إلى جانب حكام مملكة ماري السابقين. كما تمكن)شمشي _ ادد) من بسط نفوذه وسيطرته على المنطقة الشرقية من بلاد آشور، وقام بعدة حملات على القبائل الكوتية والتوركية فيها. عاصر (شمشي _ ادد) في سنواته العشر الأخيرة الملك

البـابلي حمـورابي، وكانت عـلاقاته مـعه ودّية، وبعـد وفاته اعـتلى العرش الآشـوري ابنه (اشمي _ داكان) الذي حكم فـترة تقرب من أربعين عامًـا، غير إنه لم يتـمكن من المحافظة على حدود الدولة التي كـان والده قد أسسهـا، فانسلخت بعض الأقاليم عن سلطتـه وعُقد حلف بين مملكة يمخـد ومملكة اشنونا ضده، وكـان حمورابي يـعمل آنذاك لتوحـيد جـميع الدويلات وضمّـها إلى دولة مـركزية واحـدة مركزها بابل فـاصطدمت سيـاستـه مع آشور وغيرها من الدويلات المسـتقلة، وتمكن أخيرًا من القضـاء على استقلالها وضمّـها الواحدة بعد الأخرى إلى حدود مملكته.

ودخلت بلاد آشور المرحلة الثالثة من تاريخها الـقديم عندما أصبحت تابعة للسلطة في بابل. ومعلوماتنا عـن هذه المرحلة قليلة نسبيًا وربما استـقلت آشور بعد وفاة حمـورابي غير أن الوضع فيها كان مرتبكًا ونفوذها مـقصورًا على حدود بلاد آشور الأصلية إلى أن اعتلى بوزور _ آشور الثالث عـام ١٥٢١ ق.م العرش الآشوري، والذي يؤشر عهـده بداية عصرٍ جديد في بلاد آشور.

ثالثًا: العصر الآشوري الوسيط (١٥٢١ -٩١١ ق.م)

شهـدت بلاد آشور خلال عـصرها الوسيط الـذي دام أكثر من سـتة قرون أحـداثًا هامة وتقلبات وتغيرات سياسية وعسكرية واجتمـاعية وحضارية غاية في الأهمية، فمن الضعف إلى القـوة، ومن التـدهور الاقتـصـادي إلى الانتـعاش والرفـاهيـة، ومن الجـمود والركـود الحـضاري إلى الازدهار، ومن التـبـعيـة والاحتـلال إلى السـيادة والعكـس، ونظرًا لكثافـة الأحداث والتقلبـات التي وقعت في هذا العصر فإنه من الصعب على البـاحـث أن يتحدث عن صفات وسمات العصر بشكل عام بل عليه أن يميز بين مراحله المختلفة.

كانت معظم أسباب وعوامل التقلبات الجذرية في حياة الآشوريين نتيجة متوقعة لما كان يحدث في منطقـة الشرق الأدنى القـديم في هذه الحقبـة حيث كانت بلاد آشـور جزءًا من المنطقـة تتأثر بما يحـدث فيـها وتؤثـر أحيـانًا في وقوع الأحـداث، حتى تبلورت السـياسـة الآشورية، وعظمت قوتها، وغـدت القوة المؤثرة الأولى في الشرق الأدنى القديم وذلك في العصر الآشوري الحديث.

ولكي نفهم مركز بلاد آشور وسياستها خلال العصر الآشوري الوسيط لابد من إلقاء نظرة خاطفة على الأوضاع السياسية العامة في منطقة الشرق الأدنى القديم. ففي بلاد بابل، التي كانت آشور خاضعة لنفوذها في عصرها القديم، كانت الجيوش الحيثية الغازية قد اجتاحتها وتركتها لقمة سائغة لاحتلال الكشية القادمة من المنطقة الجبلية في الشرق. وقد حاولت بلاد آشور جاهدة أن تحافظ على علاقاتها مع السلالة الكشية الحاكمة ريثما يتم لها تقوية جبهتها الداخلية وحدودها الخارجية الأخرى لتعيد النظر في سياستها مع الملوك الكشيين. وفي شمال سوريا وآسيا الصغرى كانت الأقوام الحيثية الهندو ــ أوربية قد سيطرت على المنطقة، وأقامت لها إمبراطورية مترامية الأطراف واسعة النفوذ والأحلام، وفي مصر قامت المملكة المصرية الحديثة، بعد إخراج الهكسوس منها، بسياستها الجديدة الرامية إلى السيطرة على مصادر المواد الخام والطرق التجارية في سوريا، فاصطدمت مصالحها مع مصالح الإمبراطورية الحثية فكانت سوريا مسرحًا دمويًا للصراع بين هاتين القوتين دام عشرات السنوات. وكان من القوى الجديدة التي ظهرت في هذه الفترة وأثرت كثيرًا على بلاد آشور الأقوام الحورية أصلاً من منطقة القوقاز، وانتشرت في بلاد الأناضول وسوريا وأعالي ما بين النهرين وشرقي بلاد آشور، وأقامت لها دولة قوية عرفت بالدولة الميتانية، وقد استغلت الدولة الميتانية ضعف الإمبراطورية الحثية وانقساماتها الداخلية فمدّت نفوذها لتشمل جميع المناطق الواقعة ما بين بحيرة (وان) وحتى أواسط نهر الفرات ومن جبال زاجروس وحتى الساحل السوري، وكانت بلاد آشور من المناطق التي وقعت تحت نفوذها وسيطرتها المباشرة. وعلى الرغم من ذلك، فقد ذكرت جداول الملوك الآشوريين أسماءَ عدد من الملوك الذين حكموا في بلاد آشور في فترة سيطرة الدولة الميتانية وربما كانوا ملوكًا محليين تابعين للملوك الميتانيين المحتلين.

إن المعلومات الرئيسة المتوفرة عن الدولة الميتانية وعن علاقاتها مع الدول المعاصرة لها مستمدة من النصوص المكتشفة في مصر في موقع العمارنة والمعروفة برسائل العمارنة، وتمثل هذه النصوص رسائل ملكية مدونة بالخط المسماري واللغة الأكدية تبادلها حكّام وملوك الحيثيين والميتانيين والكشيين مع فرعون مصر اخناتون، وتشير الرسائل إلى أن علاقة مصر مع الدولة الميتانية كانت ودية وقد ختمت بمصاهرة سياسية، وأن حقيقة كتابة

هذه الرسائل بالخط المسماري واللغة الأكدية، على الرغم من عدم تمتع كل من بلاد بابل أو آشور بقوة مهيمنة في هذه الفترة تستطيع فرض استخدام اللغة الأكدية وخطها المسماري على البلدان الأخرى، يشير إلى قوة الحضارة العراقية القديمة ومدى تأثيرها في الدول والممالك المعاصرة حتى استخدمت لغتها لغة التفاهم بين الحكام والملوك الذين اختلفت لغاتهم، أي إنها كانت أشبه باللغة الدبلوماسية.

غير أن قوة الدولة الميتانية لم تستمر طويلاً حيث انتابها الضعف وانقسمت إلى دولتين مستقلتين، سيطرت الأولى منهما على منطقة بحيرة وان، في حين ظلت الأخرى تسيطر على بلاد آشور وأجزاء من سوريا وقد استغلت بلاد آشور هذا الضعف والانقسام، كما استغلت العداء بين الميتانيين والحيثيين ونبذت عنها احتلال الميتانيين واستقلت عن نفوذهم، فتقلصت الدولة الميتانية لتصبح دولة صغيرة محصورة بين أعالي ما بين النهرين وقد عرفت في النصوص المسمارية باسم خاني كلبات، وفي فترة لاحقة تمكن الآشوريون من القضاء نهائيًا على دولة الميتانيين وإلحاق أراضيها بالدولة الآشورية. وكان من الطبيعي أن يترك الميتانيون بعض التأثيرات الحضارية على بلاد آشور، وتظهر تلك التأثيرات في أسماء الأعلام وبعض المعاملات التجارية في حين كان تأثير الحضارة الآشورية عليهم كبيرًا جدًا شمل معظم الأوجه الحضارية كما تشير إلى ذلك النصوص المكتشفة في منطقة نوزي وما حولها (قرب كركوك) والتي تمثل أكثر التأثيرات الحورية وضوحًا وكذلك النصوص المكتشفة في تل الفخار لأنها مشابهة لنصوص نوزي لقد استوجب التخلص من الاحتلال الميتاني لبلاد آشور إضافة إلى ملاءمة الظروف الدولية التي أشير إليها، تقوية الجبهة الداخلية وإعدادها لمواجهة القوات المحتلة كما استوجب توفر قيادة مركزية حكيمة، وهذا ما وفره الملك آشور أبوالط (١٣٦٥ _ ١٣٣٠ ق.م) الذي تمكن من إعادة بناء الدولة الآشورية وتقويتها حتى غدت قوة يحسب حسابها في أنحاء المنطقة.

وتشير بعض الرسائل الملكية المتبادلة بين الفرعون المصري من جهة والملك الآشوري والملك الكشي من جهة ثانية إلى أن علاقة مصر بالدولة الآشورية كانت علاقة صداقة متكافئة على الرغم من محاولات الملك الكشي الحاكم في بابل تقويض تلك الصداقة لكي تتاح له فرصة السيطرة على بلاد آشور أيضًا، غير أن تعاظم قوة الدولة الآشورية قد غيّر من

سياسة الكشيين اتجاههم، واختار الكشيون سياسة التعايش السلمي، فعقدت معاهدة صداقة بين الطرفين ثبتت بموجبها الحدود بين الدولتين، وختمت المعاهدة بمصاهرة سياسية تزوج بموجبها ولي العهد الكشي من ابنة الملك الآشوري، وكان لهذه المعاهدة أثرها السياسي في الأحداث التي وقعت فيما بعد. ويبدو أن الصداقة بين الآشوريين والسلالة الكشية لم تلق التأييد المطلوب، فوقعت مؤامرة في البلاد الكشي أودت بحياة صهر الملك الأشوري ونصبت بديلاً عنه، مما اضطر الملك الآشوري للتدخل المباشر والقضاء على المؤامرة ونصب حفيده من ابنته ملكًا على بلاد بابل. وبعد وفاة الملك الأشوري تغيرت سياسة الملك الكشي وادّعى بالعرش الآشوري لنفسه باعتباره حفيد الملك الآشوري، فاندلعت الحرب بين الطرفين واستمرت فترة من الزمن، ولم تكن نهايتها حاسمة غير أنها أضعفت كلا الجانبين، وكان من نتائجها أن وقعت بلاد بابل ثانية فريسة للغارات العيلامية القادمة من الشرق.

توالى على حكم بلاد آشور عدد من الملوك الأقوياء استمر في عهدهم نمو وتزايد قوة الدولة الآشورية ووضوح سياستها، وكانت بلاد آشور منذ ذلك الحين فصاعدًا مهددة بالأخطار من جبهاتها المختلفة حيث كانت القبائل والأقوام المجاورة لها تعمل على تقويض سلطتها وكان على الملوك الآشوريين أن يعملوا جاهدين لمواجهة تلك الأخطار والمحافظة على سيادة واستقلال دولتهم، وقد خلفت تلك التحديات قادة عظامًا وجيشًا قويًا ذا خبرة في الممارسات العسكرية، وكان من بين القادة هؤلاء الملك شليمنصر الأول (١٢٧٤-١٢٤٥ق.م) الذي تميز عهده بالحملات العسكرية المتتالية على الأقوام الجبلية وعلى مملكة أورارتو (أرمينيا) ومملكة خاتي كلبات الميتانية التي ألحقت أراضيها بالدولة الآشورية، وكان من أعماله العمرانية تأسيس مدينة كلخو (نمرود) عاصمة له، وخلفه في الحكم توكلتي ننورتا الأول (١٢٤٤- ١٢٠٨ ق.م) الذي أتبع السياسة نفسها في حملاتها العسكرية وتأمين حدوده الشمالية والغربية، ونهج سياسة تهجير سكان الأقاليم والبلدان المتمردة إلى أماكن أخرى وهي السياسة التي سار عليها الملوك الآشوريون من بعده، أما بالنسبة لبلاد بابل، فقد ساءت العلاقة بين الآشوريين والكشيين، وانتهت بدخول بلاد بابل تحت النفوذ الآشوري المباشر، غيرأن السنوات الأخيرة من حكم توكلتي ننورتا الأول تبدو غامضة

وربما وقعت مؤامرة داخلية أربكت بلاد آشور فدخلت في فترة ضعف واضمحلال وتقلصت حدود الدولة إلى أدناها حتى أن الملوك الآشوريين لقبوا أنفسهم بقلب "أشاكو" أي الحاكم. وقد شهدت هذه الفترة نهاية السلالة الكشية وقيام سلالة جديدة في بلاد بابل عرفت بسلالة ايسن الثانية كما سبق ذكر ذلك، وفي عام ١١١٥ ق.م اعتلى العرش الآشوري الملك تجلاتبليزر الأول وحصلت بلاد آشور في عهده على بعض التقدم والانتعاش واستطاعت أن تعيد بعض قوتها السالفة، وقد تمكن تجلاتبليزر من القضاء على الأخار المحدقة بالدولة الآشورية كأقوام المشكو الفريجيين التي كانت تتدفق بمجموعات كبيرة من آسيا الصغرى والقبائل الجبلية التي كانت تمدها بالعون، والمدن السورية التي كانت تعرقل تجارة آشور، والقبائل الآرامية في الغرب التي كانت تغير على حدود الدولة الآشورية الغربية، غير أن فترة الانتعاش والقوة العسكرية هذه انتهت باغتيال تجلاتبليزر، فدخلت بلاد آشور ثانية في فترة ضعف وارتباك سياسي واقتصادي دامت حتى نهاية العصر الآشوري الوسيط عام ٥١١ ق.م.

وقبل أن نختم عن العصر الآشوري الوسيط لابد من الإشارة هنا إلى التمازج الحضاري الذي أفرزته العلاقات الآشورية _ البابلية خلال هذا العصر، فقد كان لوقوع بلاد بابل تحت النفوذ الآشوري المباشر أثره في تركيز هذا التمازج ونقل العديد من العناصر الحضارية من وإلى بلاد آشور _ ومن الأمثلة البارزة على ذلك بعض المواد القانونية التي تمّ التعرف عليها مدوّنة على عدد من ألواح الطين عثر عليها في مدينة آشور يظهر إنها ترقى بتأريخها إلى العصر الآشوري الوسيط، وعلى الرغم من أن هذه الألواح في حالة رديئة جداً إلا أنها ذات أهمية خاصة لأنها النموذج الوحيد المكتشف حتى الآن للقوانين الآشورية، ويستدل من ترجمتها وتحليل ما ورد فيها من مواد وأحكام بأنها لا تمثل قوانين رسمية صادرة من سلطة مركزية بل إنها مجموعة من السوابق القضائية نظرت فيها المحاكم الآشورية مع مقتطفات من القوانين التي كانت سائدة في بلاد آشور، ومع ذلك فإن ما ورد فيها من مبادئ وأحكام يشابه إلى حد كبير ما ورد في القوانين البابلية في عهد حمورابي والعهود السابقة له مع بعض التعديلات والإضافات التي تمثل خصوصية بلاد آشور إلى درجة ظنّ البعض بأن الآشوريين كانوا يطبقون قانون حمورابي على بلاد آشور نفسها،

وهذا يفسر عدم عثورنا على قوانين آشورية كالقوانين البابلية، فمبدأ القصاص متبع في فرض الأحكام كما كان متبعًا في قانون حمورابي في حين كان يعمل بمبدأ التعويض في حالات معينة تمامًا كما كانت عليه الحال في القوانين البابلية، والعقوبات المفروضة على العديد من الجرائم الكبرى، كالسرقة والقتل والزنى، واحدة في كلّ من هذه المواد والمواد المماثلة لها في القوانين البابلية، وما يقال عن الأحكام والمبادئ ينطبق على التكوين الاجتماعي في كلّ من بلاد بابل وآشور حيث يلاحظ أن المجتمع العراقي القديم كان يتألف من طبقتين رئيستين، هما طبقة الأحرار وطبقة الرقيق وكان يميز بينهما في الأحكام والعقوبات والحقوق والواجبات، وكانت طبقة الأحرار تتألف من فئات عديدة يميز بعضها عن بعض المركز السياسي أو الاقتصادي أو الديني، وكان التفاوت بين هذه الفئات كبيراً غير أنها كانت جميعًا تعامل معاملة الأحرار عند تطبيق القوانين خلافًا لطبقة الرقيق التي كانت تحكمها أحكام وقوانين خاصة بها.

رابعًا: العصر الآشوري الحديث (العهد الإمبراطوري) (٩١١- ٦١٢ ق.م)

يمكن عدّ عام ٩١١ ق.م، وهو العام الذي اعتلى فيه الملك (ادد _ نراري) الثاني العرش الآشوري، بداية عصر جديد دام حتى نهاية كيان الآشوريين وبازدهار حضارتهم وامتداد نفوذهم حتى شملت حدود دولتهم معظم أقاليم الشرق الأدنى القديم، فكانت بذلك من أعاظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم، ومع ذلك، تخللت العصر فترات من الارتباك السياسي والانكماش العسكري كان آخرها إيذانًا بسقوط الدولة الآشورية.

وتزداد أهمية هذا العصر، في الوقت الحاضر، بكثرة المخلفات المادية التي تركها لنا (والتي تحتل مكان الصدارة بين الآثار العراقية المكتشفة وتزدان بها أشهر متاحف العالم. وإلى هذه المخلفات يرجع الفضل في تعرفنا تفصيليًا على تاريخ العراق بوجه خاص وتاريخ الشرق الأدنى القديم بوجه عام خلال حقبة جاوزت ثلاثة قرون، ومن بين الآثار الآشورية المكتشفة العديد من المدن المهمة، ومنها العواصم الآشورية آشور ونينوى ونمرود (كلخو) وخرسباد (دور _ شروكين)، المزدحمة بقصورها الفخمة وما بعدها الكبيرة وزقوراتها الشاهقة وأسوارها وبواباتها وأبنيتها المختلفة الأخرى، والتي تعكس لنا جانبًا من

جوانب عظمة الآشوريين ونضوج حضارتهم ورقيها، كما تشمل المخلفات المئات بل الآلاف من القطع الفنية الرائعة من تماثيل آدمية وحيوانية وثيران مجنحة تجمع بين حكمة الإنسان وعقله وقوة الثور وثباته، ومسلات مختلفة الأشكال والأحجام وألواح جدارية منحوتة نحتًا بارزًا تزين مداخل وجدران القصور والمدن، وتنقل لنا مشاهد مختلفة من حياة الملك في بلاطه ومعاركه العسكرية واحتفالاته الدينية إضافة إلى بعض جوانب الحياة الآشورية اليومية، وتعبر هذه المنحوتات وغيرها من القطع العاجية والمعدنية الرائعة عن رفعة في الفن ودقة في التعبير واستيعاب لفن النحت والتشريح، غير أن أهم ما تمّ الكشف عنه من آثار هذا العصر هي النصوص المسمارية الكثيرة المتنوعة والمدونة باللغة الأكدية بلهجتها الآشورية الحديثة، وقد تجاوزت أعداد هذه النصوص عشرات الآلاف وهي في ازدياد مستمر طالما استمرت التنقيبات الأثرية في المدن الآشورية، ومن هذه النصوص ما هو مدون على اسطوانات أو مواشير فخارية كانت توضع في أسس الأبنية كنصوص تذكارية، ومنها ما هو مدون على ألواح من الطين ذات أشكال وأحجام مختلفة، وقد تضمنت هذه النصوص، ولاسيما النصوص التذكارية، تفاصيل دقيقة عن الأعمال العسكرية والعمرانية التي قام بها الملوك الآشوريين خلال سني حكمهم في حين تضمنت الألواح الطينية، وفي مقدمتها الألواح المكتشفة في مكتبة آشور بانيبال الشهيرة، مختلف المواضع الدينية والأدبية والإدارية والاقتصادية والتاريخية وغيرها، فكانت بذلك سجلاً حافلاً بالحياة العراقية القديمة من مختلف جوانبها، وتشير جميع الدراسات التي عكفت على ترجمة وتحليل هذه النصوص والآثار على المدى البعيد الذي وصلته الإمبراطورية الآشورية في مضمار القوة والسلطة والنفوذ حتى غدت سيدّة الموقف في الشرق الأدنى القديم قاطبة خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، كما تشير إلى الازدهار الحضاري والرفاه الاقتصادي الذي عمّ بلاد آشور خلال هذه الحقبة وترك آثاره الواضحة في المنطقة حتى بعد زوال كيان الآشوريين السياسي، وقبل متابعة تطور الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدها العراق خلال العهد الآشوري الحديث لابد من التوقف قليلاً نتعرف على أهم الأسباب والعوامل التي ساعدت على قيام الإمبراطورية الآشورية، وهيأت الظروف المناسبة والمناخ الملائم لنموها وتعاظمها وازدهار حضارتها، فليس منطقيًا

أن يفتـرض أن ما حققـه الآشوريون من انتصارات عـسكرية متلاحقـة ونمو مطرد في القوة وازدهار في الحضارة كان حدثًا فجائيًا غير متوقع أملته أحداث عابرة أو قوة عسكرية مؤقتة بل لابد وأن كانت وراء ذلك أسباب وعوامل عدة منها داخـلية ومنها خارجية ساهمت في بلورة الأحـداث لمصلحـة الآشـوريين، ومن هذه الأسـبـاب مـا يمكن التـعـرف عليـهـا أو استنتاجهـا من خلال دراسة وتحليل ما تم الكشف عنه من آثار ونصوص ومن مـتابعة تطور الأحـداث في المنطقـة، ومنها مـا يبـقى غـائبًا عنا حـتى تكشف لنـا عنه التنقـيبـات الأثرية والدراسات الموضوعية المقبلة. ولعل في مقدمـة الأسباب الخارجية الظاهرة التحديات التي واجهت الدولة الآشورية في مختلف جبهاتها، وهددت كيانها المتنامي، وأنذرت بزوالها إن لم تتخذ الاحتياطات اللازمة للحد من أخطارها.

إن استعراضًا سريعًا للأوضاع السياسية العامة في منطقة الشرق الأدنى القديم في مطلع الألف الأول قبل الميـلاد يوضح أن القوى الكبرى التي كـانت تتحكم في توجيـه الأحداث خلال العصر الآشـوري الوسيط والمتمثلة بالإمبراطوري الحـيثية في آسيا الصـغرى وشمال سـوريا والدولة الميتـانية في أعـالي مـا بين النهرين والدولة الكـشيـة في بلاد بابل والمملكة المصرية، كانت قد اختفت من على المسـرح السياسي والعسكري أو زال تأثيرها أو انكمش وتقلص، غير أن ذلك لا يعني أن الدولة الآشورية انفردت في بداية عصرها الحديث بالقوة والزعامة وفـتحت أمامها الأبواب والـسبل للهيمنة على أرجاء المـنطقة، بل إن زوال القوى القديمة كانت نتيجة لظهور قوى أخرى جديدة أشد خطرًا وأكثر تأثيرًا ولاسيما على الدولة الآشورية، ففي الجـهة الغربية، زاد ضغط القـبائل الآرامية وغاراتهـا على حدود بلاد آشور الغـربية، والآرامـيون من القـبائل الجـزرية التي كانت جـوالة في بوادي الشام والعـراق في النصف الثـاني من الألف الثاني قـبل الميلاد، كـما انـتشرت هذه القـبائل في أنحـاء سوريا وأقامت لها منذ مطلع الألف الأول قـبل الميلاد عددًا من الدويلات والممالك الصغـيرة كان منها دويلة ارام نهرايم، فيما بين الخابور والفرات، وفدان ارام، ومركزها مدينة حران، وارام صـوبا، في الجنوب، ومملكـة دمـشق ودويلة سـمـعل (سنجـرلي) وغـالبًـا مـا كـانت هذه الدويلات والممالك تشكل أحلافًـا سياسية وعسكرية للوقـوف ضد الدولة الآشورية والحدّ من نشـاطها وقطع مـواصلاتـها التـجارية في حين كـانت دويلتـا إسرائيل ويهـوذا تقومـان

بدورهما في مثل هذه الأحلاف وتتلقيان المساعدات من الفرعون المصري الذي ضاق بسيطرة الآشوريين على المنطقة.

وفي الجبهة الشمالية والشمالية الشرقية كانت ضغوط الأقوام أو القبائل الجبلية على أشدها، وكادت تقضي على الدولة الآشورية لولا عزم وثبات القوات الآشورية وصلابتها، فكان من سياسة هذه القبائل والأقوام تحين الفرص للانقضاض على المدن والمراكز الحضارية متى سنحت لها الفرصة لذلك ومتى وجدت ضعفًا من الحكومة المركزية، وكان من جملة المناطق المتمردة ضد الدولة الأشورية منطقة زاموا (وادي السليمانية) وإقليم تشخان (جنوب شرقي تركيا) ودولة اورارتو وبلاد نائيري ومنطقة القبائل الميدية، ولم تكن السيطرة على هذه المناطق الجبلية الوعرة بالامر اليسير بل كانت من الأمور الصعبة التي شغلت الحكام الآشوريين وقطعاتهم العسكرية سنين طويلة وانهكت قواها.

وفي بلاد بابل، كانت قبيلتا كلدو وبيت ياقين وغيرهما التي اتجهت نحو جنوب العراق وأقامت لها أحيانًا سلالات محلية في أقصى الجنوب تسعى دائمًا للسيطرة على بلاد بابل التي وقعت تحت النفوذ الآشوري أخيرًا، وكانت السلالة الحاكمة في بلاد عيلام جنوبي غربي إيران تقدم لها العون المادي والعسكري وتضمن لها الملجأ متى ضيقت عليها الدولة الآشورية، وقد تمكن الآشوريون من القضاء على السلالة الحاكمة في بلاد عيلام أخيرًا وبسطوا نفوذهم المباشر على بلاد بابل وحدوا ولو لفترة مؤقتة من نشاط تلك القبائل.

وهكذا كان على الآشوريين أن يعملوا من أجل تثبيت أركان إمبراطوريتهم، وحماية حدودهم لمواجهة التحديات والقضاء على الأخطار وذلك من خلال تجهيز الحملات العسكرية المتتالية إلى الجبهات المختلفة حتى لا يكاد يخلو عهد أي ملك آشوري حكم في هذا العصر من حملة عسكرية أو أكثر إلى كل من الجبهات لإخضاع المتمردين والعصاة إلى درجة طغت الناحية العسكرية على حياة الدولة الآشورية بصورة عامة، غير أن مجرد القيام بالحملات العسكرية لا يمكن أن يحقق الأهداف المتوخاة إن لم ترافقها سياسة حكيمة ثابتة وقيادة عسكرية حازمة وقطاعات عسكرية على مستوى عال من التنظيم والتدريب ونظام إداري كفء يسيطر على الأوضاع الداخلية ويؤمن إدارة الأقاليم والبلدان المفتوحة.

فأما السياسة الآشورية، فكانت بحق على درجة كبيرة من النضج وبُعد النظر حيث لم تكن أية حملة عسكرية مهمة تجهز إلى جبهة ما إلا بعد دراسة مستفيضة لجميع الأوضاع الداخلية والخارجية للمنطقة المزمع توجيه الحملة عليها، كما كانت تسبق كل حملة اتصالات مكثفة مع أمراء وحكام الأقاليم والبلدان المجاورة لضمان ولائهم للسياسة الآشورية وتأمين الطرق والمسالك المؤدية إلى الهدف، وقد تعقد المعاهدات مع الحكام والأمراء المحليين وتوثق من أجل تمتين العلاقة كما كان رجال الاستخبارات الآشوريون المنتشرون في المنطقة يبعثون بتقاريرهم التفصيلية حول الأوضاع العسكرية والشؤون الداخلية للمنطقة قبل أن توجه الحملة إليها وقد وردت العديد من أخبار هذه التقارير، ولاسيما تلك الخاصة بحملة سرجون الثامنة على دولة اوراتو وزكرتو، وقد يضطر الملك إلى إيقاف الحملة قبل بدئها أو في أثناء تقدمها، كما فعل سرجون في حملته على بلاد بابل من أجل معالجة موقف طارئ في جبهة أخرى، وقد يقدم بعض التنازلات المؤقتة في جبهة معينة من أجل تحقيق هدف أبعد في الجبهة الأخرى، كل ذلك وفق سياسة مدروسة من قبل الملك الحاكم وقادة جيشه وحكام مقاطعاته.

وكانت قيادة الحملات تعتمد على أهمية الحملة وحجمها، وقد يتولى قيادتها الملك نفسه إن كانت ذات أهمية خاصة في حين كان يتولى قيادة الحملات الأقل أهمية أحد القادة العسكريين أو أحد حكام المقطعات وقد ذكرت النصوص المسمارية ألقاب ورتب كبار القادة العسكريين والأمراء أمثال الرابشاقة، وهي أعلى رتبة عسكرية، والترتانُ والراب موكي، كما وردت ألقاب بعض أمراء القطعات الصغيرة كالراب كصري وآمر الخمسين وآمر العشرة.. وتميز الجيش الآشوري بصلابة أفراده وشجاعتهم، وكانت المعارك الكثيرة التي خاضها الجيش في بيئات مختلفة وظروف متباينة قد أكبسته قدرة قتالية عالية وتدريبًا جيدًا وسرعة في الحركة، كما كان للشعور العام لدى عامة الناس بأن القيام بأية حملة عسكرية هو في الواقع تنفيذ لإرادة الآلهة القومية وأوامرها التي أوحتها إلى الملك أثره في رفع معنويات الجندي المقاتل من أجل إرضاء الآلهة، وكان كلُّ رجل قادر على حمل السلاح خاضعًا للتجنيد إذا ما أعلن الملك عن عزمه القيام بحملة عسكرية إلا إذا تمكن من الحصول على إعفاء من الخدمة العسكرية لسبب ما، وكان الجيش الآشوري يتألف من

الجيش النظامي والجيش الاحتياطي، فأما النظامي فكان جيشًا صغيرًا على أهبة الاستعداد للتحرك عند الحاجة ويتألف من القوات المختارة في الوسط وحولها قوات الصاعقة والحرس الملكي وأبناء الذوات الذين كانوا يركضون إلى جانب عربة الملك، في حين كان الجيش الاحتياطي من الجنود الذين تزودهم المقاطعات والأقاليم المختلفة وكان حاكم كل مقاطعة أو إقليم يقدم عددًا معينًا من المجندين يتناسب وعدد سكان الأقاليم ويزودهم بالسلاح، وربما كان كل إقليم مختصًا بصنف معين من صنوف الجيش، وربما كانت هذه القطعات تنظم وفق الأسس القومية والقبلية. وكانت صنوف الجيش الآشوري تضم المشاة بأسلحتها الخفيفة كالسهام والمقالع، والثقيلة كالرماح، وكان حاملوا الأسلحة الثقيلة يحمون أنفسهم بارتداء الزرد .. ويحملون تروسًا مستطيلة ويلبسون على رؤوسهم قبعة مخروطية ذات عرف أو ريشة على غرار خوذ الحب الإفريقية ويحملون بأيديهم سيوفًا قصيرة أو فؤوسًا أو دبابيس وينتعلون حذاءًا طويلاً يغطي أسفل الساق، ومن الأصناف الأخرى الخيالة الخفيفة الحركة، وكان سلاح الفرسان الرماح الطويلة والفؤوس، كما استخدم الزرد لحماية الخيل، وكانت العربات الحربية ذات العجلتين والتي تجرها الخيول تستخدم لسرعة الحركة وكان كلّ منها يحمل ثلاثة أو أربعة مقاتلين. ومن الأسلحة الأخرى المستخدمة الكبائش الضخمة لدك الحصون والقلاع، ولا تشير المعلومات المتوفرة عن الجيش الآشوري والمستمدة بالدرجة الأولى من الحوليات الملكية والمنحوتات إلى حجم الجيش بصورة عامة غير أن بعض التقديرات الحديثة تضع عدده بين مائة ومائتي ألف مقاتل في المعارك الكبرى.

النظام الإداري

وكان النظام الإداري الذي طبقه الآشوريون، والذي وضح منذ عهد الملك تجلاتبليزر الثالث (٧٤٥- ٧٢٢ ق.م) متميزًا بكفاءته وتطوره، وربما كان من أهم العوامل التي ساعدت على نمو قوة الدولة الآشورية وضبط أمنها الداخلي، فقد اعتمد على تقسيم الإمبراطورية إلى عدد من المقطاعات أو الأقاليم الرئيسة كان كل منها يُدعى (بيخاتو) أو (ناكو) وكان يشرف على إدارة مقاطعة سيد المقاطعة (بيل بيخاتي) يمثل الملك في المقاطعة وينفذ أوامره وسياساته المركزية وكانت واجباته تشمل، إلى جانب المهام الإدارية العامة،

الشؤون المالية والعسكرية والدينية.. وكان مقر الحاكم في عاصمة المقاطعة ويساعده في إدارة شؤون المقاطعة كادر إداري كفء من الكتبة والمساحين والمحاسبين والرسل والفلكيين وقراء الفال وضباط التجنيد ومراقبي الأرواء والمساعدين العسكريين والمترجمين وغيرهم، كما كان له نائب ينوب عنه فترة غيابه، وكانت كل مقاطعة مقسمة بدورها إلى عدد من الوحدات الإدارية الأصغر يدعى كل منها قنو (ولعلها تعني حرفيًا "حلقة") وكان مركز القنو في المدن الرئيسية ويشرف على إدارتها موظف إداري يدعى (رئيس المدينة) راب لان.. وكانت له قوة عسكرية صغيرة للظروف الطارئة، وكانت من مهام الرئيسة جباية الضرائب وحفظ النظام واتخاذ الإجراءات العسكرية المستعجلة إضافة إلى الشؤون الإدارية العامة.

وكانت بعض المدن القديمة، كمدينة آشور التي كانت تتمتع بمركز ديني خاص، تدار من قبل مجلس من المسنين وعلى رأسهم الخزانو، وهو لقب ربما يقابل لقب المحافظ في الوقت الحاضر وكان لهذه المدن بالرغم من تبعيتها للقنو نوع من الاستقلال الذاتي وبعض الامتيازات الخاصة الممنوحة من الملك نفسه بموجب وثيقة خاصة تتعلق بالضرائب والخدمة العسكرية وغيرها، ومن جانب الحذر من احتمال تمرد وعصيان مثل هذه المدن المهمة، كان الملك يعين له حاكمًا ملكيًا فيها إلى جانب الخزانو يدعى "الرجل على المدينة"، ربما ليكون رقيبًا على حسن إدارة المدينة وأسلوب جباية الضرائب وتجنيد المجندين.

وعلى الرغم من السياسة المركزية التي اتبعها الملوك الآشوريون في إدارة شؤون إمبراطوريتهم إلا أنه كان لحكام المقاطعات ورؤساء المدن حرية الحركة والتصرف في أسلوب تنفيذ السياسة المركزية وإدارة شؤون وحداتهم الإدارية.

وكان لأي من الحكام والرؤساء والموظفين الحق بالاتصال المباشر بالبلاط الملكي دون المرور بالتسلسل الإداري المعروف إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك.

ولضمان الاتصال الدائم والسريع بين الملك وموظفيه في المقاطعات والمدن والوقوف على ما يجري في أرجاء الإمبراطورية، كان هناك نظام للمواصلات والبريد متطور جدًا سبق نظام البريد المنسوب إلى الفرس بعدة قرون، مما يدل على أن الفرس الاخمينيين قد

اقتبسوا نظام البريد من بلاد آشور إبّان غزوهم لبلاد بابل وآشور في القرن السادس قبل الميلاد وادخلوا عليه بعض الإضافات، وكان الاتصال بين المقاطعات المختلفة والعاصمة يتم من خلال رسل ممتهنين على أصناف عدة فهناك الرسول (في البابلية مارشبري) الذي كان يسافر على الطرق الملكية، وكانت تتوزع على تلك الطرق محطات بريدية تحت حراسة قوات حكومية دائمة وبين محطة وأخرى مسافة رحلة يوم أُعدت لراحة الرسل وراحة حيواناتهم أو تبديلها والتزود بالماء والغذاء.

ومن أصناف الرسل الراكض وربما كان يستخدم لاجتياز المناطق الجبلية الوعرة، وكان الرسل يحملون الرسائل مختومة أو يحفظونها عن ظهر قلب ضمانًا لسريتها.

أما أسلوب إدارة البلدان والأقاليم التابعة أو الموالية، فكان يختلف حسب طبيعة العلاقة التي تربطها بالدولة الآشورية، فالدول والممالك الصغيرة الموالية للدولة الآشورية، طوعًا أو خوفًا، كانت تعترف بسلطان الدولة الآشورية وتدفع الجزية مقابل امتياز الحماية العسكرية التي تفرها لها الدولة الآشورية عند حدوث أي اعتداء خارجي عليها أو تمرد داخلي ضد السلطة الحاكمة فيها، وإذا امتنعت هذه الدول والممالك من دفع الجزية أو سحبت اعترافها بالسلطة الآشورية أو عقدت حلفًا أو معاهدة مع دولة معادية للدولة الآشورية كان لابد من فرض سيطرة أقوى عليها ومهاجمتها عسكريًا وتغيير أميرها الحاكم بآخر موالٍ لسياسة الدولة الآشورية ومستعد لدفع الضرائب، وكان مثل هذا الارتباط يوثق بالمعاهدات ويختم بالقسم أمام الآلهة، وكان في مثل هذه البلدان التابعة موظف آشوري في البلاط المحلي مع قوة عسكرية صغيرة لدعمه، أما إذا حنث الحاكم بالقسم الذي أقسمه ونبذ عنه السلطة الآشورية عندها تتخذ الإجراءات العسكرية السريعة اللازمة للسيطرة الكاملة على المنطقة وإلحاقها بحدود الدولة الآشورية وإدارتها من قبل أحد حكام المقاطعات، وقد يُرحل سكانها إلى منطقة أخرى ويؤتي بسكان آخرين ضمانًا لهدوء المنطقة وعدم تمرها.

وهكذا كانت هذه العوامل مجتمعة من أسباب قوة الدولة الآشورية وتعاظم نفوذها في حين كان لسياسة الفتح التي اتبعتها أكبر الأثر في نشاط الحياة الاقتصادية وتدفق الأموال

على بلاد آشور مما ساعد على نشر الرفاهية وشجع على البناء والتعمير، كما كان لاحتكاك الآشوريين بسكان البلدان المفتوحة والبلدان المجاورة، كجزر البحر المتوسط وبحر إيجة، نتائجه في انتقال العديد من العناصر الحضارية من وإلى بلاد آشور، فكان هناك تمازج حضاري رائع تشهد له آثار الآشوريين المعمارية والفنية وتحكي عنه نصوصهم المسمارية.

ونظرًا لطول الفترة الزمنية التي شغلها العصر الآشوري الحديث وكثافة أحداثها، فقد قسمت إلى فترتين رئيسيتين تمثل الأولى عهد الإمبراطورية الآشورية الأولى (من أواخر القرن العاشر وحتى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد) في حين تمثل الثانية عهد الإمبراطورية الثانية (من أواسط القرن الثامن وحتى نهاية العصر الآشوري الحديث).

وعلى الرغم من عدم وجود انقطاع في السلالة الحاكمة، يمكن اعتبار تاريخ اعتلاء الملك (ادد _ نراري) الثاني عام ٩١١ ق.م، (أو بداية عهد والده آشور _ دان الثاني عام ٩٣٣ ق.م) بداية عصر جديد في تاريخ الآشوريين نظرًا للانتعاش الاقتصادي والتوسع العسكري والازدهار الحضاري الذي تحقق بدءًا من هذا التاريخ مقارنة مع الفترة السابقة، كما وضحت السياسة الآشورية العامة، ولاسيما فيما يخص تجهيز الحملات العسكرية بهدف إخماد التمردات والفتن والقضاء على ضغوط القبائل التي كانت تغير على حدود الدولة، وهكذا بدأ ادد _ نراري الثاني عهده بتجهيز حملة عسكرية إلى الأراضي الواقعة جنوبي الزاب بغية تثبيت مركز الدولة الآشورية عليها وضمان أمن وسلامة الطرق التجارية القادمة من الجنوب وبهدف إشعار سكان المنطقة وسكان بلاد بابل باستعادة الدولة لسالف قوتها، وقد حققت الحملة أهدافها وتمت السيطرة على مدينة الربخا (كركوك حاليًا) وجعلت مقاطعة آشورية تابعة كما تم تثبيت الحدود بين بلاد بابل وآشور وعقدت معاهدة بين الطرفين بخصوص ذلك وكان لهذه المعاهدة أهمية خاصة بالنسبة لدراسة تاريخ الآشوريين في الفترة السابقة لعهد ادد _ نراري حيث إنها تضمنت موجزًا لتاريخ المنازعات العسكرية بين بلاد بابل وآشور حتى ذلك التاريخ وتعرف هذه المعاهدة بالتاريخ التعاصري.

الحملات العسكرية

وفي الجهة الغربية حيث كانت القبائل الآرامية وحلفاؤها قد اقتطعت أجزاء من الأراضي الآشورية وسيطرت عليها، جهز ادد _ نراري حملة عسكرية عليها وأخضعها وأعاد لبلاد آشور حدودها القديمة كما استولى على عدد من المدن على طول نهر الفرات وتوجه شمالاً حتى وصل إلى المنطقة التي كانت تعرف بمملكة خاتي كلبات وتمكن من القضاء عليها وأسر أميرها وضم أراضيها إلى حدود الدولة الآشورية.

ونهج توكلتي ننورتا الثاني (٨٩٠ _ ٨٤٤ ق.م) السياسة نفسها التي أنتهجها أبوه من قبل، فبدأ بحملة على بلاد نائيري في الجنوب الغربي من بحيرة وان، وأخرى إلى المنطقة الواقعة بين الزابين، وثالثة إلى بلاد بابل حيث وصل إلى دور كوريكالزو وسبار دون معارضة تذكر، واستمر في زحفه غربًا فشمالاً حتى وصل نهر الخابور ومنطقة نصيبين، وأخيرًا قام بهجوم على منطقة (مشكو) في آسيا الصغرى، وكان عهد آشور ناصر بال الثاني (٨٣٣- ٨٠٩ ق.م) عهد ازدهار حضاري وتفوق عسكري متميز حيث تشير النصوص المسمارية الكثيرة التي خلفها لنا إلى النشاط العسكري الكبير الذي شغل النصف الأول من حكمه.

ففي الجبهة الشرقية قام بحملة عسكرية ضمنت خضوع الأقوام الجبلية وامتداد النفوذ الآشوري إلى ما بعد حدودها السابقة كما جهزت حملتان لإخضاع منطقة زاموا (وادي السليمانية) وإقليم تشخان إلى الشمال الغربي من بلاد آشور وأمكن تثبيت السلطة الآشورية عليهما.

وفي جهة الغرب كانت دويلة بيتاديني، وعاصمتها بارسب (تل أحمر حاليًا) جنوبي كركميش، تقوم بإثارة الاضطرابات في المنطقة الخاضعة للنفوذ الآشوري على طول نهر الخابور وأعالي نهر الفرات فقام آشور ناصر بال بحملة عسكرية عليها وقضى على المدن المتمردة وفرض عليها الجزية، وفي هذه الأثناء قام الملك البابلي بمساعدة قبيلة سوخي في أواسط الفرات بالتحرك ضد النفوذ الآشوري مما استوجب توجيه حملة عسكرية عليها. وفي السنة التالية تمكن من الوصول إلى الساحل السوري حيث وصل الجيش الآشوري

حتى مدينة صور وفرضت الجزية على جميع المدن الواقعة على الطريق، وفي النصف الثاني من عهد آشور ناصر بال تمتعت الدولة الآشورية بسلام نسبي.

ونظراً لعدم توفر وسائل إعـلامية متطورة في العهود القديمة، وبغيـة تخليد الانتصارات العسكرية التي حـققها آشـور ناصر بال فقـد حاول، وكذلك فعل مَنْ جـاء بعده من الملوك الآشوريين، أن يسـتخـدم نصوص الأبنية التـذكارية واللوحـات التي كانت تزين القـصور والقاعات ليعبر من خلالها عن القوة التي تمتعت بها قطعاته العسكرية في حملاتها المختلفة وعن الشدة والقسوة التي مارسها في معـالجة كل تمرد أو عصيان، ومن الطبيعي أن أتصفت مثل هذه النصـوص واللوحات بالمبالغة الواضـحة في تقدير حجم الانتـصارات والغلو في وصف الأساليب القـاسية التي عومل بـها رءوس التمرد والعـصيان، شأنهـا في ذلك شأن معظم وسـائل الإعلام الحربيـة حتى يومنا هذا وليكون ذلك عـبرة لكل من تسول له نفسه القيام بأية مـحاولة مماثلة ضد السلطة الأشـورية المركزية، غير أن بعض مـؤرخينا المحدثين، ولاسيـما الأوربيين منهم، غـالوا في التركـيز على مـا جاء في هذه النصـوص واللوحات، واعـتقـدوا أنها تمثل حـقائق ثابتـة لا مجـال للشك في دقـتهـا طالما إنها صـادرة عن الملوك الآشوريين أنفسهم، فكونوا انطباعًا خاطئًا عن السياسة الآشورية وعن الأساليب العسكرية التي استخدمها الآشوريون في قمع التمردات والعصيـان، فوصفوا سياستهم بالاستعمارية وأساليبـهم بالوحشيـة وحكمهم بالظلم والطغيان دونه أن يأخـذوا بنظر الاعتبـار الأسباب التي دفعت الملوك الآشوريين للقيام بالحملات العـسكرية وإتباعهم القسوة والشدة في قمع كل عصيان لدرء الأخطار المحدقة بدولتهم ومواجهـة التحديات الأجنبية المتوقعة، وقد زاد في تركيز هذا الانطبـاع الخاطئ ما أورده كتاب أسفار العـهد القديم التي تتطرق إلى تاريخ الآشوريين والبابليين والتي اتصفت بالكره والعداء والحـقد والضغينة تجاه الآشوريين الذين قضوا على دويلة إسرائيل، والبابليين الذين قضوا على دويلة يهوذا. لذا، فإن ما تعكسه مثل هذه الأسفـار لا يمثل وجهـة نظر محـايدة، وعلينا أخـذ الحيطة والحذر إذا أردنـا الإفادة من أخبارها، كما يجب مقارنة ما ورد في النصوص واللوحات الآشورية مع ما ذكرته نصوص أعداء الآشوريين من أخبار عن الأحداث نفسها وإخضـاعها جميعًا للنقد العلمي للوصول إلى صورة أقـرب ما تكون إلى الحقيـقة، عندها سنجد أن الآشـوريين لـم يتصفـوا بالبربرية

والوحشية والظلم والطغيان بل كانوا أشداء قساة في معالجة التمردات والعصيان والفتن والاضطرابات وخاصة في حالة تكرارها في منطقة معينة، والشدة والقسوة في معالجة مثل هذه الظروف لا تقلل من مركز أو سياسة أية دولة سواء كانت في التاريخ القديم أو في العصر الحاضر.

وإذا ما تركنا النشاطات العسكرية الكثيرة التي قام بها آشور ناصر بال جانبًا وجدنا أن نشاطاته العمرانية كانت أكثر خلودًا وروعة، فقد قام آشور ناصر بال بإعادة بناء مدينة نمرود (كلخو) واتخذها عاصمة للدولة الآشورية واستغرق بناؤها خمس سنوات واستخدم فيها الآلاف من العمال والفنيين المحليين، كما عملت فيها أعداد كبيرة من الحرفيين والفنيين الذين جيء بهم من المناطق والأقاليم المفتوحة ولاسيما من سوريا، وتم افتتاح المدينة عام ٨٧٩ ق.م في احتفال مهيب دُعي إليه ما يقرب من سبعين ألف شخص من مختلف المقاطعات والأقاليم والبلدان التابعة والصديقة واستمر الاحتفال عشرة أيام متتالية كما تخبرنا بذلك مسلة آشور ناصر بال نفسه المكتشفة في قصره عام ١٩٥١ والتي يقول فيها:

»أطعمت وأشربت الشعب من جميع البلدان سوية مع شعب كلخو لمدة عشرة أيام، وأعددت لهم الحمامات وقدرتهم ومن ثم أرسلتهم إلى بيوتهم بسلام وسرور«. وتعد الآثار المكتشفة في مدينة نمرود من أروع الآثار الآشورية وتعكس لنا المدى الذي وصله الفن المعماري والفني في القرن التاسع قبل الميلاد، فإلى جانب القصور الفخمة والمعابد الكبيرة والأسوار والبوابات التي تم الكشف عنها ورسمت مخططاتها كُشف عن المئات من الألواح الجدارية التي كانت تغلف جدران قاعات القصور الداخلية، وهي منحوتة نحتًا بارزًا دقيقًا بمشاهد مختلفة من الحياة الملكية والمعارك العسكرية والحياة اليومية وقد لون بعضها بألوان زاهية ظلت تحتفظ بها حتى يومنا هذا.

أما مداخل القصور والقاعات الرئيسة فقد زينت بتماثيل ضخمة لحيوانات مركبة عرفت بالثيران المجنحة تعبر عن قوة الآشوريين وحكمة وصلابة قادتهم، فإلى جانب قوة الثور الطبيعية حاول الفنان أن يعبّر عن ثباته وسيطرته على الأرض والسماء، فمثله بخمس أرجل وبأجنحة كبيرة في حين عبر عن الحكمة والمعرفة التي تميز بها الآشوريون بأن جعل

للثور رأس إنسان معبر عن هذه الصفات، وكانت الغاية من وضع الثيران المجنحة في المداخل الرئيسة هي حماية المبنى ومَنْ فيه من الشرور وإشعار الزائر ساعة دخوله بقوة ومنعة الدولة وملكها، كما عُثر على العديد من الملتقطات الأثرية الأخرى في نمرود كان من أبرزها القطع العاجية التي وُجدت في أحد آبار المدينة وكانت من بينها قطعة تمثل قناعًا لرأس فتاة جميلة عرفت لدى الباحثين بمونوليزة النمرود أو بفتاة البئر لدقة صنعها وعمق تعبيرها، إضافة إلى ذلك، كُشف عن أعداد من النصوص المسمارية المهمة وعلى مسلة الملك آشور ناصر بال وتمثال لخليفته شليمنصر الثالث والعديد من الملتقطات الأثرية الهامة الأخرى.

النشاطات العسكرية الآشورية في عهد شليمنصر الثالث

واستمرت النشاطات العسكرية الآشورية في عهد شليمنصر الثالث 824 -858)ق.م) خليفة آشور ناصر بال الثاني وتحول العديد من المدن الآشورية إلى حصون ومعسكرات كمدينة آشور ونمرود (كلخو). وتركزت نشاطات شيلمنصر العسكرية على الجبهة الغربية والشمالية الغربية، وهي أكثر الجبهات تهديداً لمصالح الدولة الآشورية الاقتصادية وأخطرها على أمنها. ففي بداية عهده تشكل حلف من كل من كركميش وبيت أديني وسمعل في الشمال الغربي هدد طرق المواصلات التجارية إلى آسيا الصغرى ومنطقة كيليكيا، وبعد أربع سنوات من بدء حكم شيلمنصر تمكن من دحر قوات الحلف وإلحاق دويلة عديني بالإمبراطورية الآشورية وفرض الجزية على الدويلات المتحالفة معها، وكانت هذه الانتصارات تهديداً لبقية الدويلات السورية بما فيها المدن الساحلية والجنوبية فسارعت إلى تشكيل حلف جديد تزعمته مملكة دمشق، واصطدمت القوات الآشورية مع قوات الحلف عام ٨٥٣ ق.م في قرفر على نهر العاصي وادعى شليمنصر بأنه قضى نهائيًا عليها ووقع نتيجة ذلك عشرات الآلاف من قوات الحلف قتلى غير أن الأحداث التالية لا تؤيد هذا الادعاء، حيث تجدد الصدام ثانية، أما بلاد بابل فكان ملكها مواليًا للسياسة الآشورية غير أنه حدث انقسام في البلاط الملكي البابلي انتهى بقيام ثورة أهلية أيدتها القبائل الكلدية في الجنوب والمدن الواقعة في منطقة ديالي شرقي بلاد بابل مما اضطر الملك الآشوري إلى تجهيز حملتين عسكريتين على المنطقة أنهت التمرد وأعادت الأمن إلى بلاد بابل ووصلت القوات الآشورية إلى ساحل الخليج العربي لتأمين طرق التجارة.

ومرة ثانية توجه شيلمنصر نحو الغرب للقضاء على الدويلات الرئيسة التي كانت في الحلف السوري ضد الأشوريين، فدحر قوات، دمشق وإن لم يدخل دمشق نفسها في حين قدم ياهو ملك إسرائيل وملوك صور وصيدا الجزية، وسارعت مصر إلى إرسال الهدايا. وفي السنوات الأخيرة من حكمه، تمكن شلبمنصر من السيطرة على بعض الأقاليم في الشمال الغربي مثل إقليم تبال وقو وجعلهما من الأقاليم التابعة، وبذلك تمت السيطرة الكاملة على طرق المواصلات ومصادر المواد الخام، ومن النتائج الحضارية الهامة في هذه الفترة انتقال العديد من الطرز الفنية السورية إلى بلاد آشور إثر استخدام الفنيين والحرفيين السوريين في بلاد آشور نفسها، ولعل أوضح دليل على ذلك تحصينات المدن الآشورية.

وفي الجبهة الشمالية والشرقية كانت دولة اورارتو تغذي فيها الاضطرابات، مما اضطر الملك الآشوري إلى إرسال حملات تأديبية إلى المنطقة الجبلية ضمنت أمن وسلام منطقة أعالي ما بين النهرين وإقليمي تبال وقو (كيليكيا).

ويبدو أن السياسة العسكرية التي أتبعها شيلمنصر لم تلق التأييد الكامل داخل بلاد آشور، حيث حدث تمرد تزعمه أحد أبنائه، وأيدته العديد من المدن الآشورية المهمة مثل آشور ونينوى، فتولى ولي العهد شمشي _ أدد الخامس مهمة القضاء على التمرد.

وقد استغرق ذلك أربع سنوات توفى خلالها شيلمنصر، فاستمر شمشي _ ادد بمهمته بعد اعتلائه العرش وساعدته في ذلك حليفته بابل، وانتهزت بعض الأقاليم النائية الفرصة فانسلخت عن الدولة الآشورية ولا سيما في المنطقة الجبلية في الشمال والشمال الشرقي في منطقة بلاد نائيري. مما اضطر شمشي _ ادد إلى تجهيز عدد من الحملات العسكرية لإعادة السيطرة عليها، وعلى الرغم من العلاقات الطيبة التي كانت تربط بلاد بابل بآشور يبدو أن الملك البابلي قد تورط في حلف مع ملك عيلام وزعماء القبائل الكلدية والآرامية في الجنوب والشرق ضد الدولة الآشورية فجهزت حملة عسكرية على المنطقة دحرت فيها قوات الحلف وذلك عام ٨١١ ق.م.

وكان لتعدد الحملات العسكرية التي خاضها الجيش الآشوري وللثورات الداخلية التي قامت في بلاد بابل وآشور، أن ضعفت الجبهة الداخلية فكان ذلك إيذانًا بنهاية العصر

الإمبراطوري الزاهر، فقد خلف شمشي _ ادد ابنه القاصر ادد _ نراري الثالث، فتولت أمه شمورامات (التي عرفت في المصادر الكلاسيكية باسم سميراميس) الحكم وصية على ابنها وحكمت نيابة عنه لمدة خمس سنوات، وفي عهد ادد _ نراري حاولت الدويلات والممالك السورية بما فيها دويلة إسرائيل تجديد حلفها القديم والقضاء على النفوذ الآشوري في سوريا غير أن القوات الآشورية القوية التي سارعت إلى معالجة الموقف حالت دون ذلك.

تعاقب على العرش الآشوري بعد هذه الفترة عدد من الملوك الضعفاء الذين لم يتمكنوا من مواجهة التحديات التي مارستها أورارتو في الشمال والقبائل الكلدية في الجنوب و الحلف السوري في الغرب إضافة إلى التمزق الإداري داخل الدولة الآشورية فانكمشت سلطتهم ونفوذهم وعمّت بلاد آشور ضائقة اقتصادية حادة نتيجة لقطع الطرق التجارية المؤدية إلى سوريا وآسيا الصغرى وبلاد بابل، فاجتاحت بلاد آشور ثورة أهلية عارمة قضت على الملك الحاكم وأفراد أسرته ونصبت بدلاً عنه الملك تجلانبليزر الثالث الذي عرف في المصادر البابلية باسم (بول)، الذي ادعى بأنه سليل ادد _ نراري الثالث.

يُعدُ تاريخ اعتلاء تجلاتبليصر الثالث عام ٧٤٤ ق.م بداية لعصر الإمبراطورية الآشورية الثانية وكان تجلاتبليصر إداريًا من الطراز الأول وقائدًا عسكريًا فذًا استطاع خلال سني حكمه الذي دام حتى عام ٧٠٥ ق.م من القضاء على الفوضى والارتباك السياسي والاقتصادي الذي عم بلاد آشور في أعقاب الثورة الأهلية وأن يعيد للدولة سابق هيبتها وسلطانها ويزيد من نفوذها في مختلف الجبهات، وكما سبقت الإشارة، فقد كانت من الأسباب الرئيسة التي ساعدته على تحقيق ذلك التنظيمات الإدارية الدقيقة التي أدخلها على أسلوب إدارة المقاطعات والأقاليم الآشورية المختلفة والتنظيمات العسكرية الجديدة التي اعتمدها في بناء جيشه إضافة إلى السياسة المدروسة في تثبيت الدولة.

وكان من جملة نشاطات تجلاتبليزر العسكرية والإدارية أنه ضمن حدود بلاد آشور الشرقية وأعاد تنظيم المنطقة حيث قسمت إلى مقاطعتين مقاطعة أرابخه)كركوك حاليًا) التي امتدت حتى شرقي بغداد في حين امتدت المقاطعة الثانية لتشمل الأراضي الواقعة إلى الجنوب منها والتي تفصل بين بلاد عيلام وبلاد بابل، ونظرًا لأن الملك البابلي آنذاك كان

مواليًا للدولة الآشورية فقد فسح المجال أما تجلاتبليزر للاهتمام بالجبهة الشمالية الشرقية حيث كانت دولة أورارتو قد زادت من ضغوطها على حدود الدولة الآشورية وغدت تهدد كيانها إضافة إلى قطعها الطرق التجارية، فجهز حملة عسكرية إلى أراضي نمري الواقعة شمال إقليم زاموا المجاورة لدولة أورارتو وتمكن من فرض سيطرته على المنطقة دون مقاومة تذكر مما اضطر ساردر ملك أورارتو أن يسارع إلى عقد حلف ضد الآشوريين في الجبهة الشرقية غير أن زحف الجيش الآشوري في السنة الثانية قضى على قوات ذلك الحلف وهرب ساردر تاركًا وراءه جميع ممتلكاته الشخصية، وبعد الانتصارات التي حققها على الجبهة الشمالية الغربية قام بإعادة تنظيم إدارة الأقاليم التابعة للدولة الآشورية في الجبهة الغربية وقضى على الجيوب القليلة التي كانت ما تزال تثير القلاقل ضد الآشوريين في سوريا واتخذ سوريا قاعدة عسكرية لتوجيه الحملات إلى الشمال والشمال الشرقي. وفي عام ٧٣٤ ق.م حدثت بعض الاضطرابات في جنوب فلسطين وأعيد تشكيل حلف شمال سوريا الذي ضم عددًا من الدويلات السورية ودويلة إسرائيل في حين كان ياهو ملك يهوذا مواليًا للدولة الآشورية وقد استنجد بالملك الآشوري ضد قوات الحلف مما اضطر تجلاتبليزر لأن يتدخل عسكريًا ويعيد سيطرته على المنطقة.

وفي الجبهة الجنوبية وبعد وفاة الملك البابلي الموالي للآشوريين، تمردت إحدى القبائل الكلدية ضد آشور في حين ظلت المقاطعات الآشورية في الشرق من بلاد بابل موالية للدولة الآشورية كما كان كذلك سكان بلاد بابل المحليون، وقد استخدم تجلاتبليزر أساليب دبلوماسية أولاً، ومن ثم أعقبها بحملة عسكرية قضى فيها على المتمردين ودخل بلاد بابل وقلد نفسه ملكًا عليها وقد عرف باسم (بول).

وفي عهد شيلمنصر الخامس القصير، قامت حملة عسكرية مهمة على الجبهة الغربية وحوصرت مدينة السامرة وربما كان قائد الجيش الآشوري سرجون الذي تولى العرش بعده حيث ادعى سرجون نفسه بأنه فتح السامرة.

تولى سرجون الحكم عام ٧٢١ ق.م ولا نعرف بالضبط علاقته بالملك السابق غير أنه كان على رأس سلالة حكمت حتى نهاية كيان الآشوريين السياسي.

ويبدو أن بـعض الأقاليم والمقـاطعات الآشورية الحـدودية قد اسـتغلت فـرصة اعـتلاء سرجـون العرش، ربما بشكل غيـر شرعي، فأعلـنت التمرد والعـصيان بتـحريض من دولة أورارتو وبعض المدن السورية ومصر وبلاد عيلام إضافـة إلى القبائل الجبلية والكلدية، وقد تمكن زعيم قبيلة كلدو. وهو مردوخ _ إبلا _ ادينا من اغتصاب العرش البابلي وساندته في ذلك مملكة عـيلام ورغم محـاولات سرجـون القضـاء عليه في الفـترة الأولى من اعـتلائه العرش إلا أنه ظل يحكم ملكًا على بلاد بابل لمدة عشر سـنوات نظرًا لانشغال سرجون في الجبهة الغربية وقاست في عهده المدن البابلية من ضـائقة اقتصادية حادة نتيجة تحكم القبائل الكلدية والعيلاميـة في الوضع وكان البابليون يستنجدون بالملك الآشـوري لتخليصهم من تلك الأوضاع، وبعد تمكن سرجون من توطيد مركزه في الجبهة الغربية توجه نحو بلاد بابل وفتح مدنهـا ونصب نفسه نائبًا للإله عليـها غير أنه أعاد تنصـيب الزعيم الكلدي مردوخ _ ابلا _ ادينا زعيمًا على قبيلته بعد أن قدم له الخضوع والطاعة، وفي الجبهة الغربية، توجهت حملة عسكرية للقضاء على التمرد الذي أثارته بعض المدن التي تزعمتها حماة وتم القضاء عليـهـا في قرقـر وذلك عـام ٧٢١ ق.م غـير أن الخطر الرئـيسي الذي كـان يواجـه الدولة الآشـورية هي دولـة أورارتو في الشـمـال ومملكـة زكـرتو شـرقي بحـيـرة وان والميـديون الإيرانيون، ولـم تتـمكن الحملات التأديبـية من القضاء عـلى الاضطرابات التي أثارتها هذه القوى في المنطقـة الحدودية مما اضطر سرجـون أن يتخذ الإجـراءات اللازمة للقيـام بحملة عسكرية قـوية على المنطقة، وقد عـرفت هذه الحملة لدى الباحـثين بحملة سرجـون الثامنة وأخذت تفاصيلها من التقرير الذي كتبه سرجون على شكل رسالة موجهة إلى الإله آشور، وقد تمكنت الحـملة من تحقيق أهدافهـا والقضاء على أسبـاب الاضطرابات في المنطقة علي الرغم من الصعوبات الكثيرة التي واجهها الجـيش الآشوري أثناء تقدمه في المنطقة الجبلية، كما قضى سرجون على قوة دولة مشكو في جنوب شرقي آسيا الصغرى وضمن ولاءها.

وكان من بين أعمال سـرجون الخالدة والتي تشهد بالتقـدم الحضاري الذي وصلت إليه الدولة الآشـورية في هذه الفتـرة بناؤه عـاصمـة جديدة للدولـة الآشورية على بعـد بضعـة كيلومتـرات من العاصمة القـديمة نينوى وهي مدينة دور _ شروكين)خرسبـاد)، أي مدينة سرجون، واستغرق بناء العاصمة تسع سنوات وانتهت في عام ٧٠٦ ق.م حيث انتقل إليها

سرجون غير أنه لم يكتب لهذه المدينة البقاء فترة طويلة، فما أن توفي سرجون في السنة التالية إلا وهجرتْ من قبل ابنه سنحاريب وربما نقلت بعض منحوتاتها وتماثيلها إلى العاصمة نينوى، وقد نالت خرصباد شهرتها في العصر الحاضر حيث قامت بعثات التنقيب الأجنبية بالعمل فيها والكشف عن قصورها ومعابدها التي كانت تزينها اللوحات الجدارية المنحوتة نحتًا بارزًا والثيران المجنحة والتماثيل والمسلات ونقلت معظم الآثار المكتشفة فيها إلى المتحف البريطاني في لندن ومتحف اللوفر في باريس في حين فقد الكثير من آثارها أثناء نقلها إلى أوربا.

اعتلى سنحاريب العرش بعد والده سرجون وذلك عام ٧٠٤ ق.م وكانت الإمبراطورية الآشورية عند توليه الحكم تنعم باستقرار نسبي بفضل الجهود العسكرية الكبيرة التي بذلها سرجون ولا سيما في الجهة الشمالية، فكان عهد سنحاريب عهد رخاء اقتصادي وازدهار حضاري متميز تمثل بنشاطاته العمرانية الكثيرة التي شملت معظم المدن الآشورية، وتركزت في مدينة نينوى التي أتخذها عاصمة له عند توليه الحكم غير أن السلام النسبي الذي تمتعت به آشور لم يدم طويلاً حيث ما لبثت الأوضاع أن اضطربت في بلاد بابل، أعقبها تمرد في المدن السورية والفلسطينية، وكان على سنحاريب أن يعمل بقوة وعزم لإعادة الهدوء إلى هاتين المنطقتين، ففي بلاد بابل قام زعيم قبيلة ياقين الكلدي باغتصاب العرش البابلي، وسانده في ذلك حكّام عيلام وبعض القبائل الآرامية المناهضة للحكم الآشوري فجهز حملة على بلاد بابل قضت على التمرد ودخل سنحاريب مدينة بابل. وفي الجبهة الغربية، قامت بعض المدن الفلسطينية بضمنها يهوذا بتحريض ومساندة الفرعون المصري بإعلان التمرد ضد الحكم الآشوري فقام سنحاريب بتجهيز حملة عسكرية عليها وأخضع المدن المتمردة وحاصر أورشليم عاصمة يهوذا غير إنه لم يفتحها لأسباب ما تزال غامضة، وعادت القوات الآشورية لتتوجه ثانية إلى بلاد بابل التي قامت بالتمرد ثانية، وبعد عدة حملات تأديبية لم تكن حاسمة توجه سنحاريب بحملة عسكرية قوية قوامها قطعات برية وأخرى نهرية للقضاء على مملكة عيلام التي كانت تدعم دائمًا القبائل الكلدية ضد النفوذ الآشوري وهوجمت بلاد عيلام برًا وبحرًا على الرغم من محاولاتها الهجوم على بلاد بابل عن طريق الدير وحاصر مدينة بابل لمدة تسعة أشهر ثم دخلها ودمرها تدميرًا كاملاً وسلط عليها مياه نهر الفرات.

وفي عام ٦٨١ ق.م اغتيل سنحاريب من قبل أحد أبنائه في ظروف غامضة وتولى العرش بعده ابنه اسرحدون.

وإلى جانب الإنجازات العسكرية التي حققها سنحاريب خلال سني حكمه، كانت نشاطاته العمرانية ومشاريعه الروائية ذات أهمية قصوى سيما وأن التنقيبات الأثرية قد كشفت عن بقايا بعض النشاطات في معظم المدن الآشورية المهمة، وتركزت أعمال سنحاريب العمرانية في مدن نينوى التي اتخذها عاصمة لإمبراطوريته المترامية الأطراف، ولتنفيذ خططه في جعل العاصمة نينوى تتناسب وعظمة الإمبراطورية الآشورية وقوتها، قام بتوسيع المدينة إلى درجة كبيرة وأعاد بناء أسوارها ببواباتها الخمس عشرة، وبلغ محيط المدينة شبه المنحرف ما يقرب من اثنى عشر كيلومترًا وشيد القصور والمباني الملكية في الموقع المعروف حاليًا بتل قوينجق، في حين تركزت المعابد في موقع تل النبي يونس، وقد بينت التنقيبات التي أجريت في تل قوينجق وكشفت عن قصر سنحاريب المدى البعيد الذي وصله الذوق الآشوري المعماري والفني كما أظهرت التأثيرات الفنية السورية على الطرز المعمارية والفنية المستخدمة والتي تشير إلى أن سنحاريب قد استفاد من الحرفيين السوريين الذين جلبهم معه وأسكنهم نينوى، ولم تقتصر أعمال سنحاريب على بناء المعابد والقصور بل تضمنت فتح الشوارع والساحات الكبيرة وفق تصميم كامل للمدينة وتأسيس حدائق وبساتين داخل المدينة زرع فيها مختلف أنواع النباتات والأشجار التي كانت تنمو في المناطق الجبلية والمناطق التي وصلتها الجيوش الآشورية في سوريا ولبنان كما قام بعمل بركة اصطناعية كبيرة جمع فيها شتى أنواع الطيور والأسماك والحيوانات المائية، ولا رواء البساتين والحدائق وإيصال المياه العذبة إلى العاصمة نينوى قام سنحاريب بتنفيذ مشروع ري ما تزال آثاره باقية حتى يومنا هذا فقد جلب المياه العذبة إلى نينوى من نهر الكومل الذي يبعد ما يقرب من خمسين ميلاً عن نينوى بواسطة قناة شيدها بحر الكلس تمتد من منطقة جروانة.

وحيث أن المنطقة التي تمر بها القناة فيها المرتفعات والوديان فقد شيد لها قناطر على بعض الوديان طول إحداها ثلاثمائة ياردة وعرضها أربع وعشرون ياردة، وعند صدر القناة عند القرية المعروفة حاليًا باسم خنس توجد منحوتات ضخمة، تحمل موجز أخبار تشييد المشروع.

وفي اربائيلو قام سنحاريب بمشروع أرواء آخر، وتكاد لا تخلو أية مدينة آشورية من آثار سنحاريب العمرانية، ففي مدينة ثربيص القريبة من نينوى كشف عن معبد للإله نركال وعن قصر لولاية العهد أعيد بناؤهما في عهده كما أوضحت التنقيبات مهارة ودقة المعمار الآشوري لاسيما فيما يخص تصريف المياه لتلطيف الجو أولاً وربما لإقامة بعض الطقوس الدينية كالتي تتم في المسبح المقدس "بيت رمكي".

وعند اعتلاء اسرحدون (٦٨١- ٦٦٩ ق.م) العرش، كانت مهمته الأولى القضاء على الفتن والاضطرابات التي وقعت بين صفوف الجيش الآشوري في أعقاب اغتيال والده، وكذلك التمرد الذي وقع في بعض الأقاليم التي استغلت فرصة الاضطرابات، غير أن السياسة التي اتبعها اسرحدون في معالجته المشكلة البابلية كانت تختلف اختلافًا كبيرًا عن سياسة والده، ولعله أفاد من الأخطاء التي وقع فيها والده، وكذلك من ممارسته الفعلية في حكم بلاد بابل في عهد أبيه، وهكذا اتبع من بلاد بابل سياسة اللين والترضية وباشر بإعادة بناء بابل التي كان والده قد دمرها وأعاد إلى السكان أملاكهم التي كانت قد سُلبتْ منهم أثناء سيطرة القبائل الكلدية وقد لاقت هذه السياسة نجاحًا كبيرًا بين صفوف البابليين حتى غدت بابل نفسها قاعدة عسكرية للقوات الآشورية لمواجهة الأخطار المتوقعة من الشرق دائمًا كما لم تلق محاولات حكام عيلام في احتلال بابل وتحريض القبائل ضد الآشوريين أي صدى عند البابليين.

وفي الجبهة الشمالية والشمالية الغربية كانت بعض القبائل السيثية قد توغلت في المنطقة كما عادت للظهور بعض القبائل الكسرية فوقعت صدامات مسلحة بينها وبين القوات الآشورية في حين أقيمت علاقات ودية وأبرمت معاهدات صداقة مع بعض الأمراء الميديين، ويبدو أن السياسة العام التي اتبعها أسرحدون في معالجة المشاكل هي الجنوح إلى السلم كلما كان ذلك ممكنًا حتى وإن اقتضى الأمر خسران بعض الأقاليم.

غير أن اسرحدون لم يتبع سياسة اللين دائمًا، ففي الغرب كانت بعض المدن السورية وعلى رأسها مدين صور وبتحريض من مصر، تعمل على خلق الاضطرابات وتنشر التمرد ضد الآشوريين، فقرر اسرحدون أن يقضي على أسباب التمرد الرئيس في الجبهة الغربية

وذلك بالقضـاء على الملك الحبشي في مـصر، وفي عام ٦٧٥ ق.م توجه الجـيش الآشوري نحو الحدود المصرية غير أن سوء الأحوال الجوية حال دون استمراره في الدخول إلى مصر. وفي عام ٦٧١ ق.م تقـدم الجيش الآشوري ودخل مصـر وهزم ملكها طهراقا وحـوصرت مدينة منفيس عاصمة مصر السفلى ومن ثمَّ فتحت وهرب طهراقا نفسه إلى الجنوب وأعلن اسرحدون نفـسه ملكًا على مصر العليـا والسفلى وإن كان ادعاؤه هذا قد تجـاوز انتصاراته العـسكرية، غيـر أن طهراقـا عـاد ثانية وألب الحكام المحليـين في مصـر السفلى واسـتعـاد منفيس، فـقام اسرحدون عام ٦٦٩ ق.م بإعـداد حملة عسكرية جديدة للزحـف على مصر مرة أخرى لكنه توفى قبل أن يصل إلى مصر.

وفي فتـرة مبكرة مـن عهد أسـرحدون قـام بتنظيم أمر ولايـة العهد ووضـع الترتيـبات اللازمة لذلك تفـاديًا لما قد يحدث من اضطرابات ومؤامـرات كالتي حدثت في عهـد أبيه، ففي عام ٦٧٢ ق.م أعلن أسرحدون في اجتماع كبير في العاصمة حضره حكام المقاطعات وقادة الجيش وكبار الموظفين عن تعيين ابنه آشور بانيبال وليًا للعهد على بلاد آشور، وتثبيت ابنه الثـاني (شمش _ شم - اوكن) وليًـا للعهـد على بلاد بابل وذلك بعد أن أخـذ موافـقة مجلس العـائلة الملكية ومـوافقة الآلهـة القومـية وقد طلب من الحكام والـقادة أن يقسـموا اليمين أمامه معترفين بالترتيبات ومـعاهدين الملك على تنفيذها بكل دقة كما أخذت مواثيق تحريرية من بعض الحكام التابعين والموالين ثبتت جميع الإجراءات وحددت العقوبات على كل من يحنث بيمينه أو يغير من الوصية أو يعمل بأي شكل من الأشكال على عدم تطبيقها بكل دقـة، وقد تم الكشف عن إحـدى نسخ هذه المعاهدات التي عـقدت مع أحـد الأمراء الميديين، وعندمـا توفى أسرحدون نفـذت الخطة التي وضعهـا لولاية العهد بهـدوء واعتلى آشـور بانيبـال العـرش الآشـوري في حين اعتلـى أخوه (شـمش _ شم _ اوكن) العرش البابلي.

وعلى الرغم من الجـهود الكبـيرة التـي بذلها اسـرحدون في تهـدئة الأوضاع الداخليـة والتحسب لأية مشكلة قبل وقوعها، وعلى الرغم من القوة التي تمتعت بها الدولة الآشورية في هذه الفتـرة وامتداد نـفوذها، إلا أن التحـديات التي واجههـا آشور بانيـبال كانت أكـبر وأعظم.

ففي الجبهة الشمالية والشمالية الشرقي كان النظام والأمن اللذان تحققا في العهود السابقة قد اضطربا ربما بسبب انشغال الجيش الآشوري في الجبهة الغربية.

أما في بلاد بابل حيث كان شمش _ شم _ اوكن قد تولى العرش حسب الترتيبات التي وضعها والده اسرحدون، فكانت الأمور تسير بهدوء بين الأخوين في بداية الأمر إلا أن مملك عيلام كانت تعمل دومًا للتدخل في شؤون بلاد بابل بهدف السيطرة عليها مستغلة بعض القبائل الكلدية والآرامية المناوئة للآشوريين فبدأت تعمل على إشعال نار الفتنة بين الأخوين. وفعلاً توترت العلاقات بين آشور بانيبال وشمش _ شم _ اوكن إلى درجة اضطر معها آشور بانيبال إلى تجهيز حملة عسكرية على بلاد عيلام فتح خلالها عاصمتها شوشة ومدنها المهمة ونصب أحد أفراد الأسرة المالكة فيها حاكمًا عليها إلا أن تلك الإجراءات لم تقض على تدخل عيلام في شؤون بلاد بابل بل إن الحاكم العيلامي اتفق مع شمش _ شم _ اوكن نفسه للوقوف ضد آشور كما اتفقت معهما بعض القبائل الكلدية والآرامية والعربية وربما كانت مصر وحاكم يهوذا مؤيدين لذلك ومتفقين على مقاومة آشور بانيبال. وهكذا نشبت الحرب بين الأخوين واستمرت ثلاث سنوات متتالية انتهت باستسلام بابل وانتحار شمش _ شم _ اوكن، أما عيلام فكانت الفتن الداخلية قد أنهكتها مما سهّل على الجيش الآشوري دخولها وتدمير مدنها وفتح عاصمتها وكانت بذلك نهاية مملكة عيلام.

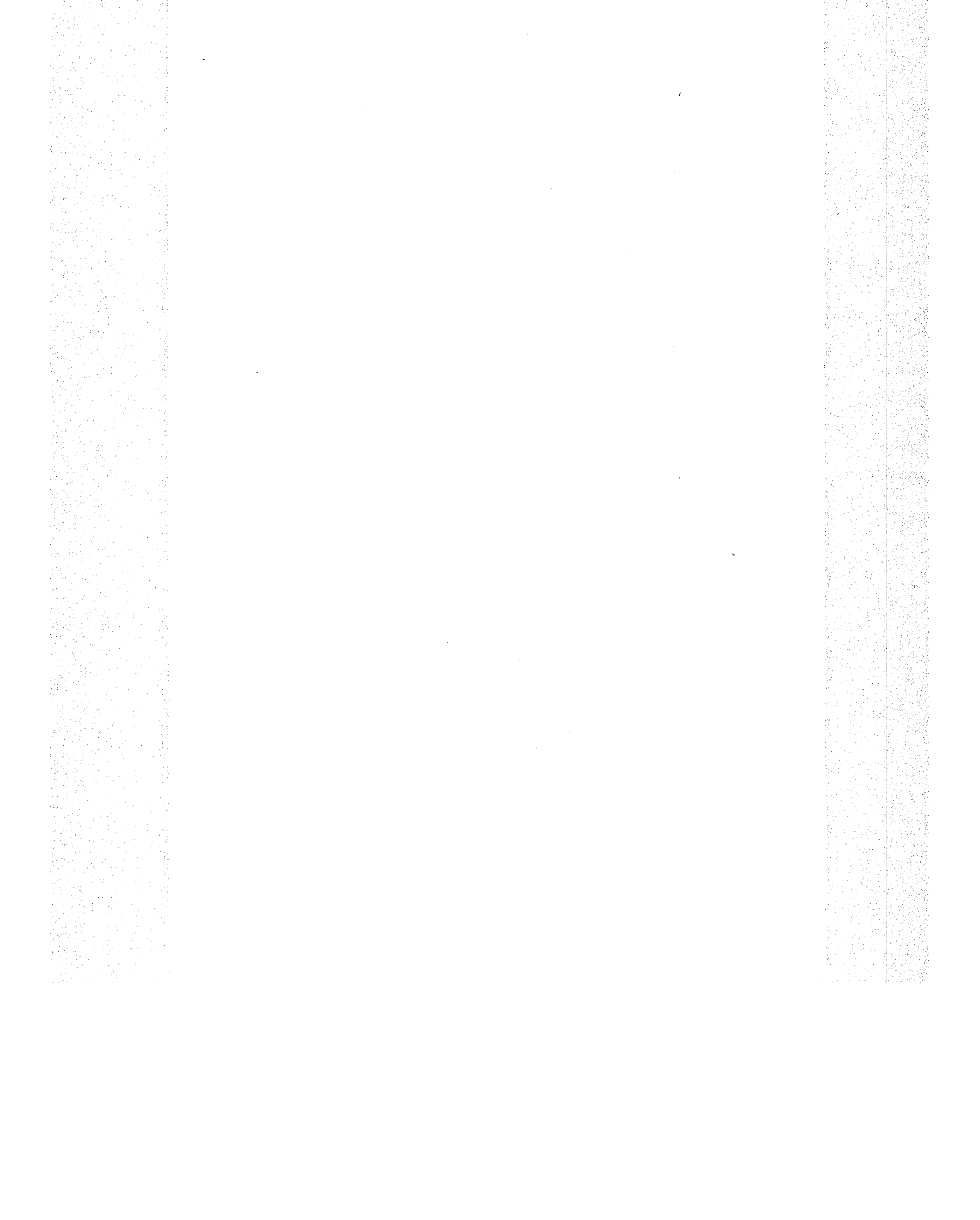
ومع الانتصارات التي حققها آشور بانيبال في بلاد بابل وعيلام، إلا أن الغموض يكتنف الفترة اللاحقة من حكمه وحتى نهايته عام ٦٢٦ ق.م، ولا سبيل لمعرفة تفاصيل الأحداث التي تتابعت على بلاد آشور خلال هذه الفترة إلا من مصادر ثانوية، وقد تكون من أسباب هذا الغموض بعض المؤامرات الداخلية واضطراب الأوضاع إضافة إلى تفاقم الأخطار الخارجية.

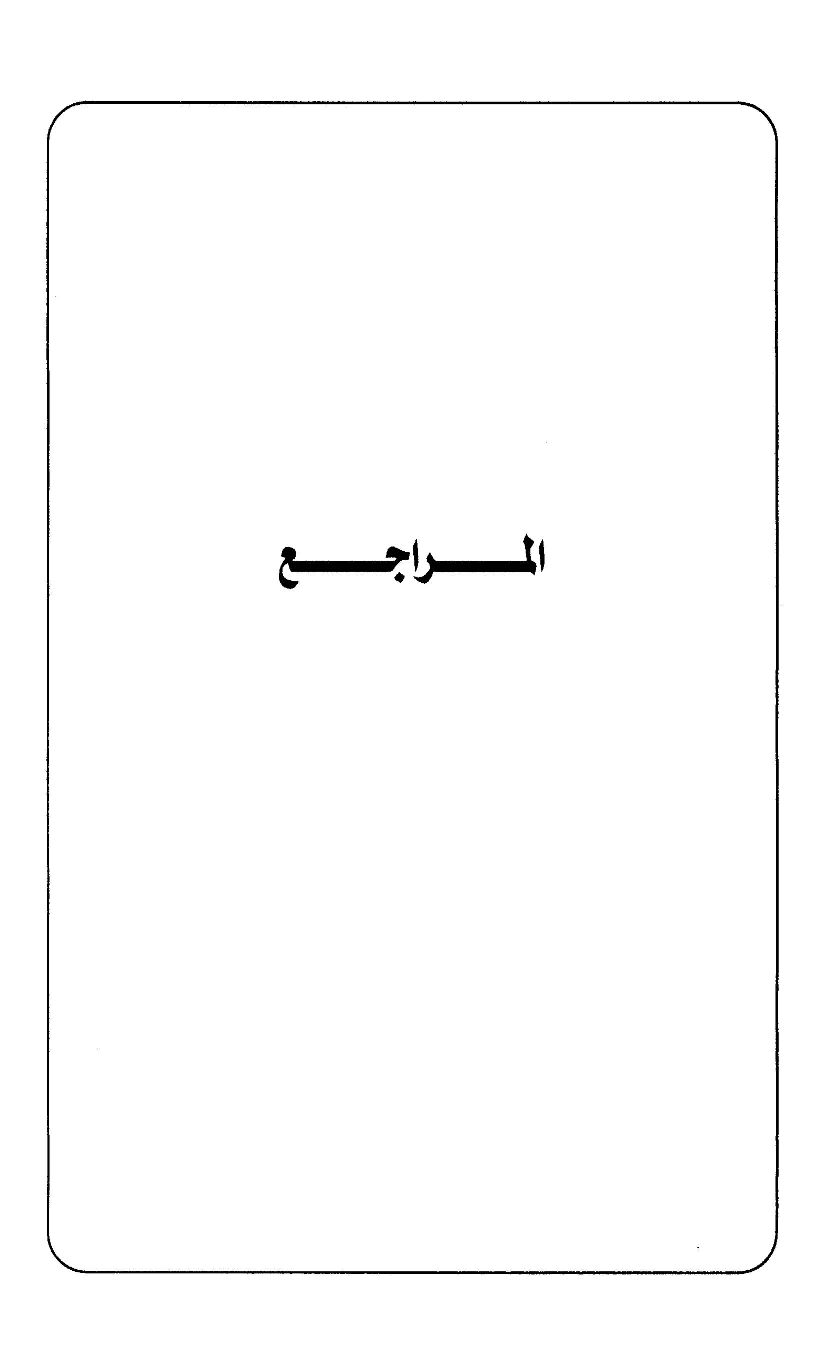
وتشير المعلومات القليلة المتوفرة إلى الارتباك والفوضى اللذين عما بلاد آشور في عهد خليفة آشور بانيبال المدعو آشور _ اطل _ الاني، وقد رافق ذلك ظهور زعيم قوي في بلاد بابل وهو نبوبولاصر زعيم الكلديين الذين تمكن من تنصيب نفسه ملكًا على بلاد بابل عام

٦٢٦ ق.م وبدأ يعدّ العدة للقضاء على الدولة الآشورية واتفقت أهدافه مع مصالح الميديين في عهد ملكهم كي _ اخسار واتفق الطرفان على تفويض الدولة الآشورية والهجوم عليها مما اضطر الآشوريون إلى طلب المساعدة من مصر حليفتهم آنذاك، وكان يحكم آشور آنذاك الملك سين _ شار _ اوشكن.

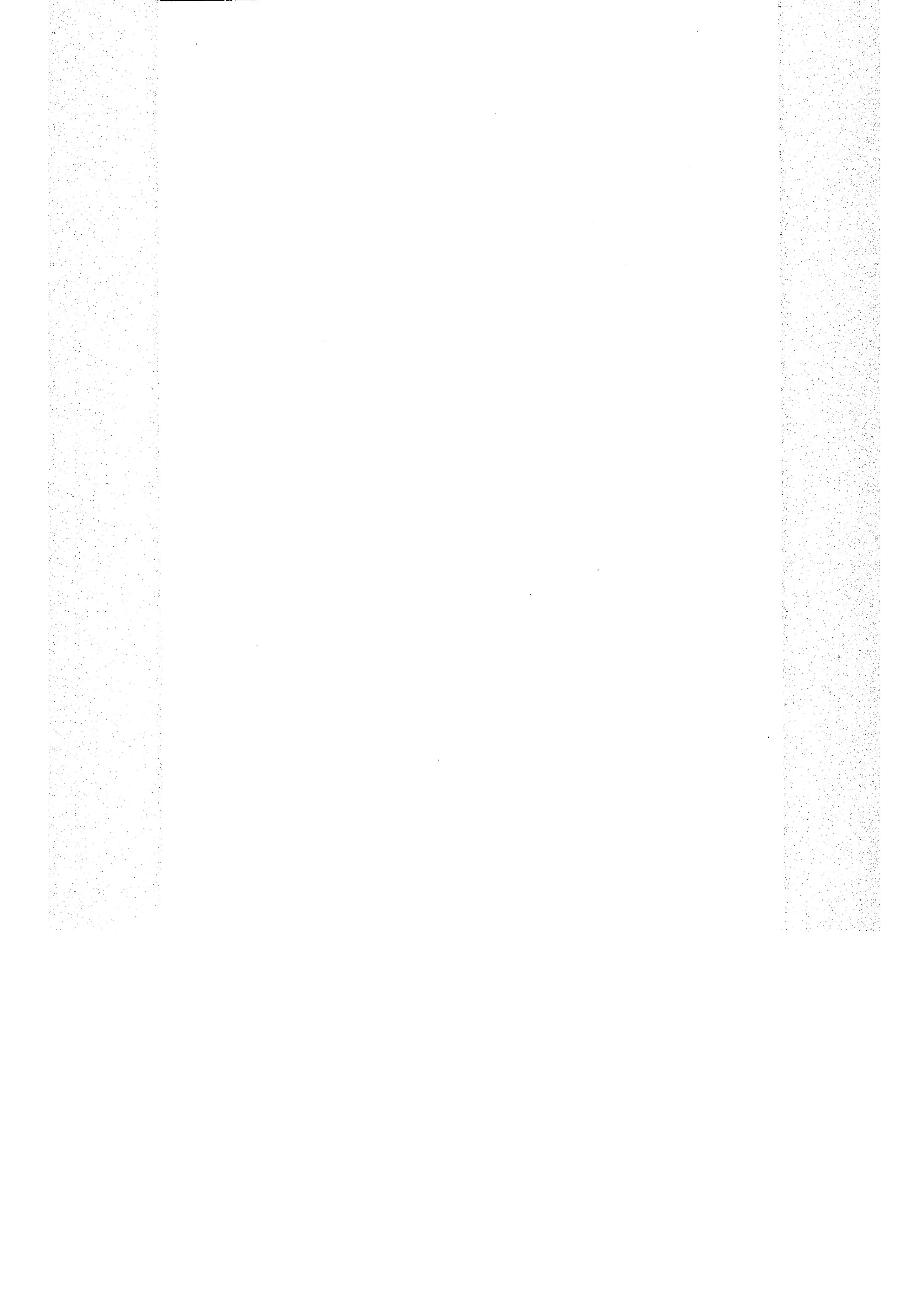
بدأ نبوبولاصر بإخراج الحاميات العسكرية الآشورية من بلاد بابل، واتجه بجيشه على طول نهر الفرات إلى المناطق التي تتواجد فيها القبائل الآرامية غير أن تقم الجيش الآشوري اضطره للانسحاب، وحاول الهجوم عام ٦١٥ ق.م على مدينة آشور ولم يتمكن من دخولها إلا بعد أن عقد اتفاقًا مع الميديين للهجوم سوية على بلاد آشور، في عام ٦١٤ ق.م فتحت آشور ومدينة تربيص القريبة من نينوى وأخيراً حوصرت نينوى وسقطت عام ٦١٢ ق.م بعد ثلاثة أشهر من حصارها، وأضرمت فيها النيران ونُهبت قصورها ومعابدها، وتمكنت بعض الوحدات العسكرية الآشورية من التوجه إلى مدينة حران في سوريا ونصبت أحد أفراد العائلة الآشورية من التوجه إلى مدينة حران في سوريا ونصبت أحد أفراد العائلة الآشورية المالكة، وهو آشور _ أوبالط الثاني، ملكًا عليها وبذلك ظلت الدولة الآشورية قائمة اسمسيا، وفي عام ٦١٠ ق.م قامت جموع الميديين والقبائل الحليفة لها بالهجوم على حران، والتحق بهم الجيش البابلي فانسحب الجيش الآشوري إلى الجنوب الغربي حتى وصلت القوات المصرية التي جاءت لمساعدة الآشوريين، وحقق الآشوريون بعض الانتصارات غير أن زحف الجيش البابلي بقيادة ولي العهد البابلي نبوخذ نصر اضطرهم للانسحاب إلى كركيش حيث وقعت معركة كبرى كان الانتصار الحاسم فيها للجيش البابلي.

وهكذا انتهى كيان الدولة الآشورية السياسي وأسدل الستار على أعظم وأقوى إمبراطورية عرفها التاريخ القديم حتى حينئذ غير أن الحضارة الآشورية وتأثيراتها على الأقوام والبلدان المعاصرة لها ظلت ظاهرة تحكي قصة الآشوريين ومجدهم.





المـــــراجـــع



المراجع

١- جورج رو: العراق القديم، ص ٢٤٢.

٢- طه باقر _ د. فاضل عبد الواحد علي _ د. عامر سليمان _ تاريخ العراق القديم _ بغداد ١٩٨٠، ص١٧.

٣- ك. ديلا بورت بلاد ما بين النهرين، الحديث، ترجمة محرم كمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

٤- عامر سليمان، العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣.

٥- د. هاري ساكز _ عظمة بابل، ترجمة د. عامر سليمان، الطبعة الثانية، لندن، ١٩٦٦,

٦- د. احمد داود: تاريخ سوريا القديم، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، دمشق، ١٩٩٧.

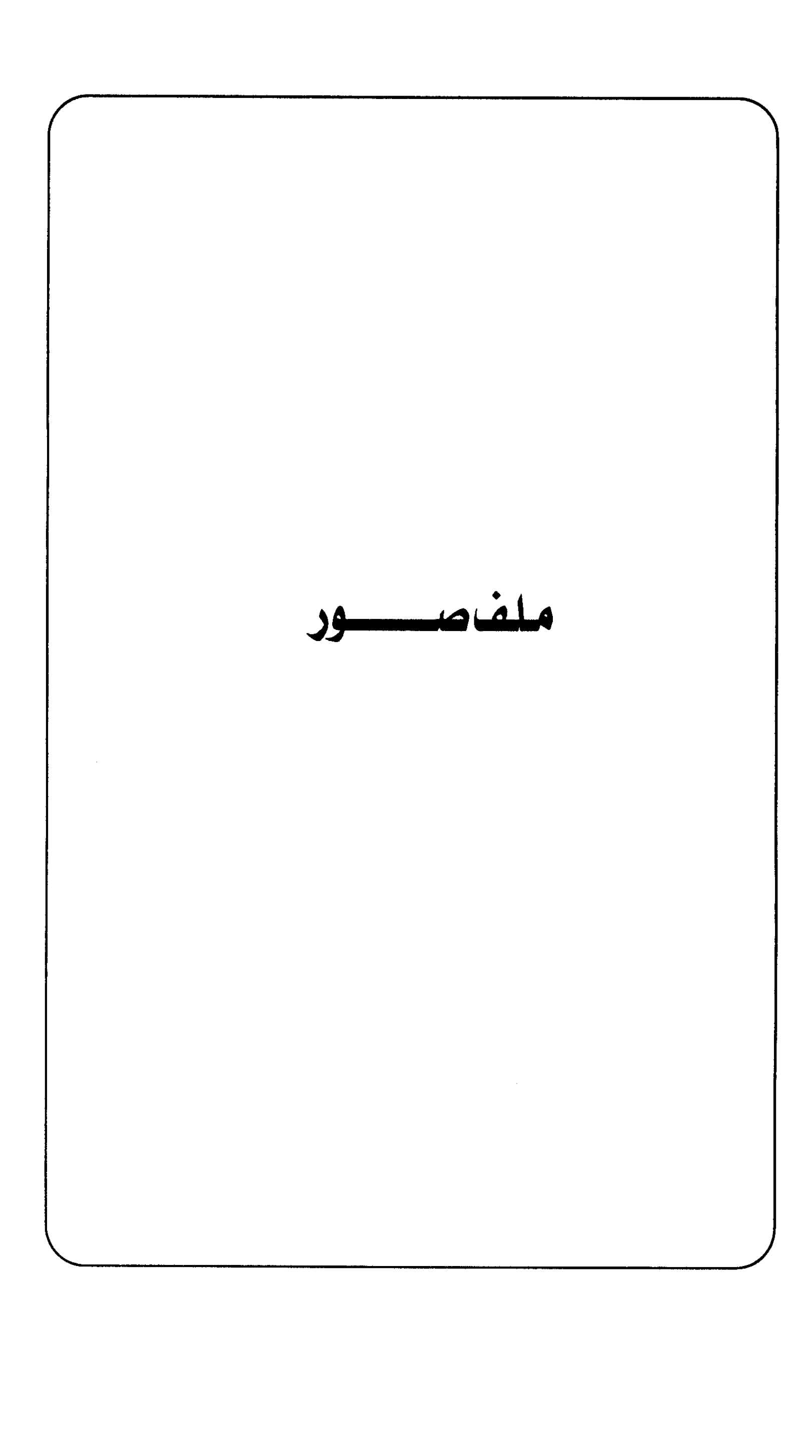
٧- جورج سارتون: تاريخ العلم، مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، ج ١، دار المعارف بمصر، ١٩٥٧.

٨- وداد الجوراني: الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ١٩٩٨.

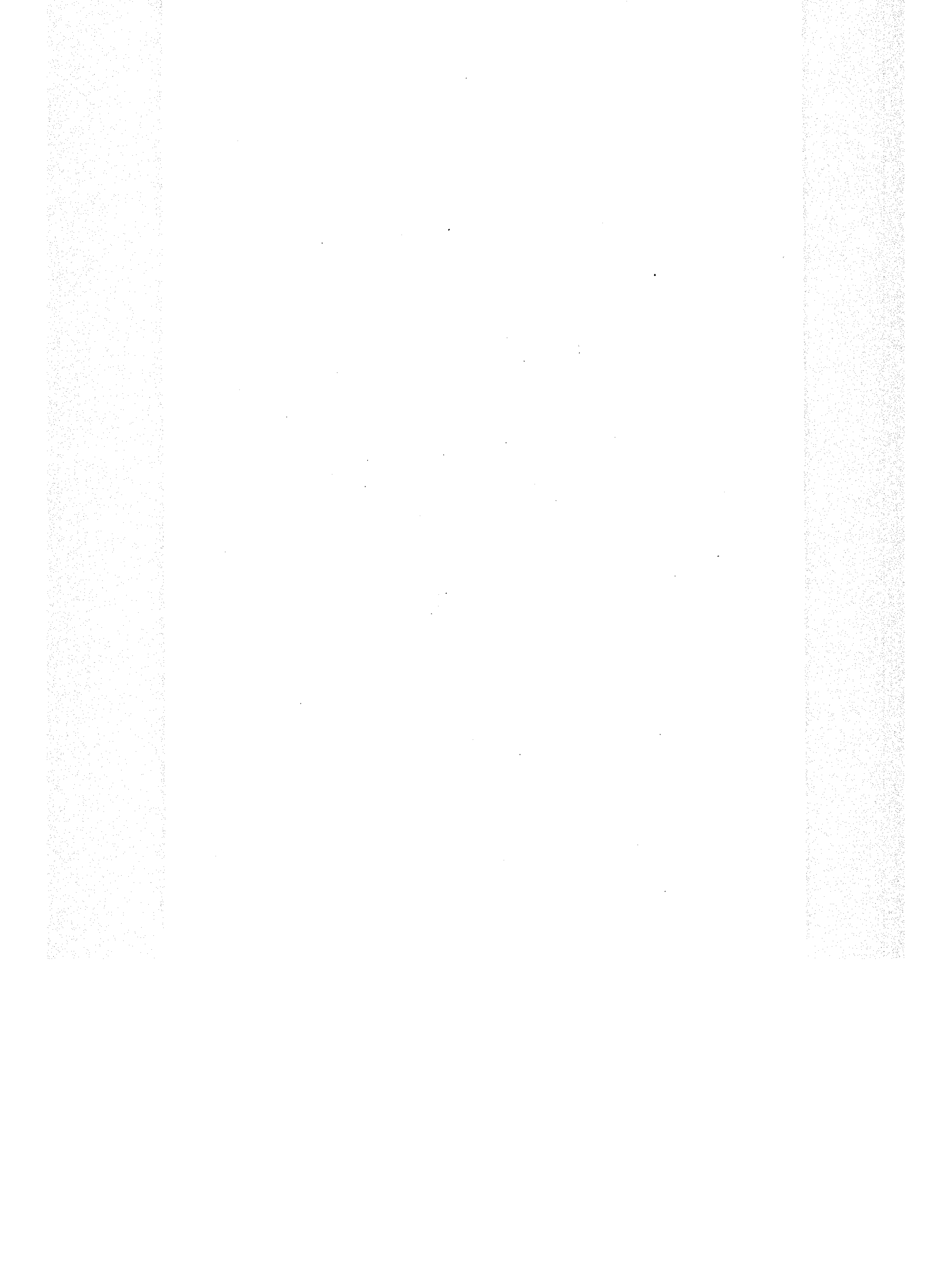
٩- كليل فاشا: أحيقاد _ حكيم من نيتوي، الناشر: بيان للنشر والتوزيع والإعلام، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٥.

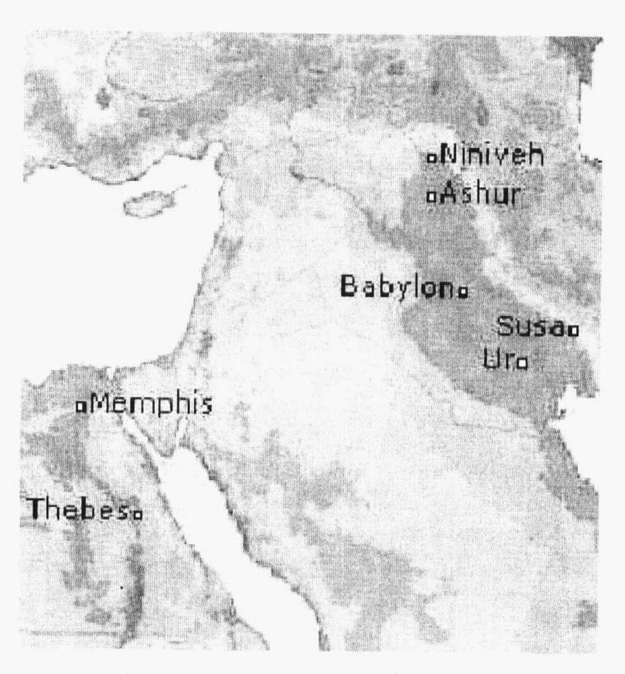
١٠- د. رعد شمس الدين الكيلاني: الأنبياء في العراق، دار الشئون الثقافية العامة، ط١، بغداد ٢٠٠١.

١١- د. إنطوان مـورنكات، تموز: عقـيدة الخلـوة والتقـمص في فن الشرق القـديم، تعريب وتحقيق د. توفيق سليمان، دار المجد للنشر والخدمات الطباعية، طبعة أولى ١٩٥٨ دمشق.

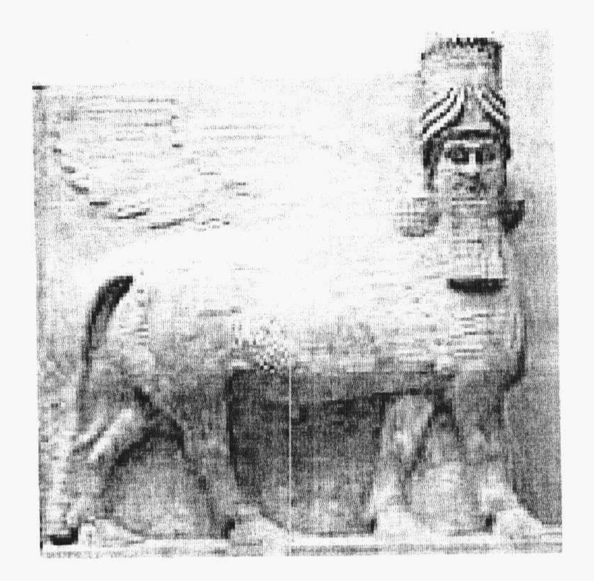


ملف صور



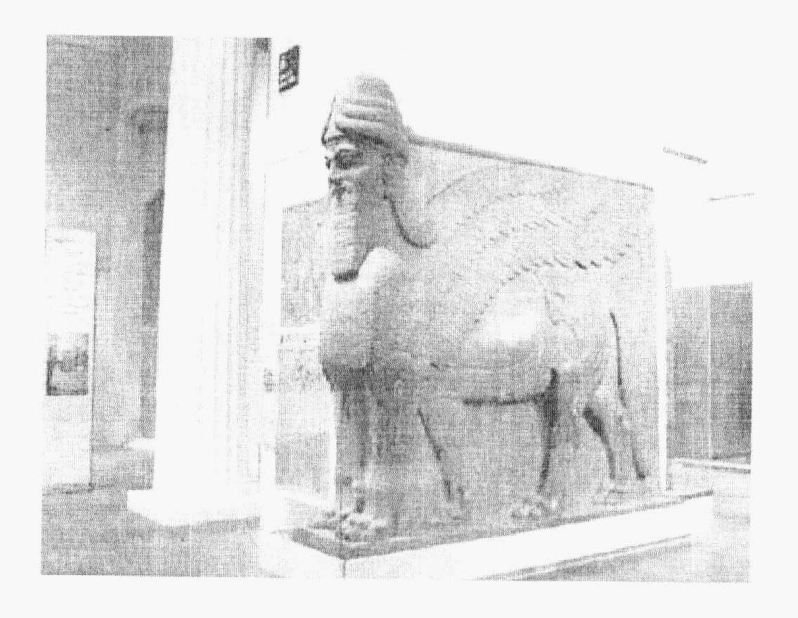


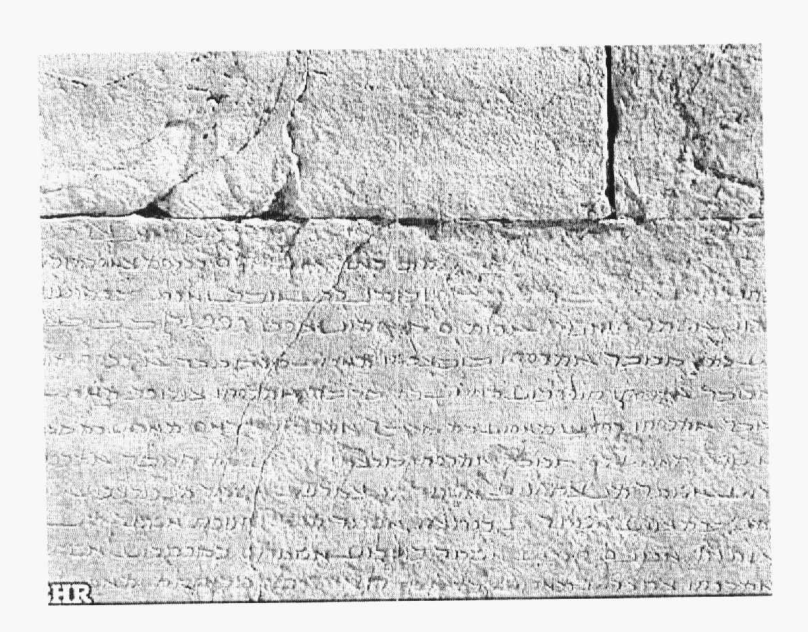
خارطة الامبراطورية الآشورية ٦٥٠ ق م

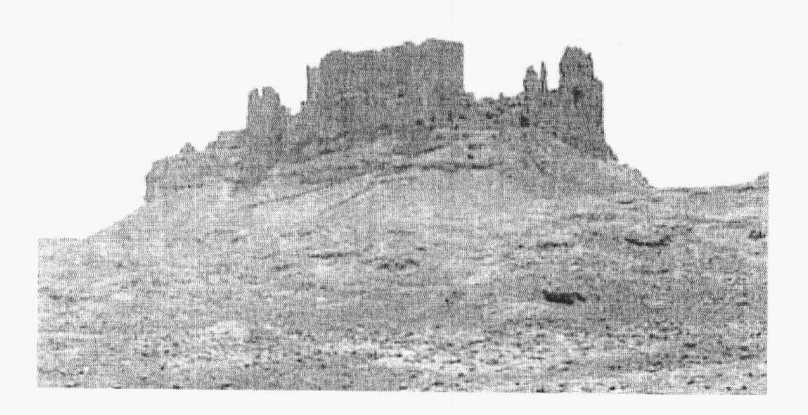


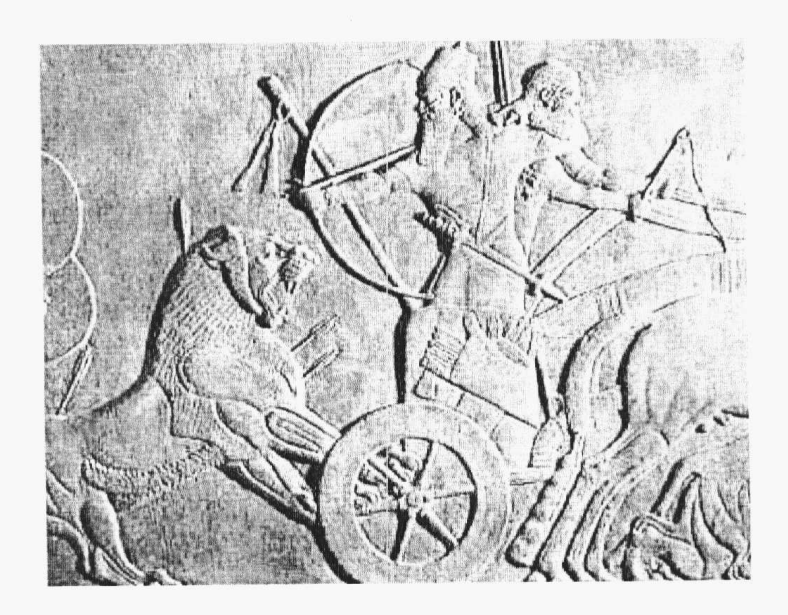




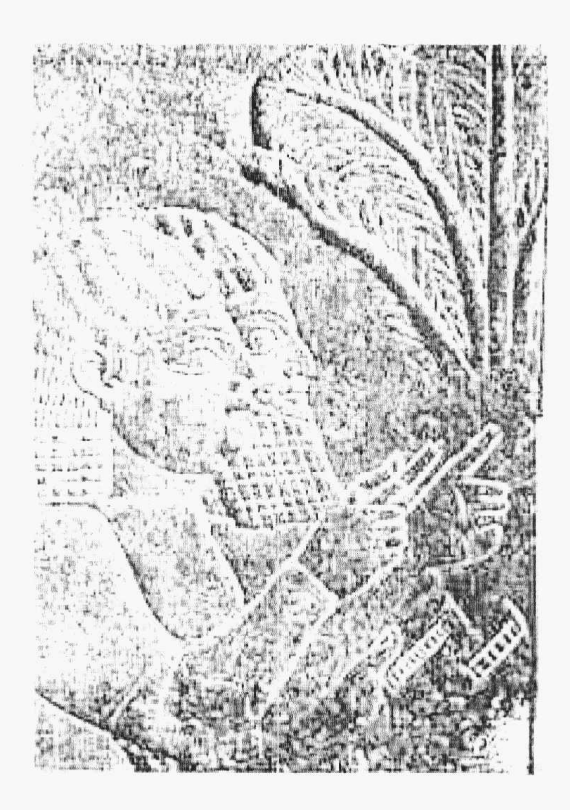


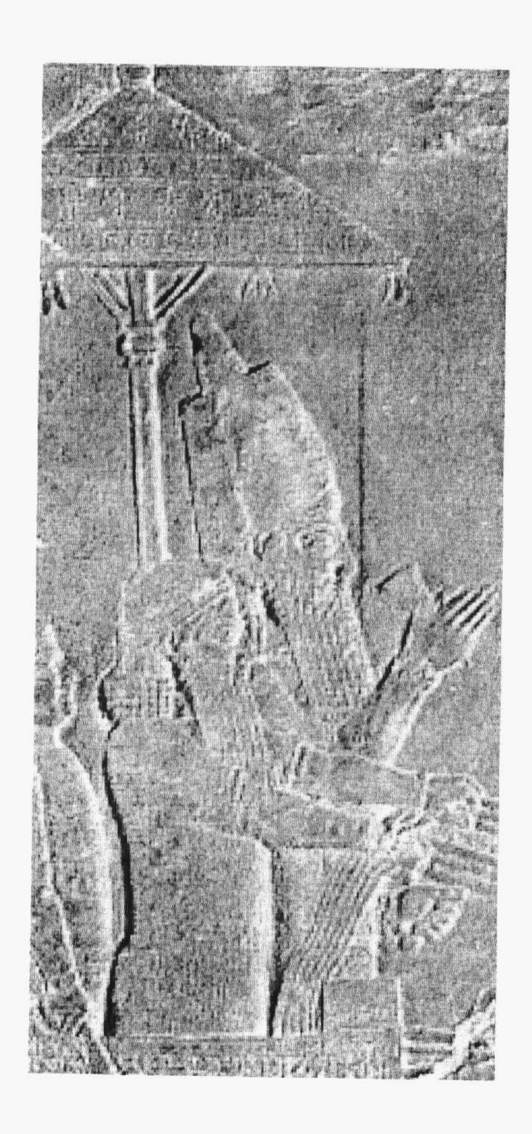




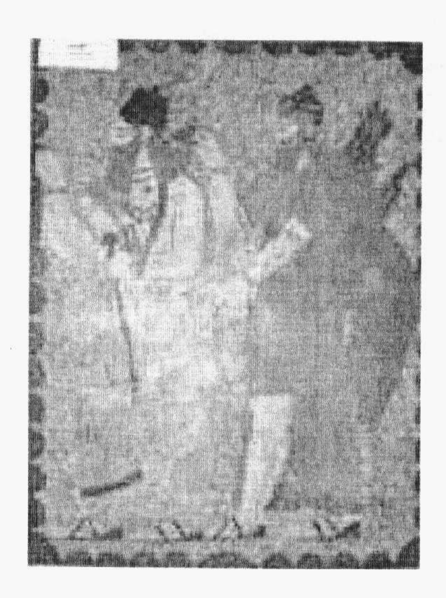






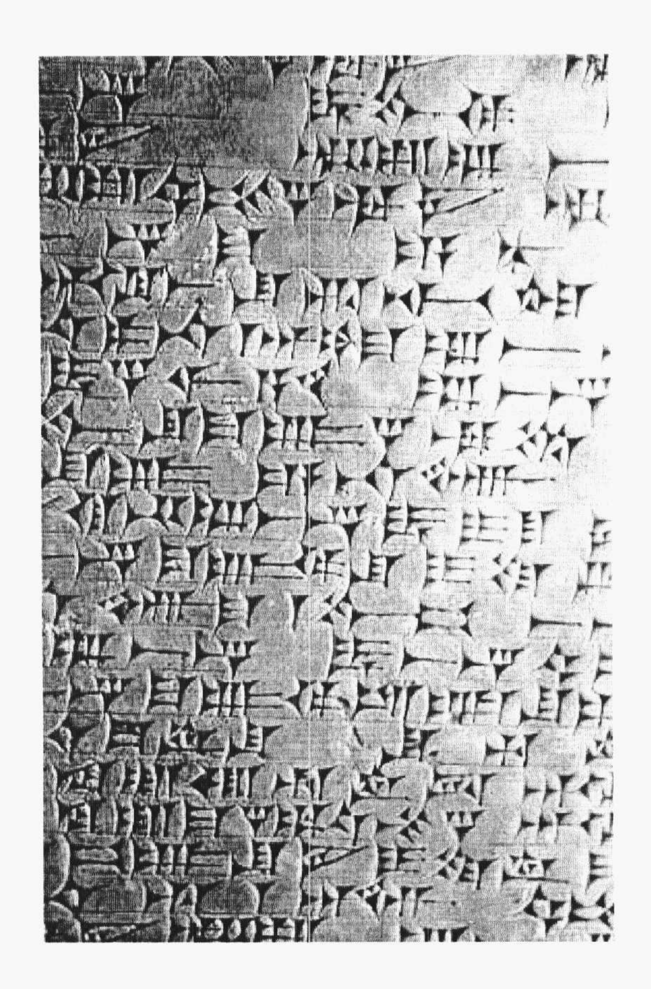


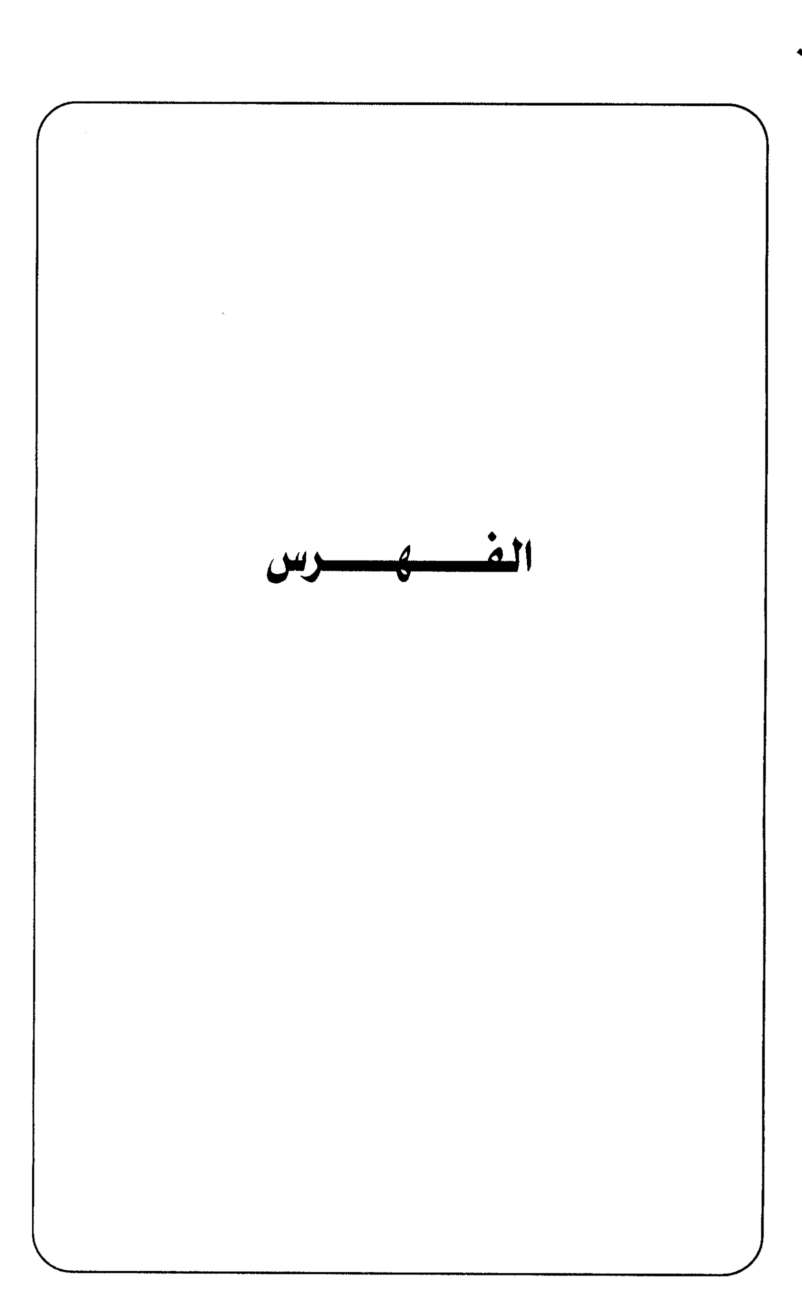


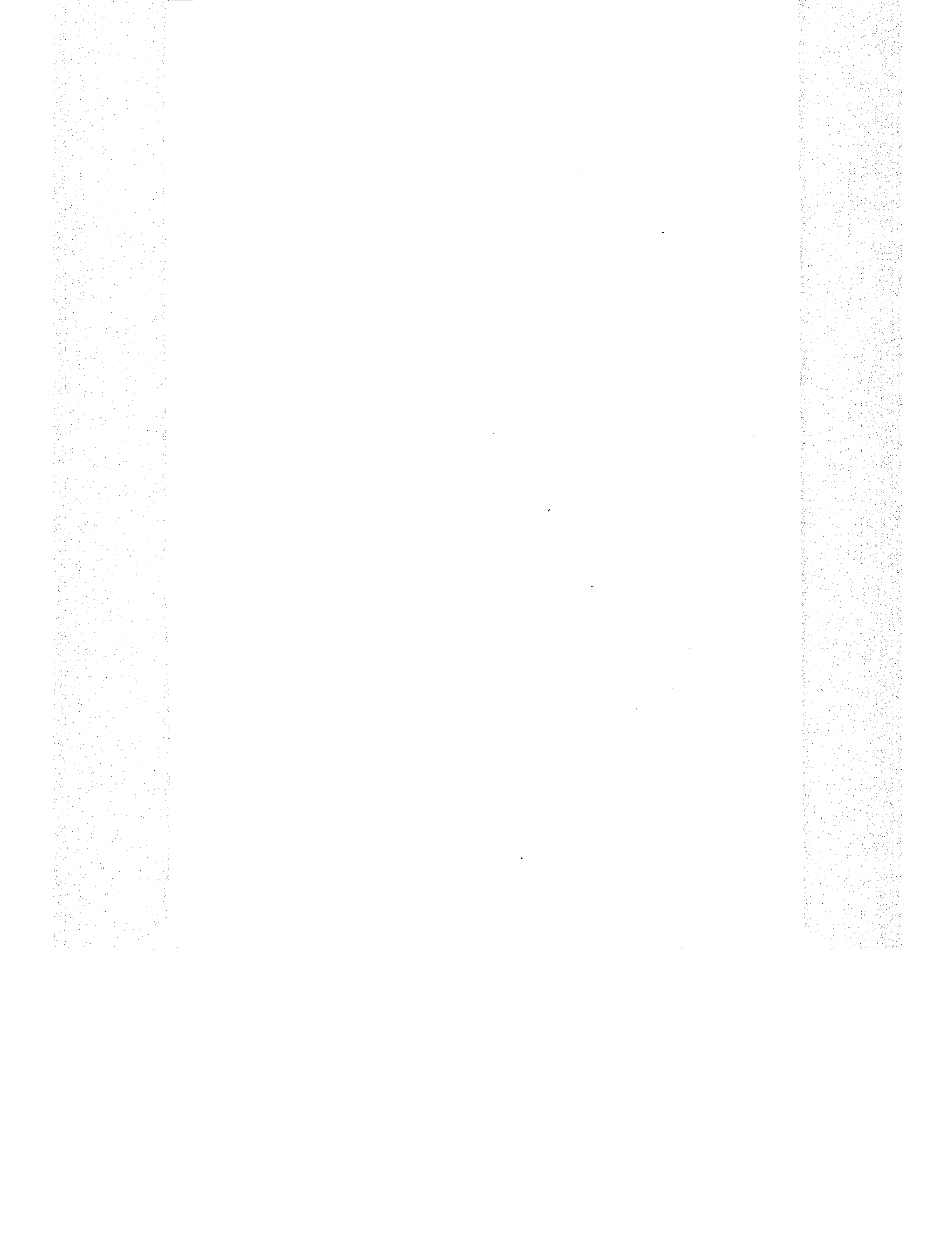









الفـــــهـــــرس



الفهرس

